

محمد جميل بيهم

رئيس المجمع العلمي اللبناني
رئيس اخوان الثقافة



قوافل العروبة ومواكبها

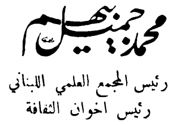
خلال العصور

الجزء الاول

وهو يتناول تاريخ الأمة العربية منذ العهد القديم حتى مطلع نهضتها الحديثة

مطبعة الكشاف بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦٧هـ * ١٩٤٨ م



رئيس المجمع العلمي اللبناني
رئيس اخوان الثقافة



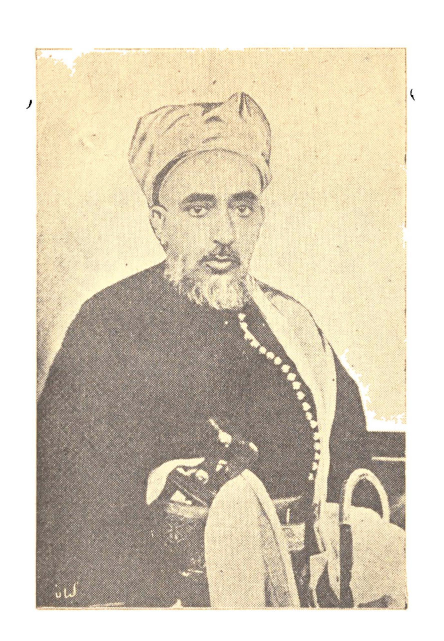
خلال العصور

الجزء الاول

وهو يتناول تاريخ الأمة العربية منذ العهد القديم حتى مطلع نهضتها الحديثة

مطبعة الكشاف بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦٧هـ * ١٩٤٨م



حضرة صاحب الجلالة الامام الناصر لدين الله احمد
ملك المملكة اليمنية السعيدة

إن رباطة الجأش العجيبة التي تحلى بها جلالته إبان فتنـة ابن الوزير ، كانت آية من آيات البسالة التي استرعت انظار العالم واستحقت اعجابه .

وهي ، بالاضافة إلى ما أعرفه عن صاحب الجلالة من اتساع في المعرفة ، وحب للاصلاح والتجدد، كانت لي حافزاً على تزيين صدر هذا الكتاب القومي برسم جلالته الكريم ، وذلك تخليداً لذكرى هذه الشجاعة المثلى التي غيرت وجـــه التاريخ في اليمن العزيزة ، وعربوناً على الاخلاص .

المؤلف

مقدمة الكتاب

تضفي الوقائع على العالم العربي مسحة محبوبة من الأتحـــاد القومي تكاد تداني درجة الوحدة . وهي لم تقتصر على الأهداف العليا فحسب ، بل تعدتها الى السياسة العامة . وقد توثقت عرى هذا الاتحاد في قضية الساعة : قضية فلسطين ، حتى بلغت مستوى الوحدة ، سواء في القيادة العسكرية ، او في مباحثات مجلس الامن وهيئة الامم المتحـــدة .

غير ان العالم العربي ، الذي كان أمة واحدة في الماضي ، ثم اصبح ، في الحاضر ، على حال من التكتل واجتماع الكلمة قليل النظـير ، لم يبرح ، مع ذلك ، محروماً من سفر قومي عام يجمع بين تواريخ شعوبه في الماضي البعيـــد والحاضر القريب ، ويشمل انباءهم المشرقية والمغربيـــة ، كما يدون ، الى جانب اخبارهم السياسية ، شروط حياتهم في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

بهذه النزعة الاصلاحية أقدمت على وضع هذا الكتاب متوخياً فيه الدقـة مع النزاهة ، والايجاز مع الشمول . وقد سلكت فيه مسلكاً جديداً في تحديد العرب ، يتطور بتطور التاريخ .

ففي كتابة التاريخ القديم اخترت العـــدول عن المصطلح الذي يرجع اصول الامم الى نوح وابنائه ، واعتمدت على الوطن الجغرافي وحده ؛ لان هـذا الوطن هو حقيقة راهنة ، بينما قد يكون سام واخوانه اسماء لمسميات رمزية . ولذلك فقد

اوردت ،في عداد العرب ،أهل تلك الموجات المتعاقبة التي تدفقت من جزيرة العرب على الاقطار المجاورة .

وفي تدوين تاريخ القرون الوسطى ، حيث ازدهر العهد الاسلامي ، اخترت ان اكون اشدّ تحفظاً في تحديد العروبة : فلم اكتف باللغة والحضارة ، ابان هذا العهد ، عنواناً للدلالة عليها . وذلك لأن لغتنا كانت وقتئذ لغة السياسة والثقافة في العالم ، ولا سيما بين المسلمين .

واما في الكلام على التمدن الحديث فقد اضطررت الى التوسع في صعيد تحديد الشعوب العربية ، فجعلت اللغة والتقاليد والمصالح شعار القومية ،ولا فرق في ان يكون الدم عربياً خالصاً ، كما هو في اليمن ونجـــد ، ام مزيجاً ، كما هو في مصر ولبنان .

وجل ما نتوخى هو ان نزوّد المكتبة العربية بتاريخ قومي يجمع ،على ايجازه، بين ماضي العرب وحاضرهم حتى الساعة ، ويشمل انباءهم من المحيط الاطلسي الى خليج فارس : تاريخ اذا تلاه المغربي او المشرقي من اولاد العروبة ؛ واذا قرأه المسلم منهم او غير المسلم ألفوا فيه جميعهم تاريخاً قوميـــاً يجعلهم يتحسسون بتلك الروابط الوثيقة التي تربط بينهم حيثما كانوا ، ولأية ملة انتسبوا .

بيروت ٢٥ آب ١٩٤٨

محمد جميل بيهم



الفصل الاول

العرب في العهد القديم

ذهب المؤرخون في نسبة العرب الى انهم يرجعون الى سام ؛ واما من الناحية الجغرافية فانهم أبناء شبه الجزيرة التي شبهها رنكلمان Ringelmann بالكأس : كلما امتلأت تدفقت أجزاء منها شطر الشمال . وقـــد غلب عليها اسم الجزيرة لان الماء يحتاطها من جهاتهـا الثلاث : البحر الاحمر في الغرب ، وبحر عُمان Oman وخليج فارس من الشرق،وبحر الهند من الجنوب:واما من الشمال حيث تكتنفها الرمال ، فلم يتفق على تعيين تخومها . ونحن نميل الى مجاراة الهمذاني وسائر القائلين بان الشام والعراقين جزء منها ؛ لان هذه البلاد ما تزال تشكل منازل لجالية الجزيرة .

وتاريخ العرب قبل الاسلام مشبع بالغموض ،ذلك لان العرب لم يعنوا ، خلال العهد الاسلامي الاول بتاريخهم الحالي عناية قوم يريدون ان يدوّنوا مفاخر قوميتهم، لان محمداً ، محيي هذه النهضة ، كان رسولا عالمياً ، فبدأ بقومه يتوخى تحويلهم عن العصبية العربية الى الجامعة الاسلامية ،وقضى بالمساواة المطلقة بين العناصر والالوان باعتبار ان المسلمين اخوة متساوون لا فضل لعربي منهم على أعجمي الا بالتقوى .

على ان حكم بني أمية ، الذي قام في بلاد الشام ، وإن اعتبر عهد رجعـــة الى القومية، إلا انه بحيـــاة الحضارة الزاهرة التي زخرت فيه ،بعدعيش البداوة القاحل، صرف الأمويين عن الاهتمام بماضيهم القريب في الجاهلية ، هذا الماضي الذي لا يحمل ذكريات مرضيـــة ، الى الاسترسال في فتح موفق كله فخار وكله آمال بسامة . وخلف من بعدهم خلف استعانوا بالأعاجم، فعمل هؤلاء على اضعاف القومية العربية وإحلال الفكرة الدينية محلها ، وفقاً لمآربهم الخاصة .

وفي الجملة فان المؤرخين ، في الاسلام ،قد وجدوا في هذا الشرع، وفي حضارة العرب موارد عذبة تروي ظمأهم ، وتردهم عن ضرورة التوغل الى ما قبل الاسلام .

ولم يوفق التمدن الحديث كل التوفيق في جــلاء الغموض الذي يغشى تاريخ العرب في العهد القديم . ذلك لان جزيرة العرب لا تزال الى اليوم على حال شبيهة بالعزلة ، خصوصاً ان الاثريين لم يستطيعوا التنقيب فيها عن الآثار والعــاديات الا قليلا .

ولقد كان من الشائع الى عهد غير بعيد ، ان نهضة العرب انما تبدأ بسيدنا محمد . غير ان الواقع ان العرب امة قديمة ، اصابها ما أصاب غيرها من تبدل وتطور. فمن البداوة الى الحضارة ، ومن الحضارة الى البداوة . الى أن نهضوا بالاسلام فكانت نهضتهم هذه كما وصفها دوسو Dussaud وثبة من وثباتهم الكبرى .

ونحن لا نزعم اننا سنملأ شيئاً من الفراغ في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وانما سنعرض نتفاً ، عوّلنا عليها ، مما توصل اليه المدققون ، وهي في نظرنا ، أشبه شيء بواحات في صحراء مجهولة المدى ، او بسراب يحسبه الظمآن ماءً .



العرب في شمال الجزيرة

الطبقة الاولى

عصر بابل ونينوى وفراعنة مصر

العهد السامي : في واديي الفرات والنيل الأسفلين اهتدى البشر الى استخدام المعادن ، وتوصلوا الى مبادىء في الاختراع تعتبر باكورة التفكير . ونعم سكان هذين المصرين بخصب منقطع النظير مما جعل لهما قصب السبق في ميدان الحضارة .

وفي طليعة الشعوب التي ولت وجهها شطر هذين الواديين قبائل مجاورة كانت تقيم في جزيرة العرب . وقد هبطوهما ، في بادىء الامر ، قلائل ، وذابوا في اهاليهما . غير ان ما ذاع من اخبار خيرات أودية الرافدين والنيل لم يلبث ان استهوى افئدة اخوانهم المخلفين ، فجاؤها افواجاً افواجاً . وبذلك ظهرت قوميتهم .

ودار الفلك دورته فاذا بهم يصبحون اسياد القطرين وما حولهما . واذا باوطانهم الجديدة تمنحهم اسماء جديدة : فهم في العراق آراميون ، وفي مصر الرعاة ، وفي سورية أموريون ، وكنعانيون .

واننا لنجاري بعض المؤرخين باطلاق لقب العمالقة Amalécites عليهم .

ونحن نورد هذه الشعوب السامية في تاريخ العرب القديم ليس اعتماداً منا على وحدة اللغة فحسب ، بل مراعاة ايضاً للاصل الجغرافي ، ووحدة الوطن . ومع ذلك فنحن لا نعتبر هؤلاء الاقوام عرباً الا من قبيل التجاوز ، لا من قبيل التحديد .

. . . . .

عمالقة العراق : يروي باتون المؤرخ الامريكي « ان اول هجرة سامية ورد ذكرها في التاريخ هي التي اتجهت الى ما بين مصبي دجلة والفرات . وقد كانت تلك البلاد مقسمة بين حكومات كثيرة اقطاعية فنزل الساميون في الجانب الشمالي منها ، ثم انتشروا واختلطوا مع اصحاب البلاد ، وصاروا في القرن ٣٦ ق م أصحاب مدنية زاهرة . واذا صح ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن سرجون الاول مؤسس الدولة الكلدانية ، واشهر ملوكها ، سامي العنصر فان جالية جزيرة

العرب تكون بذلك قد تربعت بدست الحكم في بابل منذ نحو اربعـــة الآف وخمسماية عام .

ويؤخـــذ من قول زيدان (العرب قبل الاسلام) بانهم اكتشفوا في العراق سنة ١٩٠٦ نصباً من شأنه ان يثبت نسب هذا العاهل الى السامية ، إذ نقشت عليه اخبار فتوحاته بلغة سامية .

هذا ومما لا ريب فيه ان السومريين Sumeriens ، سكان العراق الاولين ، تضاءل شأنهم تدريجياً حتى تحولت السلطة الى الآراميين ، وهم من جالية الجزيرة العربية ايضاً . وأقدم من أشار الى ان العرب قد بسطوا سيادتهم عـــلى العراق باسمهم الصريح كاهن آرامي إسمه باروز – بيروسوس عند اليونان – من أهل القرن الرابع ق. م. ثم جاءت آثار بابل واشور مؤيدة روايته . وخلاصتها قيـــام دولة عربية في بابل تولت الحكم بضعة قرون خـــلال الألف الثالث ق. م. ومن رأي زيدان ان دولة العرب التي اتى على ذكرها هذا الكاهن توافق ما يسميه المؤرخون المتأخرون الدولة البـــابلية الاولى « ٢٤٦٠ – ٢٠٨١ ق. م ». وهي التي اخرجت للناس شريعة حمورابي Hamourabei قبـــل ٢٣ قرناً من الميلاد . ومنذا الذي لا يدري ما هي تلك الشريعة ؟

وقد وجدوا سنة ١٩٠١ م ، في بلاد السوس بالعراق ، نسخة عنها منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود ؛ فثبت بها ان لا جديد في العالم .

على ان المؤرخ رولنسن M. Raulinson الانكليزي يذهب الى ان المدة التي تبوأت فيها الاسرة العربية الحكم ، بمقتضى ترتيب الكاهن باروز ، يجب ان تكون ممتدة ما بين سنة ١٥٤٦ و ١٣٠١ ق. م. واذا صح تقديره تحتم قيام دولة عربيـــة اخرى غير دولة حمورابي في تلك الديار ؛ ولعلها دولة العيلاميين التي قامت بالسوس خلال ما كانت اثور في نينوى تنهض لتخلف بابل . والعيلاميون أعرق في السامية من غيرهم ، حسبما تفيد التوراة ، وتؤيده الاكتشافات الاثرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت العاقبة لأثور منذ القرن الخامس عشر ق. م. إذ تفوقت على دولتي السوس وبابل ، ثم استمرت ، نحو الف عام ، تلقي الرعب في روع العالم . وما أثور إلا سامية ايضاً ، وهي من بقايا تلك الموجات البشرية ، التي قذفت بها جزيرة العرب .

. . . . .

عمالقة سورية : وبينما كان شأن الآراميين السريان يعتزّ في العراق ، ويتسامى

يوماً بعد يوم ، اذا بموجة أخرى من الجزيرة تتقدم نحو الشمال قوامها الاموريون والكنعانيون ، الذين استمرّوا يرابطون في بادية الرافدين ، حتى اذا تضعضع الكلدان أتاح لهم تضعضعهم هذا فرصة الانقضاض على سورية ؛ فاحتل الاموريون الداخل ، وهبط الكنعانيون الساحل ، ممتدين فيه نحو الجنوب .

وقد عرف الذين احتلوا الساحل السوري من بعد بالفينيقيين ، واما الذين سكنوا فلسطين فقد احتفظوا باسمهم ، واستمروا يعرفون بالكنعانيين .

وكانت سورية ، خلال التمدن الكلداني في العراق ، لا تزال على البداوة . مما دفع الكلدان لغزوها اكثر من مرة خلال الالف الثالث ق. م ؛ وانتهى بهم الامر الى بسط سيادتهم عليها وحضارتهم . ثم لما دخلت سورية في حكم الاموريين والكنعانيين الفى هؤلاء الحضارة الكلدانية منتشرة فيها ، فتعهدوها وروّوها . وبذلك اخضلت وازدهرت ، وعرفت من بعد بالمدنية الفينيقية .

على ان فينيقية ظلت تعرف ببلاد كنعان حتى زمن السيد المسيح ؛ ولا أدل على ذلك مما ورد في الانجيل الشريف عن ابرائه امرأة كنعانية في تخوم صور وصيدا . وأما لقب فينيقية فهو أعجمي ، وقد قيل ان المصريين كانوا يسمونهم بوني او فوني ، فحرفها اليونان الى فينيق ، وقيل ان هذه اللفظة يونانية معناها بلاد النخيل .

هذا واذا استثنينا حروب قرطاجنة لروما فاننا لا نجد في تاريخ الفينيقيين السياسي مجالا للفخر . ذلك لان انحصار بلاد فينيقية بين البحر والجبال لم يطلق لها المجال لتأليف امبراطورية فاتحة ، كما فعل الكلدان والاشوريون والمصريون ؛ بل كان تاريخها السياسي عبارة عن حكم اقطاعي مليء بالتنازع . وكانت فينيقية كالكرة تتناقل دواليك من سلطة العراق الى مصر ، ومن مصر الى العراق .. على ان الفينيقيين ، الذين حال مقامهم الجغرافي دون امتداد مطامعهم في الناحية السياسية ، قد تحول نبوغهم الى اكتساح العالم بحراً في الناحية الاقتصادية . واتجهت مفاخرهم الى التقدم في ميدان الحضارة . فبينما كان اخوانهم في الجنوب مشتبكين في كفاح مستمر مع مواطنيهم الفلسطينيين القدماء ، ثم مع الاسرائيليين ، كان الفينيقيون منهمكين في التجارة . وقد بدأوا ، بمزاولتها كوسطاء بين مصر والعراق وقبرص ، ثم أمعنوا وركبوا الاسفار حتى أصبح البحران الاسود والمتوسط حقلاً لمطامعهم ، يحرثونه جيئة وذهابا . ثم تعدوهما الى المحيط الاطلانتيكي . وعظم شأنهم حتى اتخذوا لهم مستعمرات امتدّت في شمال افريقيا وجنوبي اسبانيا ، فكانت بمثابة محطات

لاعمالهم الاقتصادية . وبذلك أخذ الفينيقيون على عاتقهم طيلة سبعة قرون مهمة الوساطة في التجارة والتمدين بين الأمصار المتمدنة، والأمصار المتأخرة (من القرن ١٥ الى ٨ ق.م) .

وحسبهم فخراً انهم كانوا صلة الوصل بين مدنية اليونان ومدنيات مصر واشور والكلدان ، وناهيك بما صار لهم من الشأن في صعيد الصناعة .

وقد شاهدت في متحف توليدو Toledo. oh عام ١٩٣٩ تحفاً بلورية فينيقية لا تبرح حتى الآن تضاهي أفضل المصنوعات الحديثة .

وما احسن ما وصفهم به كرانجر D.Granger : فبعد ان أومأ الى فضلهم في تهذيب الاحرف الابجدية ونشرها قال : « لو قوبلت المساحة الصغيرة التي كانت تشغلها فينيقية برحابة مؤسساتها العالمية ، وبما حصلته من المكانة العظيمة في ميادين التجارة والصناعة ، عدا الدور الذي مثلته في التمدن ، لجاء الاعتقاد جازماً بأن تاريخ هذا الشعب الصغير هو بمثابة بادرة لا مثيل لها في تاريخ البشر . »

هذا وأول ذكر ورد في تاريخ العرب بسورية باسمهم الصريح ، جاء في رقيم أصدره شلمناسر الاشوري بمناسبة الحملة التي قام بها على ملك دمشق وحلفائه سنة ٨٥٤ ق.م . وقد ورد في هذا الرقيم بين اسماء هؤلاء الحلفاء اسم جندُب ، وهو امير من امراء العرب في سورية .

. . . . .

عمالقة مصر : كان بدو جزيرة العرب يتنقلون بين النيل والبحر الاحمر في بادية مصر الشرقية ، كتنقل البدو فيها اليوم تماماً . وكانت لبعضهم سيادة على جزيرة سينا وما يليها . ومن هنا نشأ اتصالهم بمصر وبابل لما كان من تبادل التجارة بينهما . وقد أسمى المصريون هؤلاء البدو بالرعاة (شاسو)،واتخذوهم عدة في الحروب الداخلية ، التي كانت تقع في وادي النيل، واعواناً لبعضهم على البعض الآخر .

وظل هؤلاء الكنعانيون ، الذين عرفوا ايضاً باسم هيكسوس Hyksos ، على بداوتهم أزماناً طويلة ، الى ان سنحت لهم الفرصة فوثبوا على مصر وامتلكوها ، وأجلوا الفراعنة عنها الى الصعيد . واختاروا مدينة تانيس Tanis عاصمة لحكومتهم. ولما هبط الهيكسوس مصر ألفوا في الوجه القبلي منها جالية من تجار الفينيقيين سبقوهم اليها . وربما كان هؤلاء في جملة ما مهد لهم سبل الفتح ، ومكن لهم في الحكم ، لما بينهما من وحدة النسب واللغة . واستمر حكم الهيكسوس في مصر طيلة ستة قرون (٢٢١٤ – ١٧٠٣ ق.م) تعاقبت خلالها ثلاث اسر منهم . ثم كانت

للعرب ،بعد الهيكسوس، وثبات اخرى على مصر ، ولا سيما على صعيده وصحرائه الشرقية . وقد اخبرني الاستاذ محمد علي علوبة باشا ، احد العلماء الذين تولوا الوزارة في القاهرة ، ان المرحوم أحمد كمال باشا ، من علماء الآثار بمصر ، بحث بحثاً مستفيضا في علاقات العرب بوادي النيل قبل الاسلام ، وفي تقارب اللغتين الهيروغليفية والعربية تقارباً حدا به الى التصريح بان احداهما قد تكون مشتقة من الاخرى . وقال ان المشار اليه وضع قاموساً لاثبات نظريته هذه لم يطبع الى الآن .

. . . . .

الطبقة الاولى : بقايا انقطعت اخبار العماليق بعد جلائهم عن العراق ومصر . وربما كان ذلك لعودتهم الى البداوة . ولعل بعض الدول التي نشأت بعدهم في اليمن والحجاز تفرعت عنهم . كما يظن ان القبائل التي ورد ذكرها عرضاً في القرآن الكريم ، من قبيل العبرة والذكرى ، كعاد وثمود ، وعدها المؤلفون من العرب البائدة ، إن هي الا من بقاياهم . واذا صح ان عاداً اقتحموا مملكة الكلدان وحكموها سنة ١٥٤٦ ق . م ما يقرب من قرنين دلّ ذلك على انه كان للعرب في ميدان المجد كرة اخرى قام بها احفاد عمالقة الطبقة الاولى .

. . . . .

العبرانيون : في جملة الموجات التي قذفت بها جزيرة العرب قوم انتهى بهم المطاف الى النزول في الجهة الشرقية من البلاد الواقعة بين دجلة والفرات . ثم عبروا الى غرب الفرات فاطلق عليهم الكلدان اسم العبرانيين ، اسوة بما كانوا يسمون به سكان ما وراء هذا النهر .

ويعتبر المؤرخون ابراهيم الخليل بن تارح جداً للعبرانيين من ولده اسحاق ؛ كما يعتبرونه جداً للعرب المستعربة من ولده اسماعيل .

وخلاصة تاريخ ابراهيم انه ولد في نحو الفي سنة قبل الميلاد في أور الكلدانيين، ثم انتقل الى حران غرب الاور . ولم تمنعه شيخوخته، بعد وفاة ابيه ،من الاسترسال في الاسفار سنين طوالا يصحبه بعض قومه ، حتى حط عصا الترحال في ارض كنعان . وربما كانت هجرته بدافع اقتصادي ، وربما استغواه ما صار الاسيويين في مصر الخضراء من العز والرخاء في ظل ملوك الرعاة فشخص بعشيرته اليها . غير ان ابراهيم الخليل لم يطل به المقام في مصر فتراجع الى فلسطين . وقد ولدت له زوجته هاجر اسماعيل ، ثم بعد ثلاث عشرة سنة ولدت له زوجته الثانية سارة اسحاق . وكان من نصيب هذا المولود الجديد ان بقي في كنف والده ، بينما اخوانه

انتشروا في الارض يبغون الرزق . واختار اسماعيل وامه النزول في مكة .وكان من عقبه العرب المستعربة ، ومنهم محمد الرسول .

وأظهر ما في تاريخ العبرانيين قصة يوسف بن يعقوب الشهيرة ، وقد حدثت ايام دولة الرعاة الثانية ، وفي عهد اشهر عواهلها ايابي اعاكنن الذي يسميه العرب الريان بن الوليد .

وفي ايام هذا الفرعون نزح كثيرون من اهل الشام الى مصر واستوطنوها ، ولحق بهم العبرانيون عهد يوسف ؛ حتى اذا دالت دولة الرعاة العرب في مصر اخذ المصريون يستثقلون ظل العبرانيين . وكان مولد موسى خلال اشتداد المظالم عليهم في ايام منفتاح بن رعمسيس الثاني . فلما صارت الزعامة الى موسى بين قومه سار بهم الى طور سيناء حيث تلقى الوصايا العشر . ثم استأنف السير الى بلاد الأدوميين فالموابيين ، وفتح بلاد الاموريين ، وشرقي الاردن . ولكنه توفي قبل بلوغ ارض الميعاد . وتقدم يشوع بن نون الذي خلفه ، وعبر بقومه الاردن في نحو سنة ١٤٥١ ق. م . وبذلك انتهى تاريخ العبرانيين ، وبدأ تاريخ اليهود ، وهو ملىء بالقسوة والمفاسد والانانية .

السامية والعربية في الطبقة الاولى : ان الشعوب التي تكلمنا عليها في هذه الطبقة ، وان كانت ، في الواقع ، سامية ، وليست عربية بمقتضى مفهوم العروبة ، الا انها لم تكن ، مع ذلك ، منفصلة عنها ، لا في التاريخ ، ولا في الأصل القومي واللغوي.

وعلى رواية الاستاذ فيليب حتي ، فان ديانة موسى ترجع إلى أصل عربي . ذلك أنه قال في كتابه الأخير عن العرب « وفي مديان بجوار سيناء تزوج موسى من امرأة عربية ، كانت ابنة كاهن مدياني ، وقد كان هذا الزواج من أهم حوادث التاريخ . إذ كانت تعبد إلهاً يدعى ياهُوَ ، فلقنت زوجها هذا الطقس الديني . »

وهذه الرواية فضلاً عن انها تشير الى اختلاط الشعوب السامية بعضها بالبعض الآخر ، فهي تبرهن على وجود الشعب العربي الخالص في سورية زمن الفراعنة ، متمتعاً بالتفكير العالي .

ويؤيد ذلك ان ايوب، الذي ابتدع أرقى شعر في العالم السامي القديم، لم يكن عبرانياً بل عربياً، كما ان شوليت، التي خلد جمالها نشيد الاناشيد، المنسوب لسليمان ، كانت ، على الارجح ، عربية من قبيلة قيدار .

العرب في شمال الجزيرة

الطبقة الثانية

عصر اليونان وفارس والرومان

العهد المخضرم : ان الاخبار التي وصلت الينا عن الطبقة الاولى ، على قلتها ، تشير الى ان جالية جزيرة العرب وثبت ، في الاعصر الخالية ، وثبات قصرت عنها الامم التي كانت تعاصرها. ثم انقطعت عنّا ، من بعد، أنباء هذه الجوالي إلاّ نتفاً وردت عرضاً في تاريخ العالم . واننا لكذلك إذ تواجهنا نهضة ثانية قوامها جوالٍ أخريات صدرت عن الجزيرة ، ولكنها لم تدرك مرتبة النهضة الاولى . وربما كان مرد ذلك الى انها عاصرت دولاً عظيمة : كاليونان والفرس والرومان ، كانت اشد منها حولاً ، فلم تفسح لها المجال للظهور .

واذا كانت عناصر الطبقة الاولى عرباً من حيث الجغرافيا فان بعض عناصر الطبقة الثانية كانوا عرباً اقحاحاً ، أو قديمي العهد بالاتصال بها على الاقل . فقد رُوي ان اسماعيل بن ابراهيم ولد له اثنا عشر ولداً نشأوا في مكة ، ثم انتشروا نحو الشمال الى مشارف الشام ، وذلك هرباً من قحط شديد الم بالحجاز حوالي سنة ٦٠٠ ق . م. وقد وجد هؤلاء المهاجرون هناك دولاً تمتّ اليهم بالقرابة، فعاشوا في ظلالها . ثم سنحت الفرص من بعد لبعضهم فاستخلصوا الحكم لانفسهم . واشهرهم بنو نابت ، وبنو قيدار . وقد ورد ذكرهم في سفر أرميا النبي . وبنو يطور وبنو تيماء . وفي اخبار الأيام الاول (٥ : ١٩) ان بني نفيس كانوا مع اليطوريين بالشام . ومما لا شك فيه ان القومية العربية الخالصة واللغة العربية اخذتا في هذه الحقبة تستبينان في شمالي الجزيرة حتى البحر المتوسط. والى مثل هذا يشير دوسو Dussaud بقوله « اذا كان الفتح الاسلامي بما أصاب من اتساع ، يظهر حدثاً غريباً ، فانه في الحقيقة نتيجة طبيعية لحركة عادية عكف عليها العرب اولئك الذين ما فتئوا يحاولون الاستيطان في اراض طيبة المنزل . »

واشهر الدول التي ظهرت في هذه الحقبة، والتي يرجع اصلها الى جزيرة العرب هي كما يلي : .

دولة الادوميين : رددت التوراة ذكر الأدوميين Iduméens سكان ادوم Idumée في الجنوب الشرقي من فلسطين . وارجع بعض المؤرخين نسبهم الى بني عيسو بن اسحاق . وكانوا خصوماً الداء للاسرائيليين ؛ ويرجع تاريخ هذه الخصومة بينهما إلى عهد موسى حينما جلا عن مصر وأراد أن يجتاز بلاد الأدوميين . فقد صدّه هؤلاء واضطروه الى أن يسلك طريقاً آخر . فكان ذلك مصدر عداوة تاريخية بين الشعبين استمرت الى زمن داود وسليمان ، ثم الى زمن يهوشافاط وأشعيا . ولما نكب بختنصّر ملك بابل Nabuckodonosor العبرانيين تنفس الأدوميون الصعداء ، وتمكنوا من الاستيلاء على قسم من فلسطين ، ثم امعنوا في التوسع حتى ادركوا حدود مصر ، وبلغوا شواطيء البحر المتوسط .

وقد قيل ان البيئة العربية أثرت عليهم من ثم حتى اصبح طابعهم القومي اقرب لابناء اسماعيل منه لابناء اسحاق . وكانت عاصمتهم بطرا ، فخلفهم عليها أنسباؤهم الانبات وذلك قبل القرن الرابع للميلاد .

. . . . .

دولة الانبات : اخترنا كتابة اسمهم بالأنبات بدلاً من الانباط الذي جرى عليها المؤرخون اعتماداً على ما ذهب اليه فريق من المؤلفين بانهم من سلالة نابت بن اسماعيل . ويروي هؤلاء المؤرخون ان الانبات نزحوا عن الحجاز ، فيمن نزح من اخوانهم، سنة ٦٠٠ ق. م. وحطوا رحالهم في أيَلةِ (العقبة) ، وكانت وقتئذ للادوميين ، ثم توالت الايام ، فاذا بالانبات يقومون على انقاض سادة بطرا .

هذا ومما يجعل النفوس تطمئن الى القول بعروبة هذه الدولة اسماء ملوكها التي وصلت الينا : فقد كان العرب قبل اصطلاحهم على الحرف الحيري يكتبون بالحرف النبتي ، الذي اصطلح عليه أبناء عمومتهم . وأما مؤرخو أوروبا فقد أحصوا هذه الدولة في عداد الآراميين ، وعنوا عناية طيبة في تدوين اخبارها استناداً إلى ما وجدوا ،في مدائن صالح .من آثارها التاريخية المهمة ،واعتماداً على ما عثروا عليه من نقوش على الاحجار المنتشرة فيمابين وادي موسى وقناة السويس،وبين العقبة والطور.

ويستدل من آثارها انها تمتعت ببسطة في الملك ، ومدت سلطتها ، إبان ازدهارها ، على معظم الجانب الشمالي من جزيرة العرب : من سيناء فحوران غرباً الى تخوم العراق شرقاً،ومنها الى وادي القرى في الجنوب . ودخلت دمشق ، التي كانت عاصمة السلوقيين ، في نطاق مملكتها .

ورغم ان الانبات عاصروا ، بعد ذلك ، بطالسة مصر وسلوقيي Sélucide سورية فقد استطاعوا ان يحتفظوا باستقلالهم .

على ان الشهرة التي ادركتها هـذه الدولة لم تكن من جراء الفتح ، بل كانت بسبب التجارة ، شأنها في ذلك شأن الفينقيين . فهي قد قامت في بلاد ، بعضهـا صخري ،وبعضها قاحل ، ولذلك لم تكن لديهازراعة تصرفها عن الاتجاه شطرهدف آخر تكسب به رغد العيش. وقد استفادت من موقعها الجغرافي، وملاءمته للاتجار فانتهت اليها ناصية التجارة. وعلى رواية دوبو ذورس الصقلي في القرن الاول ق.م. « لم تك تمر تجارة بين الشرق والغرب الا على يدهم » .

على انهم مع ذلك لم يهملوا التعدين والصناعة : فان الكتابات التي وجدت لهم في وادي النصب،ووادي المغارة تنوه بما كان لهم من العناية بالتعدين.

ولما كان مجدهم قد قام على هذه الاسس فانه سرعان ما تضعضع عندما تحولت سبل التجارة الى نهجها القديم . ذلك ان قوافل عربية أخرى قامت تأخذ على عاتقها نقل التجارة من القـُصير على البحر الاحمر، الى قفط على النيـــل ؛ فجفت بذلك موارد الانبات ولانَ جانبهم . وكان الرفه والرخـــاء قد لطفا من مناعتهم فما استطاعوا ان يدفعوا عنهم، فيما بعد، الامبراطور الروماني تراجان عام ١٠٦م . ثم لم تقم لهم قائمة بعد حملته هذه عليهم .

. . . . .

دولة تدمر Palmyre :كانت القوافل ، في طريقهامن العراق وفارس الى اليمن والحبشة ، تمر منذ القرن السادس ق.م بتدمر بمشارف الشام فتجعلها وسطاً تجارياً رائجاً .ولكن هذه المدينة لم تبلغ شهرتها الا بعد سقوط بطرا ، إذ اتيح لاهليها،من بعد ،ان يخلفوا الأنبات في نقل التجارة بين الشرق والغرب .

ولقد جاور الرومان ، مذ فتحوا سورية ،تدمر ،فكان من الطبيعي ان يطمعوا بها كما طمعوا بغيرهـا ؛ فحاولوا في منتصف القرن الاول ق . م ان يجعلوا تدمر في عداد مستعمراتهم . فامتنعت عليهم ، ولم يبلغوا امنيتهم منها إلا بعد مضي قرن مليء بالكفاح . على ان الايام قـد بسمت لتدمر في عهد الرومان ، ذلك لان اشتداد العراك بينهم وبين الفرس منذ صدر النصرانية ،اضطر الدولتين الى الاستنجاد بالعرب : فاستنجد الرومان بحكومة تدمر ، واستنجد الفرس بحكومة الحيرة. فاذا

بتدمر تتمتع ، من ثم ، إلى جانب استقلالها الداخلي ، بثروة وازدهار جعلاها سيدة الشرق الروماني ، واذا بأسر تدمر ترتع في بحبوحة من المال ، وبسطة من النفوذ تتعدى حدود الشرق الى روما . حتى ان أذينة بن حيران ، عميد احدى هذه الأسر التدمرية ، سما به الحظ لتسنم منصب المشيخة الرومانية .

هذا إلى ان روما في أزمتها الداخلية ما كان يضيرها ان ترى توسع نفوذ تدمر هذه الدولة التي كانت مخلصة لها ، وآخذة على عاتقها كفاح فارس .

ولما مات أذينة ، سيد الشرق الروماني، لمع كوكب امرأته زنوبيا ، بل كانت شهرتها قد بدأت مذ كانت تدير المملكة بصفتها وصية على ولدها وهب اللات. (اثينودورس) وكانت زنوبيا شديدة المطامع، فما أن رأت روما تتخبط في أزمتها الداخلية حتى أعلنت استقلالها الناجز ، واطلقت على ابنها لقب ملك الملوك .

ثم ارادت ان يكون هذا اللقب عن جدارة فسلكت به مسلك الفاتحين ، فاذا هو، بعد زمن يسير، يبسط سلطانه على مصر والشام والعراق وآسية الصغرى حتى انقرة .

ولكن الاسد الروماني ما لبث ان انقض عليه مذ استتب الامر للامبراطور اورليان، فعمل هذا العاهل على التفريق بين زنوبيا وانصارها، ثم عاجل تدمر سنة ٢٧٢ م . بحملة قوّضت اركانها فقضت زنوبيا بقية حياتها منفية : في طيبور، تستعيد ذكرى ذلك الحلم الجميل . . . . .

دولة الايطوريين Yétureèns : يذكر سفر التكوين إيطوربين أبناء اسماعيل ابن ابراهيم (٢٥ : ١٥) . ويؤكد دوسو R. Dussaud بان نسب الدولة الايطورية في سورية يتصل بايطور المشار اليه ، وانها عربية . ومن المتفق عليه ان الايطوريين صدروا عن جزيرة العرب، وتقدموا شطر شرق الاردن .

وبعد أن اقاموا مدة في جبال اللجا، بجنوب دمشق ، نزحوا الى جبل الشيخ ، واستقروا في البقاع . وقد اتخذوا كالسيس Chalsis ، المعروفة الآن هناك بعنجر، عاصمة الدولة. ووافق زمن وصولهم الى مشارف الشام قيام العبرانيين على الفينقيين لازاحتهم عن شمال فلسطين وجنوبي سورية، فاشتبكوا مع بني اسرائيل في هذه الملاحم.

وكانت دولة السلوقيين (٣١٢ق.م. — ٦٤م.) تجاورهم. فلما آنسوا ضعفاً منها، في آواخر القرن الثاني ق. م. استساغوا التقدم في جبل لبنان شطر الشمال، واحتلوا بعض نواحي طرابلس، واقاموا المعاقل فيها ، ثم ما لبثوا ان هددوا جبيل وبيروت.

ولكن الزمن لم يصف لهم : فلما خلف الرومان السلوقيين على سورية دفعوا الايطوريين الى الوراء، ثم حولوا مملكتهم الى اقليم روماني في الجيل السابق للميلاد.

العرب في شمال الجزيرة

الطبقة الثالثة

العصر الروماني البيزنطي

العهد العربي الخالص : يمكن اعتبار العرب من اهل الطبقة الاولى ، ومعظم اهل الطبقة الثانية ، اللذين اتينا على ذكرهما ، في عداد ما اصطلح عليه المؤرخون بتسميتهم العرب البائدة .

وأما الطبقة الثالثة ، التي نحن بصددها ، فهي باصطلاحهم في جملة العرب الباقية . وتمت بالنسب الى كل من قحطان من عرب العرباء باليمن ، والى عدنان من العرب المستعربة بالحجاز .

ويمكن القول بان الحكم الروماني ، وان قضى على دول الأنبـــات وتدمر والايطوريين ، الا انه ، من جهة ثانية ، قد نشط قبائـــل أخرى من العرب الى التقرب من اوساط الحضارة ، والنزول في ربوعها . ذلك ان قيام الدول العربيـة المذكورة في سورية كان مانعاً لهذه القبائل من التقدم . فما ان زالت وزال بزوالها الحجر على حرية العشائر المجاورة ، الا وافسح المجال لهذه القبائل لأن تمثل دورها .

وعدا ذلك فقد وقع حادثان كان لهما اثرهما في نزوح الكثيرين عن جزيرة العرب: ففي الحجاز وما يليـــه تكاثر العدنانيون بشكل دفعهم الى التنازع على العيش ، فتدافعوا نحو الشمال افواجاً افواجاً : وهكذا جاءت سليح Salihides وربان وضجعم وتنوخ Thanuit والصفا وكلب وجرم والعلاف وغيرهـا الى مشارف الشام . وفي اليمن السعيدة تهدمت السدود حوالي تاريخ الميلاد ، فضاقت، من بعد ، أسباب الحياة ضيقاً حمل بعض القبائل على الهجرة.

فنزلت خُزاعة في مكة ، والاوس والخزرج في يثرب ، ولخم في العراق ، وغسان في الشام. ثم تقدم بنو عامل – على قول ابي الفدا – الى الساحل، واحتلوا الجبل المعروف بجبل عامل في لبنان .

وأقام التنوخيون دولة عربية على انقاض دولة الانبات خلفهم عليها زملاؤهم

بنو سليح من قضاعة ، وملكوا مشارف الشام باسم الضجاعمة ، وملك عرب الصفا Safaites جبال حوران. وقد عثر المنقبون الأثريون ، في اواخر القرن الماضي، على آثار لهم ، وخط للكتابة ينسب اليهم . تدل كلها على ماض حافل بالمآثر .

ثم لما استفحل امر آل غسان اليمنيين اضطرت هذه القبائل الحجازية الى الجلاء لهم عن مشارف الشام . فرحل اكثرها الى العراق ، وتقدم بعض التنوخيين الى جنوب لبنان ، وبذلك انتقلت امارة مشارف الشام من العدنانيين الحجازيين الى القحطانيين اليمانيين .

. . . . .

دولة الغساسنة Les ghassanides : تغلب آل غسان على امارة الضجاعمة في البلقاء اواخر القرن الثاني للميلاد ، واتخذوا مدينة بصرى ، بمشارف الشام ، قاعدة للامارة . وقد خدمهم الحظ منذ نشأتهم فتمتعوا لدى البيزنطيين بمثل ما تمتعت به تدمر لدى الرومان ، كما خلفوها في تمثيل الدور السياسي الذي مثلته . ذلك ان فارس والعراق كانا قد اصيبا بالتجزئة منذ قرون على اثر انتصار الاسكندر الكبير على داريوس الثالث . وذلك من جراء تنازع ملوك الطوائف فيها تنازعاً صرفهم عن عدوهم القديم . وفي سنة ٢٢٣ م : اي بعيد قيام آل غسان بمشارف الشام ، جمعت الدولة الساسانية شمل الفرس تحت لوائها ، وتحولت الى الرومان تناصبهم العداء القديم ،مما جعل روما تزداد اهتماماً بالغسانيين ، فكانت ، كلما ازداد الخطر الفارسي استفحالا ، تزداد في اغداق النعم عليهم والالقاب،حتى اصبحوا ملوكا. وخلال ذلك تخلى الغسانيون عن الاوثان واعتنقوا النصرانية .

وقد اختلف المؤرخون في تعداد ملوك هذه الاسرة ، ولكنهم كادوا يتفقون على تعيين مدة حكمها باربعة قرون ونيف ،وعلى تحديد تخومها . واشهر ملوك الغسانيين الحارث بن جبلة ، في اوائل القرن السادس للميلاد،وكان اشدهم انتصاراً للروم على الفرس .

ولقد أشرفت دولة الغسانيين على الزوال مذ أفل نجم هرقل وقومه الروم في سورية على اثر الحملة الناجحة التي قام بها الفرس عام ٦١٣ م . وقد حاول آل غسان ان يستعيدوا شأنهم بعد ان استرد البيزنطيون بلاد الشام ، ولكن سرعان ما عاجلهم الفتح العربي فكان مصيرهم في الشام مصير البيزنطيين . وما وسع جبلة بن الايهم اخر ملوكهم ، إلا ان يدخل في الاسلام . ثم التجأ جبلة الى القسطنطينية فاراً من

ديمقراطية تجعل الرفيع والوضيع في نظر القضاء سواء . وذلك على اثر حادثة مشهورة لم يرقه فيها حكم عمر بن الخطاب .

وقد أشار كوستاف لوبون الى ما كان يتمتع به الغساسنة من الرقي والتمدن فقال : « برهنت اكتشافات الاثريين في جوار بصرى ، بما عثروا عليه من الصروح الفخمة المغشاة بالخطوط السبأية ، ومختلف الكتابات الرومانية ، على عظمة التمدن الذي تمتع به الغسانيون . كما ان اثار الري ، التي شوهدت هناك ، تشير الى ما كان لديهم من استعداد للقيام باعمال تعتبر ، في الواقع ، من الاعمال الجبارة . »

وقد أحصى كوستاف لوبون للغسانيين ستين مدينة كانوا يتخذونها كمعاقل لهم .

. . . . .

دولة لخم : لما هاجر آل تنوخ العدنانيون الى شمال الجزيرة انشطروا شطرين : فولى أحدهم وجهه شطر الشام ، والآخر شطر العراق . وقد اتيح لتنوخيي العراق ان يبسطوا حكمهم على تلك الاطراف ، واتخذوا الحيرة بالنجف قاعدة لهم ، وكان آخرهم جذيمة الابرش . وانتقل الحكم من بعده الى ابن اخته عمرو بن عدي بن لخم . ومن جراء ذلك لقب عواهل الحيرة باللخميين .

وقد كان اللخميون عمالاً للفرس على اطراف العراق عندما كان الغساسنة عمالا للروم في مشارف الشام . اغدق عليهم الفرس النعم والالقاب ، وكانوا يزيدونهم من هذه العطايا كلما ازدادوا حاجة الى نجدتهم في حروبهم المتصلة مع الروم .

وقد توالى على عرش الحيرة اثنا وعشرون ملكاً . اولهم عمرو بن عدي (٢٦٨ – ٢٨٨ م) . وآخرهم المنذر بن النعمان (٦٢٨ – ٦٣٢ م) . وأشهرهم المنذر بن امرىء القيس (٥١٤ - ٥٦٣ م) . وقد اكتسب المنذر شهرته من الظروف والاسباب التي اكسبت خصمه الحارث بن جبلة ، ملك غسان الصيت الذائع . ذلك انه تبوأ عرشي فارس وبيزنطة في ايامه عاهلان من أشد العواهل بأساً وتنافساً ، هما كسرى انوشروان ، والقيصر يوستنيانوس . فكانت شدة الحروب التي نشبت وقتئذ بين الامبراطوريتين مما أضفى على كل من عاهل الحيرة وعاهل غسان الشهرة الواسعة .

وقد اطرى كوستاف لوبون حياة الرغد والحضارة التي كانت وقتئذٍ في الحيرة بقوله « ان ملوكها كانوا يضاهون الاكاسرة والقياصرة في بذخهم ونعيمهم » ، ووصف قصورها بانها أجمل وأهنأ مساكن الشرق .

وكان اللخميون وثنيين فتنصروا ، وإنما لم يُحدد موعد تنصرهم . فمن قائل انه كان في اوائل القرن الرابع .م ، ومن قائل انه في اواخر القرن السادس . واما مصيرهم السياسي فكان كمصير منافسيهم كندة وغسان من حيث دخولهم جميعاً في نطاق الاسلام .

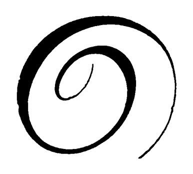
الطابع العربي في الشرق الادنى قبل الاسلام :انتشرعرب الحجاز واليمن، في هذا العهد ، انتشاراً كبيراً في شمال جزيرة العرب. وعندما افتتح الرومان سورية وجدوا العرب بين اهلها ، ولهم فيها دولتان زاهرتان: دولة الانباط بالبتراء ،ودولة آل السميذع بتدمر . وتقدم العرب حتى بلغوا ديار بكر وديار ربيعة . وكانت هذه تسمى باسماء اعجمية فغلبت عليها ،منذ ذلك العهد ، أسماء القبائل العربية التي انتشرت في رحابها . وقد رأينا كيف سما شأنهم في سورية والعراق حتى كان منهم الملوك وكان منهم الفاتحون . فكان من الطبيعي ان ترافق عهدهم السياسي المزدهر حياة تتناسب مع هذا المستوى في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ؛ وكان من الطبيعي ايضاً ان يرافق هذا الارتقاء السياسي الاجتماعي انتشار لغة العرب انتشاراً افضى ،فيما بعد، الى تغلب الطابع العربي تدريجياً على كل طابع آخر. ولعل ذلك هو الذى حدا بالكونت سفورزا (وزير خارجية ايطاليا الاسبق) الى القول في كتابه الذي نشر عام ١٩٣٩ : « واذا سألت الامبراطورية الرومانية الشرقية لعلمت انها كانت تسيطر على سورية باعتبار انها قطر عربي يتولاه امراء العرب الذين كانوا يؤلفون اكثرية السكان . »

على أن جرجي زيدان قد تطرق من قبل إلى هذا البحث وقال في كتابه العرب قبل الاسلام – : « ويؤخذ من الامعان في تاريخ المملكة الرومانية الشرقية ان مدن سورية كثيراً مادخلت في سلطة العرب،ولا سيما المدن القريبة من البادية، مثل حمص وحماة والشام والرها ، فضلاً عن مدن حوران والبلقاء وغيرهما . ولما قدم بومبيوس على مصر في القرن الاول ق.م كانت حمص في حوزة دولة عربية ، وغيرها من مدن الشام في حوزة دول اخرى »

وقد أيّد دوسو ذلك وأشار الى ان تلك الآثار ورسوم القرى الخربة التي تشاهد الآن في اطراف الشام، وتدل على انها ترجع الى العهد الروماني ، ان هي الا مساكن عربية كان اصحابها يزاولون الزراعة ويتعاطون التجارة بين البادية وبلاد الحضارة .

هذا ويستفاد من اعمال الرسل (الفصل ٢-٩) ان اللغة العربية كانت في عهد المسيح في جملة اللغات المتداولة بالقدس . وقد ارجع رينان انتشار اللغة العربية في سورية الى عهد الرومان ، وذلك في مقال نشره سنة ١٨٨٢م في الجزء ١٩٠ من الجريدة الآسيوية . قال : « يرجع اكتساح اللغة العربية لسورية الى حدث تاريخي عظيم ، واعني به نزول عدد كبير من امراء العرب مدن سورية في زمن واحد عندما كانت السلطة الرومانية تعمل على توطيد اركانها . »

على ان انتشار العروبة قبل الاسلام لم يقتصر على سورية فحسب ، بل امتد من البحر المتوسط الى آخر حدود دولة لخم في العراق ، وديار بكر وربيعة في الاناضول . وكان شأنها يعزز كلما تعزز شأن قومها ، وفي طليعتهم آل غسان بالشام ، وآل لخم بالعراق .



العرب في جنوب الجزيرة

دور اليمن في تاريخ العرب

يستفاد من السير التي خلفها العرب ان عمالقة العراق ومصر وسورية قد صدروا عن اليمن. قال ياقوت الحموي بمعجمه « وكانت منازل العماليق موضع صنعاء اليوم، ثم خرجوا فنزلوا حول مكة، ولحقت طائفة منهم بالشام وبمصر، وتفرقت طائفة منهم في جزيرة العرب الى العراق والبحرين وعُمان Oman . وقيل ان فراعنة مصر كانوا من العماليق » الى آخر قوله.

واشهر من عرفنا من عرب اليمن البائدة المعينيون Minaei والسبأيون Sabaei ؛ ومن عرب العاربة بعدهم الحميريون .Homeeritae . وهؤلاء جميعهم اصحاب دول ومدنيات لها شأنها في التاريخ. وقد قامت الى جانبهم، في ازمان متفاوتة، امارات، وربما دول أخرى، عرفت اسماء بعضها . واما اخبارها فقد بقيت مغمورة بالرمال. ذكر العرب منها طسم وجديس باليمامة الى البحرين، وعاد الاولى بين عُمان وعدن، وجرهم Jorhom في تهائم اليمن، ثم لحقوا بمكة .

وجاء في سياق تاريخ اليونان اسماء غيرهم مثل الجبأية Gebanitae والقتابية Catabaié حول الميلاد . واشار استرابون الى عرب اسماهم جرهيين gerrhae واطرى عمرانهم .

وقد اتيح لرجال العلم في فجر هذا العصر التنقيب في جنوب الجزيرة، ونسخ ما هو منقوش على احجارها من الكتابات ؛ فكبرت في اعين المؤرخين مدنية العرب القديمة. وهذا ما حمل الاستاذ سايس على القول : « مذ اضاء علينا ماضي بلاد العرب بغتة، وتحت ضوء الاكتشافات الاثرية، رأينا انهـا كانت بلاد علم وتجارة قبل الاسلام، وكان فيهـا دول قوية على مستوى عال من الحضارة، وباع طويل في التجارة . ولا بد ان يكون لهذه البلاد اثر هام في التاريخ العام . »

. . . . .

الدولة المعينية : تنسب هذه الدولة الى مدينة معين عاصمتها، وموقعها شرقي صنعاء، وهي اقـدم دولة يمنية توصل المحققون الى كشف أخبارهـا . ولكن،

رغم وفرة النقوش التي عثر عليها الاثريون في الجوف اليمني ، فلم يجتمع عندهم ما يساعد على تنسيق حوادثها . وانما استدلوا من هذه الآثار على بعد عهدها ، ووقفوا منها على اسماء اثنين وثلاثين ملكاً – وذلك على رواية صموئيل لاينج في كتابه اصل الامم – وقد بسط هؤلاء الملوك سلطانهم على جزيرة العرب ، وتعدوها الى شواطىء البحر المتوسط . واختلف المؤرخون في تقدير تاريخ الآثار التي عثروا عليها : فقال بعضهم انها تعود الى القرن الرابع عشر ق. م. وذهب آخرون الى انها من بقايا القرن السابع والثامن ق. م. وأدى اجتهاد بعض العلماء الى القول بان دولة معين انما قام بها النازحون من عماليق العراق الى اليمن بعد ذهاب دولتهم فيما بين النهرين . وقد اختاروا اليمن منزلا لانها تلائم طبيعة الحضارة التي الفوها ، او لانها وطنهم القديم ، فشادوا فيها وسادوا ، ومارسوا التجارة ، ووضعوا بعض المبادىء العلمية . وقد لوحظ في سيرة المعينيين انهم كانوا اميل الى الشؤون الاقتصادية والعمرانية منهم الى الفتح . وكانت الغاية من توسعهم الجغرافي احيانا تعزى الى رغبتهم في حماية سبل القوافل والتجارة .

الدولة السبأية : ورد في التوراة، وفي القرآن خبر زيارة ملكة سبأ لسليمان : فاذا كان المراد بها سبأ ، التي نحن الآن بصددها ، فان هذه الدولة تكون قد عاصرت ملك اسرائيل خلال القرن التاسع ق.م . على ان بداية دولة سبأ تعود ، في الواقع ، الى أبعد من هذا التاريخ : فقد عثر المنقبون على قرميدة تنسب الى الملك سرجون الثاني Sargon في العراق، جاء فيها ذكر يثعمر السبأي في عداد الملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية . وكانت نهاية حكمهم على رأي غلازر Glaser سنة ١١٥ ق . م . حيث يبتدىء تاريخ ملوك حمير .

ويرجح ان السبأيين من ولد قحطان ، حسبما اتفق عليه مؤرخو العرب، وكانوا اثناء حكم المعينيين امراء صرواح ، ثم دالت الايام فخلفوهم على الملك ، ونقلوا عاصمتهم الى مأرب .

وبلغ عدد الملوك الذين دونت اسماؤهم على آثار صرواح ومأرب وغيرهما بضعة وثلاثين ملكاً . ويعزو العرب خراب هذه الدولة الى سبب اقتصادي ، وهو سيل العرم ، وتهدم السدود في اليمن التي كانت مصدر الحياة الزراعية . وقد يكون هذا السبب من أهم الاسباب . ولكن اليمن ، في الواقع ، قطر تجاري ، مثلما هي بلد

زراعي ، ولذلك فنحن نرجح ان خراب دولة سبأ انما حدث على الاكثر بسبب مفاجآت اصابت موارد التجارة فيها ايضاً .

. . . . .

دولة حمير : كان الحميريون ، اثناء حكم سبأ ، امراء ريدان ، ولما صاروا ملوكا خرجوا على سنة الدول اليمنية ، التي كانت تقدمتهم ، ونصبوا انفسهم للفتح والتوسع ، فكان لهم نصيب مما جنحوا اليه ، إذ نافسوا الفرس والاحباش. وبالغ بعض مؤرخي العرب في وصف فتوحاتهم حتى اوصلوها الى اواسط آسية شرقاً ، ومنتهى المغرب الافريقي غرباً .

وينقسم ملوك حمير الى طبقتين : (١) ملوك سبأ وريدان . وقد استمر لهم الحكم الى سنة ٢٧٥ م . (٢) ملوك سبأ وريدان وحضرموت واستمرت دولتهم الى آخر عهد حمير بالملك اي سنة ٥٢٥ م. وكانت تقوم ، الى جانب هؤلاء، طبقات من الحكومات الاقطاعية تملأ اطراف اليمن ، وتعترف لهم بالسلطة العليا .

هذا وقد افضى التنازع بين المسيحية واليهودية إلى احتدام النضال بين حمير المتهوّدة والحبشة المتنصرة . ثم كانت العاقبة للاحباش حينما انتصر أرباط القائد الحبشي على ذي نواس (دميانوس) عاهل اليمن في اوائل القرن السادس. فدخلت اليمن من بعد في حوزة الاحباش، وبقيت كذلك مدة اثنتي وسبعين سنة .

وكان الاحباش لا يزالون قريبي العهد من اعتناق النصرانية . وعلى تعصب شديد لها ، فلما اتيح لهم بسط سلطانهم على اليمنيين المتهودين عاملوهم بالعنف والقسوة ، معاملة الخصم للخصم . فحمل هذا الاضطهاد أهل اليمن على الاستنصار بالفرس اعداء النصرانية ،واتيح لاحد امرائهم سيف بن ذي يزن اخراج الاحباش ، بمساعدةهؤلاء ، وتحرير بلاده. وان يتولى الحكم على اليمن تحت الحماية الفارسية. ثم كرّ الاحباش على اليمن من جديد عندما قتل سيف بن ذي يزن، وظلت تلك البلاد رازحة تحت سلطتهم العنيفة الى ان تغلب عليها الفرس ثانية. ولكن الامر لم يطل فاذا باليمن ترفع عنها نير الاجانب بالأسلام ، وتعود خالصة لاهلها .

. . . . .

عمران اليمن : كانت نهضة اليمن ذات طابع حضري اقتصادي اكثر منه سياسي حربي : فان توسط هذا القطر بين الهند والشرق الاقصى ، وبين الرومان والمصريين ، جعله أفضل وسيط في جهاز تبادل التجارة بين اجزاء العالم المتمدن .

وكان اليمنيون قوماً تجاراً،فأقبلوا على هذه المهنة،وفي طليعتم اهل السلطه: الأذواء والاقيال،فجنوا المكاسب الطائلة مدة الفي سنة تقريباً.وقد اتخذوا من هذه المكاسب رؤوس أموال يستخدمونها في المرافق الاقتصادية الاخرى . فمن التعـــدين الى الصناعة ، ومنهما الى اقامة السدود والاقنية استثماراً للزراعة . وان سدّ مأرب وان كان اشهرها ، إلا انه كان واحداً من مئات مثله . فقد روى الهمداني انه كان في يحصب ثمانين سداً . ويحصب مخلاف واحد من مخاليف اليمن ، فكم ترى هو عدد السدود في سائر الولايات ؟ وانشد احد الشعراء في هذا المعنى :

وفي الجنة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقـــذف الماء سائلا

وأما من جهة المعارف فيقول صموئيل لاينج : « والامر المهم من ناحية اكتشاف هذه الآثار العربية ليس كونها كشفت لنا عن وجود مملكة عربية عريقة في القدم والتمدن والتجارة فحسب ،بل كونها بينت لنا انهم كانوا اصحاب علم ، ولهم احرف هجائية خاصة ،لا يقل قدمها عن الخطين الهيروغليفي والاشوري . » وقد اضاف الى ذلك ان الخط الذي وضعه المعينيون أقدم من الخط الفينيقي الذي هو اصل للحروف الهجائية الرومانية واليونانية وغيرها . وأشار الى ان بعض علماء اللغات يرون ان الفينيقيين نقلوا احرفهم الهجائية من بلاد العرب . هذا ولعل العناية التي وجهها اهل اليمن الى الخط ترجع الى حاجتهم الماسة اليه مذ تقدمت عندهم التجارة، وبات الخط ضابطاً لها ولساناً .

هذا فضلًا عن ان اليمنيين كانوا أهل حضارة بالفطرة : كما ان الثروة ساعدتهم على الاخذ باسباب الحضارة كثيراً . ويروى ان هيرودوط المؤرخ اليوناني زار اليمن (٤٨٤ - ٤٠٧ ق.م) فأوحت اليه مناظرها انها أغنى قطر في العالم . وأثار جمال قصورها قريحته فوصفها بما يأخذ الألباب . وجرى مجراه اغاثربدس (١٤٥ ق.م) واسترابون (٢٤ ب.م) وبالغا في وصف تلك القصور، وما فيها من جواهر وذهب وفضة . وأما العرب،الذين اتيحت لهم فرصة مشاهدة هيا كل تلك القصور ،فقد بزّوا غيرهم في وصفها . وذكروا ان قصر غمدان كان مؤلفاً من عشرين طابقاً ، وان قصر مأرب معجزة المعجزات . ولعمري ان من حق ابن نيويورك ، وهو يعيش اليوم بين ناطحات السحاب ، ان لا يشاطر هؤلاء الاقدمين شعورهم بأهميـــة قصر يبلغ ارتفاعه عشرين طبقة فقط . ولكن مثل هذا القصر كان،في الواقع، قبل الفي سنة ، أشدّ روعة في نظر الناس من بناية امبير ستيت بنيويورك Empire State Building في العصر الحديث .

العرب في اواسط الجزيرة

يختلف عرب اواسط الجزيرة في تهامة والحجاز ونجـــد عمن ذكرنا في الشمال والجنوب بانهم ، فيما عدا سكان المدن كمكة ويثرب Medina والطائف والثغور ، كانوا بدوا خلصاً يسبحون في فلك خاص لا يتعدى نطاق اهل الوبر . ويرجـــع المؤرخون نسب هؤلاء العرب الى اسماعيـــل بن ابراهيم ، ويسمونهم بالعدنانيين ، ويعتبرهم النسابون من العرب المستعربة .

ومع ذلك فلم تخل اواسط الجزيرة، في زمن من الازمان ، من قبائل يمنية ،هي اما بقية غزاة اختارتها مقاماً ، او رواد معاش هاجروا اليهـــا فراراً من شدة ؛ قبائل ما فتئت تحتفظ بشيء من تراث اجدادها المدني ، واخصهم النازحون من اليمن بعد سيل العرم . ولا يزال تاريخ اواسط الجزيرة في عهدها القديم غامضاً على وجه عام . وتشير نتف الاخبار التي وصلت الينـــا الى شعوب لا نعرف عنها الا اسماءها ؛ على انها كانت جميعها أهل ثقافة وعمران . منها : عبيل بالجحفة : بين مكة والمدينة ، وثمود بوادي القرى ، بين الحجاز والشام .

وربما عاصر هؤلاء الحورابيين والفينيقيين ، وساهموا في نهضة العرب الاولى . ويعتبرهم النسابون من العرب البائدة .

القحطانيون خارج اليمن : كان بنو جرهم Jorhom ينزلون بتهائم اليمن ، ثم لحقوا بمكة ، واصبحوا سادتها عندما نزل فيها اسماعيل بن ابراهيم ،وتزوج منهم . اما بقية اخبارهم فلم يتفق الرواة عليها ؛ وانما اشار بعضهم الى قبائل أخرى من بني قحطان ساكنت العدنانيين . وأحصوا منها تسع عشرة قبيلة ، منها خزاعة التي خلفت جرهم على مكة ؛ ومنها الاوس والخزرج بيثرب ،الذين عرفوا في الاسلام بالانصار . واظهر هذه القبائل هي كندة التي لعبت دوراً سياسياً هاماً في جزيرة العرب . وكانت كندة في حضرموت . وكان لها الحكم على تلك الارجاء تتولاه باسم دولة حمير . وقد رووا في سبب نزوح كندة الى نجد ان سيدهـــا حجر بن عمرو رافق نسيبه حسان بن تبع ملك حمير في حملة على الجزيرة ، فلما عاد الملك موفقاً ولاه قبائل معدّ : اعظم بطن لعدنان ؛ وكانت تقيم في تهامة ونجـــد والحجاز ، فشرع حجر بن عمرو

ينافس ملوك غسان ولخم .

ثم جرى خلفاؤه ، من بعد ، على سنته استناداً الى حمير . ولما دخلت اليمن في حكم الحبشة تضاءل شأن كندة ، فحاول زعيمها الحارث بن عمرو ان يستعيض بنفوذ كسرى عما خسره بحمير . فلم ترق لملوك الحيرة ، اشياع فارس ، مزاحمة كندة لهم عند الاكاسرة ، فتفاقم الخلاف بين القبيلين . وكان الحظ يخدم الواحد منهما بعد الآخر ، حتى اذا مات قباذ وخلفه انو شروان على عرش فارس ، اعاد انو شروان المنذر ملك لخم الى ولاية الحيرة عازلاً عنها الحارث . فكان ذلك بدء افول نجم كندة . لان المنذر ما زال يتعقب الحارث حتى قتله . ثم ما زال بعد ذلك ينقص من شأن ابنائه ، ويفرق بينهم ، حتى تمكن من الفتك بثلاثة منهم . ولم تقم لهم ، من بعد ، قائمة في اواسط الجزيرة ، وانما بقيت لهم فروع ضيقة النفوذ في كل من دُومة الجندل ، بين الحجاز والشام والبحرين ، وبنجران اليمن وغُمر ذي كندة . وقد دخلت كلها ، من بعد ، في حوزة الاسلام .

. . . . .

العدنانيون : ان رواية العرب في شأن اتصال عدنان باسماعيل بن ابراهيم تكاد تكون هي رواية التوراة نفسها ؛ والاختلاف بينهما انما يقوم على تعيين المكان : فالعرب يروون ان اسماعيل وامه نزلا بمكة ؛ والتوراة تروي هذه الحادثة التاريخية على انها حدثت ببرية فاران . ويبدو لي انه من السهل ، مع ذلك ، التوفيق بين الروايتين باعتبار ان جبال مكة كانت تعرف بفاران – كما يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ج ٦ ص ٣٢٣ .

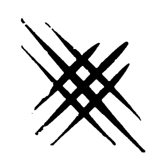
واقدم اخبار العدنانيين وصلت الينا عن طريق التوراة . فقد ورد ذكرهم في قصة يوسف خلال القرن الثامن عشر ق. م. ثم في مناسبات اخرى بازمان مختلفة . وخلاصة هذه الانباء ان العدنانيين كانوا اهل تجارة وحرب . خمل ذكرهم بعد ان اكتسحهم نبوخذنصر ، واستمروا على هذه الحالة الى عهد المسيح . ثم كان تاريخهم ، من بعد ، لا يتعدى انباء تكاثرهم وتدافعهم وانتشارهم في جوانب الجزيرة .

واما النازحون منهم الى الشمال فقد اتيح لهم ان يثبتوا وجودهم بما لم يتأت للمتخلفين في الحجاز . واشهر النازحين هم ضجاعمة الشام ، وتنوخيو العراق .

وقد بقي في تهامة من البطون الكبرى ربيعة ومضر . وكان لربيعة فضل تحرير العدنانيين من حكم الفرس . ولكن قبائل ربيعة لم تلبث ان تنازعت فيما بينها ،

وتسابقت،خلال تنازعها،للالتجاء الى ذوي السلطان من العرب،فاصبحوا بذلك رعايا لكندة وغسان ولخم. وظل العدنانيون على هذه الحال من التفكك،والخضوع ، في اكثر الازمان،لليمن نفسها ،أو للقبائل اليمنية الى ان نهض محمد، وهو واحد منهم ، فأتاح لهم الفرصة لان يصبحوا سادة العرب اجمعين .

هذا ،ومما يلفت النظر في تاريخ جزيرة العرب قبل الاسلام ان الجزيرة كان يضفو عليها الطابع اليمني ، سواء أكان ذلك في الثقافة أم في السياسة . ولم يقتصر هذا الطابع على قسمها الجنوبي فقط ، بل كثيراً ما كان يتعداه الى اواسط الجزيرة وشمالها . حتى كان العرب عامة ينظرون الى حمير نظرهم الى السادة . ثم بعث العدنانيون بعثاً جديداً بالاسلام فصار الامر امرهم ـ وتلك الايام نداولها بين الناس.



الفصل الثاني

العصر الجاهلي

دور الانتقال من التاريخ القديم الى تاريخ العرب في الاسلام

كان للعرب ، على وجه العموم ، مشاركة قوية في حضارات الشرقين الادنى والاوسط كافة: فقد قامت منهم في شمال الجزيرة وجنوبها ،دول يصح ان ينسب اليها فخر المساهمة في وضع ثقافة التاريخ القديم وتشريعه وعمرانه . واما اواسط الجزيرة فكأنها استمرت غريبة عن التطور العالمي . إلا ان احداثاً سياسية واقتصادية وقعت فيها ، قبل نحو قرن من ظهور الاسلام ، جعلت وميض النار ، التي كانت ترقد فيها تحت الرماد ، يشع فيضيء لمحمد مسالك الاتصال بقلوب العدنانيين ، فيثبون وثبتهم الجبارة .

التطور السياسي : كان للعرب في الجاهلية ممالك أهمها لخم في الحيرة ،وغسان في الشام ، وكندة في الحجاز ، وحمْيَر في اليمن . أما العدنانيون فكانوا لجهلهم وتنافرهم رعايا لهذه الدول . وينتسب كل منهم الى دولة . وكانت لقريش السيادة على مكة . غير ان هذه السيادة ، التي انتقلت اليهم عن طريق المصاهرة بين قصيّ ابن كلاب القرشي،وأمير خزاعة القحطاني ، وذلك في القرن الخامس الميلادي ، انما كانت،في الواقع، روحية اكثر منها سياسية :فقد اعتبرت قريش صاحبة السلطة في هذه المدينة المقدسة لأن بني هاشم القرشيين كانوا يتمتعون بسلطة روحية مستمدة من توليهم حجابة الكعبة .ومرجع ذلك الى ان الكعبة كانت تعتبر عند العرب بمثابة البانتيون عند الرومان Panthéon . فهي مقرّ لاصنامهم الكثيرة ، ورمز للالوهية عندهم . ويرجعون بناءها الى ابراهيم الخليل ، كما يعزون بدعة ادخال

الاصنام اليها لعمرو بن لحيّ أمير خزاعة .

وقد أتى المؤرخ الروماني سيسلاس على ذكر مكة سنة ٥٠ ق.م قائلاً عنها : « انها كانت على عهده أشرف المعابد وأقدمها . »

هذا وكان لتنازع البقاء بين المسيحية واليهودية في جزيرة العرب ، لا سيا في شطرها الجنوبي ، اثر عظيم في نقل زمام التجارة من قبضة اليمن الى الحجاز، وذلك بسبب النضال الذي نشب بين نصارى الحبشة ويهود حمير ، والذي افضى الى جعل امصار دولة بيزنطة الفسيحة شبه مغلقة في وجه تجار اليمن ابان احتلال الفرس لبلادهم. وكان من جراء ذلك ان نشط العدنانيون الحيادبون لاحتلال مركز اليمنيين التجاري، وفي طليعتهم اهل مكة والمدينة .

وكانت حمير تتمتع بين العرب بالمكانة التي صارت للخلفاء في العهد الاسلامي ؛ كما كان من تأثير قضاء الحبشة على كيانها السياسي ان انتقلت الزعامة الى قريش . ونجح هاشم ،الذي انتهت اليه وقتئذ حجابة البيت ولواء الحرب بمكة، في استثمار هذه الظروف الجديــــدة ، كما سنحت لابنـه عبد المطلب فرصة تركت له أعظم النفوذ بين العرب . ذلك ان ابرهة عامل الحبشة لم يقتصر في نشر النصرانية على بلاد اليمن فحسب،وهي مقر ولايته ، بل حمل ايضاً على الكعبة يريد هدمها فوق رؤوس آلهة العرب. واذ سلمت مكة من ابرهة ازدادت الكعبة مكانة في أعين اهلها،وازدادوا هم وثوقاً بقداستها ، لا سيا بعد ان ذاع على أثر ذلك ، ان طيراً ابابيل رمت جيش ابرهة بحجارة من سجيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

وكان ذلك كله مفضياً الى تعزيز الثقة بسدنتهــــا ؛ كيف لا وهم الذين ردّوا عنها الحبشة ، هذه الدولة التي لم تستطع دولة حمير العظيمة ، من قبل ، ان تقف في وجهها ؟

هذا الى ان حملات الاحباش على العرب كانت ذات جدوى عظيمة بالنسبة الى العرب : إذ انها وضعت لهم نواة الوحدة السياسية : فقد عمل خطر الاحباش المداهم على التأليف بين القبائل اليمنية والعدنانية،وتوثيق روابط القومية بين حمير وقريش. ولقد قال سديو Sedeillot في ذلك : « لقد سعى عبد المطلب ، سيد مكة ، بعـد جلاء ابرهة عن اليمن الى تمكين العلاقات بين مكة والقبائل العربية . وسار بنفسه الى صنعاء ليهنىء ،باسم قريش، الامير سيف بن ذي يزن على ما أتيح له من نصر على الحبشة وتحرير اليمن » .

وربما كانت دولة الاكاسرة ،عدوة الامبراطورية البيزنطية، تمثل في تلك الحقبة الدور الذي تقوم به بريطانيا العظمى اليوم في تأييد جامعة الدول العربية . وقد جنى العرب من تأييد الفرس وقتئذ مايجنونه من تأييد البريطانيين لهم في بعض الايام .

. . . . .

التطور الاجتماعي: أصاب العدنانيون ومواطنوهم حظاً كبيراً من التطور الاجتماعي عهد الجاهلية ، فكانت لهم بذلك فرصة للاختلاط اكثر وأشد من قبل بالامم الراقية . أما العامل الاعظم في هذا التطور فقد نتج عن تسرب المدنية اليونانية الرومانية الى أوساط العدنانيين بواسطة المهاجرين الذين نزلوا في رحابهم : فاليهود كانوا يؤمون الجزيرة ، أثر كل محنة تنزل بهم قبل خراب هيكل سليمان وبعده . ولذلك نراهم قد انتشروا في ذلك الوقت ، هرباً من اضطهاد البابليين والرومان، في المدينة والحجاز ، فأصبحوا في أرض اسماعيل كأنهم في موطن اخيه اسحاق . كما تقدم بعضهم الى اليمن . اضف الى ذلك ان القسس والرهبان ،الذين دفع بهم البيزنطيون والاحباش الى جوف الجزيرة ، قد نزلوا أمهات المدن مبشرين، وكانوا يردون الاسواق في المواسم يدعون الى دينهم في حماية حرية الرأي التي كانت ولا تزال من مميزات العرب في جميع البلدان والازمان .

وقد تهودت حمير وبنو كنانة وبنو الحارث واكثر كندة ، وتنصر الغسانيون واللخميون وعدة قبائل من ربيعة وقضاعة . وانتشرت البرهمية ، أثناء ذلك في عمان والبحرين ، والمجوسية في تميم . اما قريش ومن حولهم من سواد العدنانيين فقد احتفظوا بوثنيتهم ، فكان لهم في الكعبة ثلاثمائة صنم ونيف ، فضلا عن آلهة أخرى في غيرها ، وعدا ماكان لكل قبيلة معروفة من صنم خاص بها .

ولقد أتيح لاهل الكتاب من عرب الجزيرة ، الذين تنصروا او تهودوا ، ان يتقدموا على سواهم في التعرف الى ثقافة ذلك العصر بسبب توفر الاختلاط بينهم وبين اهليها اخوانهم في الدين . وقد تكرر وقوع ذلك بعد نيف والف وثلاثمائة عام إبان البعث العربي الحديث ، اذ سبق النصارى غيرهم في الشرق الى اقتباس مدنية الغرب . على ان وثني العرب، ومعظمهم من عدنان ، وان استمروا ، ابان فترة الجاهلية ، على البداوة وخشونتها ، الا ان نفراً غير قليل منهم ، لا سيما في المدن ، قد تأثروا تأثراً كبيراً بالاسفار والاختلاط ، فبدأوا يفكرون في وجوب الاصلاح . ومن هؤلاء فريق مرق من دين الاوثان ، وراودته نفسه باحتمال الاخطار

في سبيل مكافحتها والدعوة الى عبـــادة الله . ومنهم من تسرب الى نفسه الشك فاكتفى باضماره . وصادف اثناء ذلك ان ابا طالب ، عم النبي محمد وزعيم بني هاشم ، لم يكن يتمتع بمثل كفاءة والده عبد المطلب ، فترك المجال بذلك الى بني أميـــة كي يعملوا على منافسة ابناء عمومتهم بني هاشم .

وكان في انشغال بني هاشم سدنة الكعبة وحماة الوثنية ، بمخاصمة بني أمية فرصة طيبة لاعداء الوثنية ، فاجترؤوا على تسفيهها ، وفي طليعتهم أهل الكتاب . ولقد افضت هذه الحملات على الوثنية الى القاء الشكوك في افئدة اهلها والقلق في نفوسهم.

ولكن الذين ارتابوا في صحة الوثنية من العرب ما لبثوا ان اصطدموا بشيء من التردد اذ اخذوا يتساءلون : اين هو الدين الصحيح ؟ وهم يسمعون اليهود يسفّهون النصارى ، كما يسمعون النصارى يسفهون اليهود ! . ولا شك في ان مثل هذا الجدل يترك في المعركة نقداً غير بريء الى سمعة الفريقين المتناظرين . ثم ازدادت هذه الحيرة والبلبلة عندما انبىء هؤلاء المترددون من العرب بانقسام كل من النصرانية واليهودية الى مذاهب . واتصل بهم ما يتقوّله كل مذهب عن بقية المذاهب .وهكذا اصبحوا في شكوكهم يترقبون مخرجاً لانفسهم ، وينتظرون الحل المقبول . فلما اعلن محمد دعوته كانت « كأنما وقعت ، على حد قول كارليل Carlil شرارة من السماء على تلك الرمال التي كانت لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير ، فاذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل ميت ، واذا هي قـــد تأججت واشتعلت ، واتصلت نارها ما بين غرناطة ودلهي . »

. . . . .

التطور الادبي : لا ريب في ان عرب الجاهلية كانوا على مستوى وضيع في الحياة الاجتماعية ، اذ كانوا بدوا اميين يقوم معاشهم على الماشية والغزو ، ويرتعون في بحبوحة من اتساع الخيال فتوحي اليهم الشعر منظوماً ومنثوراً . وقد افسحت طلاقة البادية لافئدتهم حب الحرية والاستقلال ، وزودتهم بالاعـــتماد على النفس ، والذود عن اوطان لا معاقل فيها . كما حببت اليهم الوفاء بالعهود ، حيث لا قيود غير الوعود. وجعلت الكرم في رأس مفاخرهم ، إذ ليس في بـــلاد العسر أفضل من البذل . غير انا اذا نظرنا الى خصب قرائحهم ، وراقبنا رحابـــة لغتهم ومتانتها ، تساءلنا عما اذا كان اولئك العرب بدواً حقاً ام هم امة عريقـــة في التمدن ، إذ لا يتأتى للغة ان تبلغ ما بلغته لغة العرب في فجر الاسلام ، سواء في اساليبها أو في

تراكيبها ، أو معانيها ، الا اذا كان اصحابها ينعمون بحضارة راسخة .

فكيف اذاً نعلل هذا التناقض بينما نعرفه من بداوة العرب تلك البداوة القاحلة وبين ما وصل الينا من آثارهم الادبية في عهد الجاهلية ؟

نعلل ذلك بان لغة العرب ليست وليدة بيئة البداوة ، وانما هي تراث مدنيات عربيات سابقة ، ما زالت حضارات اليمن ودمشق والحيرة تغذيها ، حتى ظهرت على ألسنة البدو ارقّ من نسيم السحر . أضف الى ذلك ما كان للبلاغة في نفوس العرب من منزلة سامية ساهمت في تهذيب هذه اللغة . وكذلك ما كان لاسواق العرب ، لاسيما عكاظ والمجنة وذي المجاز ، من مفعول في هذا السبيل ، وخاصة في توجيهها وتوحيدها : فقد اختار شعراء العرب وخطباؤهم ، الذين كانوا يتبارون في تلك الاسواق خير الالفاظ واحسن التعابير . فتوحدت اللغة ، بعد اختلافها ، وتقاربت ، ثم جاء القرآن ناطقاً بها ، فاذا به يصونها من التجزئة والاندثار . وهو القائل : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .



الفصل الثالث

عصر الحجاز

أتى حين من الدهر على عرب اواسط الجزيرة كانوا يشاهدون فيه نهضات مباركات تتعاقب، ويساهم ابناء عمومتهم ، في الجنوب والشمال ببعض منها . أما هم فكانوا قابعين في خشونة البداوة ، حتى اذا ظهر الاسلام في الحجاز اتيحت لهم الفرصة للتعويض عما فات ، والمساهمة بأوفى نصيب في سبيل رفعة العرب وعزهم : ففي الحجاز نشأ سيدنا محمد ، وفيه قام الخلفاء الراشدون: اولئك الذين اثبتوا وجود العرب في القرون الوسطى ، بل جعلوهم في مصاف السادة بين الامم الاخرى .

محمد الرسول

سيرته قبل البعثة : قال احمد زيني دحلان : « كانت قريش قوماً تجاراً ، ومن لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء .وكان بنو عبد مناف (أسرة محمد) من اعيان تجار مكة ، ولكثرة اسفارهم لا يعرف بنو أب تباينوا في محال موتهم مثلهم: فقد مات هاشم بغزة ، وعبدشمس بمكة ، ونوفل بالعراق ، والمطلب باليمن . وكان عبد المطلب يرسل ابنه عبدالله الى الانحاء كافة فيمتار له ، وقد مات بيثرب » .

وكانت وفاة عبدالله المشار اليه سنة ٥٧٠ م عن ولد اسماه محمداً ، وله من العمر شهران ؛ ثم توفيت زوجته آمنة قبل ان يتجاوز ولدها السنة السادسة ، فكفله جده عبد المطلب ، زعيم بني هاشم وحاجب الكعبة . ولم يطل الاجل بعبد المطلب الا عامين فخلفه ابنه ابو طالب على كفالة محمد ، فكانت هذه المناسبات المريرة تجعل محمداً يشعر ، منذ ان شرعت ذاكرته تدون المشاهدات ، شعور يتيم تداولت عليه ايدي الاوصياء .

وشاء عمه ابو طالب ان يدفعه نحو ممارسة التجارة ، مهنة الاسرة ، مذ بلغ من

العمر ثلاث عشرة سنة : فخرج به الى الشام حتى بلغ بصرى . وقد نفى كارليل ما تقوّله بعضهم عن تلقين الراهب بحيرى (سرجياس) له مبادىء المعارف ، وقال بهذا الصدد : « ولا بد من ان يكون قد انطبعت على لوح فؤاده امور وشؤون قامت في ثنايا ضميره ،ولو غير مفهومة ، ريثما ينضجها له كرّ الغداة، ومرّ العشى » .

وكان عمه المشار اليه عائلا . ولعله اراد انلا يستعين بمحمد في صعيد اوسع من رعي غنم الاهل . فكان له ما اراد . وهكذا عكف محمد على التجارة اسوة باسرته ، وعرف بالأمين لحسن معاملاته .

وكانت بمكة سيدة من علية قريش تزاول التجارة فوثقت بمحمد ، ووكلت اليه بتجارتها التي سافر بها الى اليمن والشام . ثم انها ازدادت اعجاباً به ووثوقاً فتزوجته ، وله من العمر خمس وعشرون سنة .

وقضى محمد، من بعد ،حياة عائلية هادئة مدة خمس عشرة سنة ،وهو الى استمراره في مزاولة التجارة ، يتأمل في خلق السموات والارض .

. . . . .

حياته التبليغية : كان بعض مفكري مكة يلجأون في شهر رمضان الى جبل حراء ،على بعد ثلاثة اميال من مكة ، فيقضون الشهر في نسك وتعبد. فلما ناهز محمد من الاربعين حببت هذه الخلوة الى نفسه فلجأ الى الغار يتحنّف فيه على منوالهم . واذا به ،في يوم من الايام ، يأتي مرتعداً الى خديجة ويقول لها: « زمّلوني زملوني » ، وشرع يحدث زوجته بالرؤيا التي رآها في الغار ، وبالملك الذي تمثل في الجبل ، فتثبته خديجة وتبشره . وكانت هذه الرؤيا بدء رسالته . اما الدعوة اليها فقد تدرجت من الاهل الى العموم ، ومن السر الى الجهر : فظلت في اهله وجماعته سراً ثلاث سنين ، ثم جهر بها بمكة في السنة الرابعة ، وحملها الى القبائل،ودعا اليها في المواسم.

وقد وجد محمد في خديجة أعظم منشط ، وكان إسلامها وإسلام ابن عمه علي بن أبي طالب، وصديقه أبي بكر، بمثابة باكورة النجاح . وأما سائر قومه فقد قابلوا دعوته ، بادىء ذي بدء ، بالاستهتار ، غير أنهم لم ينكروها عليه ، ولم يقفوا منه موقف العداء إلا حينما تعرّض لآلهتهم بالتسفيه . ومع ذلك فقد تقدموا إلى عمه يشكونه ، فحاول أبو طالب أن يسديه النصيحة ويؤمله ؛ فأجابه محمد جواب من يسترخص كل غال في سبيل إيمانه قائلًا : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أنزل عن هذا الأمر ، حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه،ما تركته . »

أنها لأزمة مستعصية وقعَ فيها أهل مكة ازاء إصرار محمد : عار عليهم أن يقابلوا تعرضه لآلهتهم بالسكوت ، وآلهة الناس أشدّ الأشياء قدسية في نفوسهم ، وهون عليهم ان يشهروا الخصومة على أشرافهم بني هاشم ، وهم بمقتضى تقاليد العرب متضامنون معهم ، المسلم منهم والوثني ، على السواء ، في وجوب حماية وليدهم محمد .

ان قوم محمد، وإن لم يتمالكوا نفوسهم من التعرض لاذيته، إلا أنهم وجهوا أولاً انتقامهم الحقيقي نحو المؤمنين به ، فشددوا في تعذيبهم . وخاصة من لم يكن لهم عصبية تحميهم . واضطروهم للالتجاء إلى الحبشة مرتين فراراً من الاضطهاد . وقد تمتعوا هناك بحماية النجاشي ، وعاشوا في رحابه مكرمين معززين . أما محمد فقد استمر عشر سنين مثابراً على الدعوة إلى الاسلام، وكان يزداد نشاطاً عاماً بعد عام، ويأتي أسواق العرب ، ويطوف على القبائل يتلو ما انزل عليه من القرآن . وهو إذا ما طولب بالمعجزات تنصل مما يخالف سنّة الطبيعة، وتلا عليهم : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ » .

على أن قريشاً ضاقت به ذرعاً خلال هذه السنين العشر ، وثارت نفوسها حتى لم يبقَ بوسعها أن تلزم التقيد بالتقاليد القومية، فأخذوا يشددون في أذيته، ويتآمرون على قتله . وتعاقدوا على مقاطعة أهله وحماته . ولكنهم اختلفوا فيما بينهم ، فنقضوا ما تعاهدوا عليه .

ولما مات عمه أبو طالب أصبح محمد هدفاً لأذى قريش ، فخرج على عادته يعرض دينه أيام موسم الحج ، وكان من أشد ما يكون من الحزن ، ليس لموت عمه الذي كان يحميه فحسب ، بل لمصاب آخر فاجأه في السنة نفسها ، وهو وفاة زوجته خديجة التي كانت تسليه وتؤاسيه .

بيد ان الفرج أتاه من حيث لا يحتسب : ذلك ان ستة من الخزرج ، سكان يثرب ، آمنوا به في هذا الموسم ، وفشوا خبره بين اهلهم ، وكانت نفوس أهل المدينة جاهزة لقبول عقيدة التوحيد لكثرة ما فيها من اليهود ، فحنت نفوسهم إلى دعوته ، وأوفدوا اليه يستدعونه للنزول بينهم .

وقامت قيامة قريش لمّا فشى نبأ اعتزام محمد الهجرة إلى يثرب، منطقة نفوذ اليمانيين ، وحسبوا لوجوده فيها الف حساب، فبيّتوا قتله . ولكنه نجا، وادرك المدينة سالماً ، واستقبل فيها خير استقبال .

ثم تفانى أهلها في مظاهرته حتى عرفوا بالانصار. وقد دخل محمد، بدخوله المدينة، في عهد جديد. فاذا هو يتمتع فيها بحياة مطمئنة منيعة، وعطف لم يعهده من قبل. وبذلك أتيح له ان يرتاح، وان ينصرف لوضع الاسس الاجتماعية لتأييد الدين: فوادّ اليهود، وآخى بين المسلمين، لا سيما بين الاوس والخزرج، وهم قوام المدينة، وكانوا من قبل أعداء ألداء. ولما تم له ما أراد تحول الى نشر الاسلام بقوة مستعيضاً عن العصبية القومية برابطة جديدة، الا وهي رابطة الايمان.

.....

حياته الحربية: عرفنا محمداً قبل الهجرة ذلك الناسك الذي يدعو الناس الى الاسلام بالموعظة الحسنة، ويقابل الأذى بالصبر. فاذا برجل الدين في مكة ينقلب الى رجل الدين والدنيا جميعاً. لقد غادر محمد مكة وحولها اربعمائة إله يحج العرب اليها، ويخرون سجداً أمامها. وهناك على مقربة من الاصنام المعبودة كانوا يعقدون الاسواق، ويتنافسون في كل مظهر من مظاهر الحياة. فتعتز الوثنية المشركة، ويعتز بالتالي ابناؤها. فكيف تغمض عينا محمد، وكيف ترتاح نفسه لهذا الشرك المتعاظم؟

وماذا تراه يفعل بعد ان تلا عليهم نيفاً وسبعين آية من القرآن كلها تجنح الى الاقناع بالحجة والمسالمة؟ انهم لم يؤمنوا ولا يريدون ان يؤمنوا، لا لأنهم يفضلون الوثنية على الوحدانية، بل لمنافع مادية كانت تغشى أفئدتهم وابصارهم: فقد كانوا يعتبرون الكعبة وأوثانها مصيدة لمعاشهم، وسلّماً الى جاههم. وليس من الهين ان يرضوا بالتخلي عن مورد رزقهم، ومصدر عزهم. اما وانهم يناهضون الاسلام للمادة، فليس من حيلة إذن للتأثير عليهم الا بالضرب على الوتر الحساس الذي هو مصدر شعورهم. ومن هنا أخذ محمد يعرقل سبل قوافلهم التجارية في غدوها ورواحها الى الشام، منذ الشهر السابع للهجرة. فقد بعث السرايا أولا ثم نهض بنفسه على رأس الشهر الثامن عشر للهجرة الى تولي الحملات على قريش، فبلغت سراياه سبعاً واربعين، وغزواته تسعاً وعشرين.

على ان يهود يثرب وما حولها قد حسبوا الف حساب لما أصاب محمد من تفوق، فاذا بهم ينقلبون عليه بعد التوادد، ويشرعون بتأليب العرب على قتاله. فاختار الرسول مهادنة أهل مكة للانصراف الى اليهود، فأجلاهم عن المدينة. ثم لما استتب له الامر في جزيرة العرب عمد الى تبليغ رسالته للدول المجاورة، بما فيهم قيصر

و كسرى ، ودعاهم للاسلام . ثم تحول الى مكة فدخلها فاتحاً (٦٣٠ م) لثماني سنين من خروجه منها هاربا . وبعد ان هدم أوثانها وأسقط اصنامها القائمة في الهياكل ، وجعل الكعبة بيتاً لله، قفل راجعاً الى المدينة،فدخلها وهوسيد الجزيرة بلا منازع . وأصبح من بعد اذا ما سيرحملة فانما يسيرها لتأديب رعية شذت، لا لاخضاع مناوئين .

وقد عرضت على أثر ذلك أسباب سياسية واقتصادية حولت وجهة محمد شطر الشام : فقد تغيّر عليه البيزنطيون بعد أن دانت له الجزيرة ،وخافوا خطره ،كيف لا وهو الذي لم يتورع ان يبعث اليهم من يدعوهم للاسلام . وربما كان لليهود الذين اجلاهم عن الحجاز ضلع في تجسيم هذا الخطر ،وتعكير صفو العلاقات السياسية التي كانت بينه وبين الروم .

هذا بالاضافة الى ان حرص محمد الشديد على نشر الدين حمله على التفكير بفتح الشام. ولعله أراد بذلك ايضاً توجيه آمال قريش نحوناحية اخرى يحسبون انهم معوضون فيها الخسائر التي أصابتهم بسقوط الاوثان . والاوثان هي، كما قدمنا، مصائدلرزقهم وجاههم.فتخف نقمتهم عليه الى ان يقوى ايمانهم ويشتد .

وبعد ان وجه سراياه الى مشارف الشام ،واحدة بعد أخرى للقيام بمناوأة المملكة البيزنطية حمل بنفسه فبلغ تبوك . ولكنه عندما بلغه ان الروم قد تراجعوا أمام العرب اكتفى بفرض الجزية عليهم وعلى ايلة (العقبة)وغيرها ، وببسط نفوذه على رؤساء القبائل التي تعتبر متاخمة لمصر وسورية . ثم جهز ثانية ، في اوائل السنة الحادية عشرة للهجرة ، جيشاً ضمنه كبار الصحابة لمتابعة التقدم الى الشام . ولكن الاجل وافاه قبل رحيله (٦٣١ م) فترك هذه المهمة يقوم بها ، من بعد ، خلفاؤه البررة .

. . . . .

حياته السياسية : كانت تسيطر على العالم ،من اواسط آسية حتى المحيط الاطلنتيكي دولتان عظيمتان: الفرس والبيزنطيون . وقد اتصلت الحروب بينهما لا بقصد نشر الدين فحسب ، بل رغبة في تحقيق مطامع قديمة بين الشرق والغرب مدارها التنازع على سيادة العالم . واتفق ان آل حكم هاتين الدولتين الى اسرتين عظيمتين في زمن واحد : آل ساسان ، وآل يوستنيانوس . كما اتفق ايضاً ان صعد عرش هاتين الاسرتين عاهلان من أعظم عواهلها، وهما كسرى انو شروان والامبراطور يوستنيانوس. ثم خلف هرقل يوستنيانوس .وهوايضاً من مشاهير القياصرة

ولقد ولد محمد في السنة المعروفة عند العرب بعام الفيل : اي العام الذي حمل فيه ابرهة بفيله على الكعبة ، وذلك في اواخر حكم كسرى انو شروان ، وبعد اربعة اعوام من موت الامبراطور يوستنيانوس . فنشأ محمد خلال احتدام النضال بين الشرق والغرب ، وابان كفاح شديد بين النصرانية ، وبين كل من اليهودية والوثنية ، وخلال تنازع الأديان في جزيرة العرب .

وكانت جزيرة العرب قاطبة ، ما عدا بني غسان في مشارف الشام ، وبعض المتنصرة ، حزباً لكسرى على قيصر . وذلك لأسباب جمة ، أهمها الرابطة الشرقية المشتركة ، وتأثير دعايات اليهود فيها ضد اعدائهم الروم ، واعتراف العرب بما لفارس من اياد بيض في تحرير حمير من نير الحبشة . هذا فضلاً عما أصبح لدولة فارس من النفوذ العظيم في الجزيرة بعد استحواذها على اليمن . واذا بمحمد ، الذي وقف موقف خصومة من آلهة العرب ، لا يقتصر على ذلك ، بل يخالف الجزيرة كلها بميوله السياسية ايضاً ، فهو يؤيد قيصر والنصارى على كسرى والمجوسية ، لانه جاء مصدقاً لما اتى به قبله موسى وعيسى والنبيين .

وقد تجلت حزبية المسلمين للروم بمناسبة الحروب التي قامت بينهم وبين فارس: فكان اتباع محمد يشاطرون النصارى عواطفهم ، بينما كان المشركون من العرب يتحيزون للفرس ، فتقع بين الفريقين المناظرات والمراهنات . ومن جهة اخرى فان عواطف كل من القياصرة والاكاسرة نحو محمد ظهرت متناقضة في مناسبات طارئة . وأخصها حينما ارسل كتابيه الى كسرى وقيصر يدعوهما الى الاسلام ، فأحسن هرقل استقبال رسول محمد ، بينما مزق كسرى خسرو الكتاب ، وهدد وتوعد ، وارسل الى عامله في اليمن ان يأتيه بمحمد .

وكيف لا ترحب المسيحية بالاسلام ، وفي طليعتها بيزنطة ، وقد شهد العالم المسيحي محمداً يصمد للوثنية حتى يصرعها ، ويقاوم المجوسية ومن ورائها آل ساسان فيقضي على مطامعها . ويحول الجزيرة سياسياً عن الاكاسرة الى القياصرة ؟

ولكن محمداً ، الذي تشيع للنصرانية ، ورحب به القيصر ، وهلل له النجاشي في الايام الاولى لرسالته ، لم يلبث ان صار خصماً في نظر النصارى ايضاً ، وذلك في المرحلة الاخيرة من حياته منذ استفحل خطره السياسي ، ووجه الدعوة لاهل الكتاب بحزم لم يألفوه من قبل ، ثم عزز الدعوة بالحملة عليهم .

العوامل التي ساعدت النبي على نجاح دعوته : قال ف . كارليل : « ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالحطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا . »

أجل ، ولكن سنّة الكون تشمل العظماء وغير العظماء ، ولكل حدث مقدمات متصل بعضها برقاب بعض ، ونحن إنما بحثنا عصر الجاهلية ، في فصل سابق لتبيان الاسباب التي سبقت محمداً ، واعدت العرب لان يصبحوا كما وصفهم كارليل ، كالحطب ،ما ان سقط الشهاب حتى تأججوا .

وها نحن فيما يلي نحاول أن نلمّ بالاسباب الاخرى التي رافقته ، وكانت من أهم العوامل في نجاح دعوته للاسلام .

. . . . .

الدين : نفوس روضها الزمان بالاختلاط والتبشير ، واقلقها تنافس الاديان والمذاهب ، فأصبحت توّاقة للاستقرار بعد ان ساورتها الريبة في الاوثان، وخامرتها السآمة من جدل المذاهب . فلما أتاهم محمد ، وهو رجل من أشرافهم ،عُرف بالصدق والأمانة ، يدعوهم بلسانهم إلى دين يتناسق مع ما ألفوا سماعه من أهل الكتاب ، ويتفق معهم في الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وهو إلى ذلك يلتزم القول بالوحدانية ، على ما فيها من البساطة ، كان من الطبيعي أن يقبلوا عليه ويؤمنوا برسالته .

وكانت البلاغة من أشدّ الأمور تأثيراً على اولئك العرب حتى رفعوا نماذج منها ، عُرفت بالمعلقات ، على جدران الكعبة إلى جانب الآلهة . وهذا القرآن الذي أتاهم به محمد ، وتحدّاهم به هو المعجزة التي أدلى بها . أما إعجازه فمن حيث الفصاحة التي يقدسونها. فمن البداهة إذن أن يقبلوا على الاعجاب به، ويسوقهم هذا إلى الايمان به.

ورأى اليهود والنصارى أول الأمر في قرآن محمد ما يؤيد دينهم : فقد سمعوا محمداً يتلو عليهم: « قولوا آمنّا بالله،وما انزل الينا ، وما انزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى ».

«ان الذين آمنوا،والذين هادوا والنصارى والصابئين،من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . »

ورأوا محمداً يناضل الوثنية والمجوسية ، وهو في نفس الوقت يلزم، اثناء الجدل مع وفودهم،مواقف الحسنى ،فاطمأنوا اليه وناصروه، واكرم النجاشي وفادة قومه.

وهكذا كان الدين الذي دعا اليه محمد ينطوي على عناصر من شأنها كسب

عواطف الناس سواء منهم من آمن ، ومن لم يؤمن .

. . . . .

شخصية النبي ومظهره : وكان الحظ الاكبر في نجاح الدعوة للصفات الطيبة التي اضفاها الخالق على محمد. فمحمد لم يكن رجل دين ونسك فحسب ، بل كان امرءاً يشعر بانه وجد في حياة دنيوية لها عليه واجبات ، وله عليها حقوق ؛ فلم ينس نصيبه من الدنيا ، كما لم ينس نصيب الآخرة . ولكنه لزم حد الكمال ، فوفق الى صيت حسن . وكان الى ذلك شجاعاً قوي الارادة قوة لا تعرف التردد . وفي سيرته أمثلة كثيرة على الحزم والجرأة ، والصدق والوفاء والحلم والانصاف ، فضلاً عن الدهاء والسياسة الحسنة .

ولا ريب في ان الحظ قد خدم محمداً ايضاً ، وكان ذلك من عوامل التوفيق لنجاح الدعوة. وفي سيرته أمثلة كثيرة ايضاً على خدمة الحظ له لا تسمح خطة الايجاز، التي التزمناها ، بذكرها . واننا لنكتفي هنا بالاشارة اليها . وفي الجملة فقد بلغ محمد بنفوذه الشخصي مبلغ المنوّم المغنطيسي حتى اصبحت ارادته هي ارادة المؤمنين به ، وشعوره شعورهم. وهذا احدهم يتقدم اليه طالباً السماح له بمباشرة قتل أبيه المشرك ، كما قاطع آخرون ذويهم لانهم تخلفوا عن تلبية دعوته حينما حمل على الشام بغزوة تبوك .

التقاليد والعنصر : أشرنا الى التقاليد المرعية التي جعلت محمداً ، اثناء تبليغه الرسالة ، مصوناً ومحمياً من بني قومه ، مسلمهم ووثنيهم ، رغم تعرضه لآلهتهم . وكان لمحمد بهذه التقاليد ايضاً قوة حينما وقف موقف النضال في مرحلته الثانية ، يكافح المشركين بعنف وشدّة . وربما لم يلجأ محمد الى تعدد الزوجات إلا مدفوعاً بتقاليد العرب التي تجعل للمصاهرة حقوقاً متينة . وكانت زوجاته من قبائل مختلفة ، ومن رؤوسها ، فاعتزّ جانبه بها ، وتأيدت عصبيته . وينبغي ان لا ننسى ما كان للعنصر العربي من الاثر البالغ في نشر الدين. فقد كان العرب ، في الحقيقة ، جنداً لمحمد تميزوا بالشجاعة والثبات والصبر . ولكنهم منوا قبل الاسلام بالتنازع فاستهلكوا بأسهم بينهم . فلما أتيح لمحمد ان يؤلف بينهم ويربط بين افئدتهم بمثل أعلى ، واتجهت انظارهم جميعاً الى ذلك الهدف يأتمون به ، عقدوا العزائم على بلوغ هذا المثل الاعلى ، وأصبحوا خير جند لافضل قائد .

الخلفاء الراشدون

خلف النبي في الحجاز على امارة المسلمين اربعة رجال افذاذ ، وهم ابو بكر وعمر ابن الخطـــاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب .لقب الاول خليفة ، ولقب الثاني امير المؤمنين ، وعرفوا جميعاً بالخلفاء الراشدين . وقـــد استمر عهدهم من سنة ١١ هـ . أو ٦٣٢ م . الى ٤٠ هـ . أو ٦٦٠ م . وكانت المدينة عاصمة الدولة في ايام الثلاثة الاوائل ، غير ان الخليفة الرابع اتخذ الكوفة في العراق قاعدة لحكمه مسايرة لبعض الاحداث السياسية .

. . . . .

محمد والخلفاء : ادى محمد رسالته فلم يقصرها على استئصال الوثنية من جزيرة العرب ، وهدي أهلها الى عبادة واحد أحد . بل كان مدارها تكوين امة لها شريعة تناولت ، فضلاً عن العقائد ، المعاملات والاحكام ، وتطرقت الى السياسة.

وقد توخى محمد ان يكون عالمياً في تبليغ الرسالة ، واسلامياً في الجامعـــة والعصبية ، وإذ صدرت رسالتــه عن جزيرة العرب ،وتولى تحقيقها العنصر العربي ، اراد ،في نفس الوقت ،تعزيز الامة العربية التي كانت اشتاتاً ،فرفعت راية الاسلام عالياً في ايامه وايام خلفائه من بعده .

وقد توفى محمد والايمـان برسالته لم يتعد شبه جزيرة العرب ، وقوة الاسلام لم تزل محصورة ضمن اطار البحار التي تحيط بالجزيرة ، ورابضة عند بادية الشام ، تتأهب للتقدم . على ان خلفاءه ، وان تمكنوا من التغلب عـلى القياصرة والاكاسرة ،الا ان الفضل الاعظم في ذلك انما يعود ، في الواقع ، الى محمد نفسه . اليس هو الذي الف بين هذه الامة التي ادركت الانتصار ؟ اليس هو صاحب الشريعة التي تقيدوا بها ففتحت لهم ، بحسن معاملتهم ، القلوب قبل المعاقل ؟

بلى : ولقد توفى محمد ، ولكن قومه ظلوا الى حين يسيرون على هديه ، ويتقيدون بمناهجه ، كما لو كان يشرف بنفسه على تنفيذ اوامره ونواهيه . فكانت العاقبة للمتقين .

. . . . .

سيرة الخلفاء الادارية : قام الاسلام على المبدأ الجمهوري ، وعلى أساس الشورى .

وبالرغم من ان سيرة النبي تشير في مواضع عدة الى انه احس بدنو اجله ، فانه توفي دون ان يعهد لأحد بالخلافة من بعده . ولكنه امر ، في أثناء مرضه ابا بكر

الصديق ان يؤم المسلمين في الصلاة . ولما علم الصديق بوفاته جثا يقبله ويبكي ، ثم تحول الى الناس ،وتلى الآية الكريمة :«وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين . »

ثم قال «يا ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات.ومن يعبد الله فان الله حي لا يموت....»

ثم انفقت كلمة كثرة اصحاب القول على اختيار ابي بكر خليفة لمحمد ، قائلين : « رضيه النبي لديننا افلا نرضاه لدنيانا ؟ . (١١ هـ = ٦٣٢ م) . وقد حرص الخليفة على انكار كل بدعة في الاسلام ، وعلى استمرار بساطة الحكم والادارة ، كما كانت عليه عهد محمد . فالحكومة كانت كناية عن الخليفة ومستشاريه الفخريين من زعماء الصحابة .يكتب له كاتب حين الحاجة . ومالية الدولة تنحصر في الزكاة تجمع من اغنياء المسلمين ،وتفرق في فقرائهم. واما الجزية فتؤخذ من اهل الذمة ثمناً لحمايتهم ، تضاف اليها الغنائم ،وتقسم بين المحاربين . وقد يحتفظ بجزء منها لينفق في مصالح الدولة . وينال المتخلفون قسطاً آخر منها يوزع عليهم بنسبة خدماتهم .أما الجند ،فكانوا المسلمين باجمعهم ، واما الولاة،فكانوا قادة الحملات ، فاذا عقد ابو بكر لاحدهم لواء ولاه على القطر الذي وجهه اليه .

وتقتصر المحدثات ايام ابي بكر على كونه اول من جمع القرآن، واول من عهد بالخلافة لآخر :فقد خاف الانشقاق اذا ترك المسلمين دون وليّ بعده ، فاوصى لعمر ابن الخطاب . ولقد كان عمر بمثابة المنظم الأول للدولة الاسلامية : ذلك ان اتساع الملك في عهده قد دعا للتوسع في تنظيم الحكم ، فكان عمر اول من انشأ ديوان الجند ، واتخذ بيت المال ، ونصب القضاة ، وانشأ البريد ؛ كما كان اول من خطط المدن ، ومسح السواد ، وحدد الجزية ، وعين اعطيات المسلمين . واليه يرجع وضع التاريخ الاسلامي ،وجعل الهجرة مبدأه. وعلى الرغم من كثرة محدثات عمر فقد تردد في الاستخلاف ، وعمد الى طريقة تعتبر ايضاً في جملة مآتي التنظيم . ذلك انه عهد الى الستة : بقية العشرة الذين بشرهم محمد بالجنة ،ان يختاروا الخليفة من بعده ، فانعقد الامر لعثمان بن عفان (٢٣ هـ = ٦٤٤ م) .وكان عثمان جواداً منعماً فوسع تنظيمات عمر ، واكمل ما بدأه ابوبكر من جمع القرآن ونسخه، وارسل المصاحف التي كتبت الى الامصار كل ذلك مجاراة لتقدم الاحوال واستناداً الوفرة الاموال.ولكنه إذ

تشيع لأهله بني امية ، وآثرهم بالعطايا والمناصب عمل ، من حيث لا يريد ، على اثارة ما كان بينهم وبين بني هاشم قبل الاسلام من التنافس. هذا التنافس، الذي تحول ، من بعد ،الى فتن دامية رافقت العرب حتى زالت دولهم . وكانت اولاها تلك التي قتل فيها عثمان . وقد خلفه علي بن ابي طالب زعيم الهاشميين (٣٥ هـ = ٦٥٥ م) فحالت الحروب التي نشبت بينه وبين الامويين وغيرهم دون امعان النظر في الشؤون العامة، وتحقيق ما ينوي من اصلاح ، وكان في جملة من تآمر عليه الخوارج: فقتل . (٤٠ هـ = ٦٦٠ م) فافسح قتله المجال للامويين لأن يستأثروا بالسلطة .

. . . . .

سيرة الخلفاء الحربية : وقع الاسلام في ازمة شديدة بعد محمد : فقد آمن العرب برسالته في حياته،وخضعوا لاحكام دينه ، وهم بين معجب به ،وخائف منه ؛ ولكنهم لما عرفوا بوفاته حسب بعضهم ان القيود التي كانت تربطهم بالاسلام قد تقطعت ، فحنوا الى استقلالهم ، ونزع سيادة المدينة عن اعناقهم . واهل البادية مطبوعون على حب الانطلاق والاستقلال ، فعدّ فريق منهم الزكاة اتاوة ، وانفوا من ادائها ، واستسهل آخرون امر النبوة بعد ما اصاب محمد من نجاح الدعوة ، فأفسح لهم موته المجال لادعائها ، وهم يعتمدون ، في ذلك ، على قوة العصبية التي كانوا يتمتعون بها .

فتضافرت الاسباب على ارتداد العرب عن الاسلام ،وتعدد عدد المدعين للنبوة . واستفحل امرهم حتى تجاسر بعض اهل الردة على مهاجمة المدينة عاصمة الاسلام .

ولا ادل على مبلغ ما احاق بالاسلام من خطر من توسط عمر بن الخطاب ، وهو الشهير بصلابته وحزمه ، لدى الخليفة ابي بكر في ان يقبل الاكتفاء بالصلاة يؤديها مانعي الزكاة للدلالة على اسلامهم . ولكن ابا بكر أبى وساطة عمر وغيره ، وعكف طيلة السنتين اللتين تولى فيهما الحكم ، على تطهير الجزيرة من المرتدين ، وظل يعمل جاهداً حتى استتب الامر للاسلام دون منازع .

وما كاد الخليفة الاول يطمئن الى هذا الاستقرار الموضعي ، الذي حققه ، الا وأحسّ بان الوقت قد حان للقيام بواجب آخر ما زال يتمثل أمام عينيه . وهو تحقيق غاية النبي في الشام . إذ ان النبي قد جهز حملة وجهها الى هذا القطر المجاور ، ثم مات قبل رحيلها . فلم يتوان ابو بكر عن تسييرها؛ ولعل السياسة كانت تقضي كذلك لصرف همم العرب وأفكارهم نحو الفتح؛ وهم قوم قد الفوا التقاتل ، وأصبحوا

– كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله – فكان انتصار هذه الحملة في واقعة اليرموك على جيش هرقل ، على ما بين الجيشين من تفاوت في العدد والعدد، عاملاً من العوامل التي فتحت أمامهم باب الشام على مصراعيه. وقد توفي ابو بكر ، في تلك السنة، وجيشه يحاصر دمشق ، توفي بينما كانت أخبار النصر تثير الحماس الشديد في صفوف المتخلفين فيتسابقون للجهاد . ومات الخليفة الاول قرير النفس تاركا لعمر بن الخطاب استثمار هذا الاستعداد الروحي الذي غمر العرب وجعلهم يؤمنون بان الدنيا أصبحت هينة عليهم .

ولقد كره الانصار ،من أهل المدينة،والهاشميون ان تصير الخلافة لعمر، للسانه وعصاه، ولكن عمر كان في الواقع،أفضل من يتولى الخلافة ابان تحفز العرب للفتح . وقدوفّى الواجب حقه ، مدة العشر سنين ، التي قضاها في الولاية،حتى أجمع مبغضوه على الاعجاب به . وما أعظم التوفيق الذي أصابه العرب في عهده : إنهم استولوا في مدة سبع سنين على سورية ، وأخرجوا منها الرومان أسيادها منذ سبعة قرون ، وأجلوهم عن مصر . واكتسحوا العراق وفارس . وأية معجزة هذه ان يكون شهران كافيين لدك عرش الساسانيين العظيم الموطد الاركان ؟ وأي توفيق هذا الذي نالته الامبراطورية العربية التي نشأت منذ عشرين سنة تقريباً اذ تصبح ، عند موت عمر ، ممتدة من بخارى ومروشرقاً ،الى حدود تونس غرباً،ومن بحر قزوين شمالا ،الى المحيط الهندي جنوباً ؟ومن العجيب ان هذا الخليفة المحظوظ كان كأنه لا يشعر بهذا التوفيق : فلم يتبدل بل استمر كابي بكر يقنع باليسير لنفسه ، ويبذل راحته في سبيل تأمين راحة رعيته .ثم تضافرت عوامل كثيرة ،ايام عثمان بن عفان ، الذي بويع بعده ، لتوجيه الخليفة والناس شطر اتجاهات اخرى .وكان أهم تلك العوامل تدفق الاموال على جزيرة العرب ، وما أفضى اليه هذا التدفق من صرف الناس الى العمران والتلذذ بنعيم الحياة . ومع ذلك ، وبالرغم من ان الرفه من شأنه ملاشاة نهم التوسع والفتح فان ما أحرزه العرب من النصر اثر النصر كان لا يفتأ يذكي النشاط في نفوسهم . وهكذا استرد عمال عثمان ما استقل من الامصار ، وارتادوا أطراف الهند ، وركبوا البحار غازين ، حتى بلغوا الاندلس .

ووقعت الواقعة بعد عثمان ، فاشتغل العرب طيلة خلافة الامام علي،في الحروب الداخلية ،وظلوا كذلك حتى استتب الامر لمعاوية بن ابي سفيان .

العوامل التي يسرت للخلفاء النجاح : أسباب عدّة داخلية وخارجية تضافرت على تأمين هذا الفوز للخلفاء الراشدين حيثما اتجهوا ، وهذه خلاصتها :

. . . . .

الاسباب الداخلية ــ كان العرب على شيء كثير من الأخلاق التي تجري مجرى الفضائل : نجدة ووفاء وكرم وشجاعة . ولكنهم كانوا مصابين ، في نفس الوقت ، بخصال يتعذّر معها اجتماعهم ،اجتماع الامم التي تتساوى في صعيد الشعور، وتتعاون في السراء والضراء ؛ وأخصها التحاسد والتنافر وفقدان عناصر الانسجام . وأهم من ذلك أنه لم يكن ثمة هدف يجمعهم ، ولا مَثَل أعلى يستغويهم ويدفعهم . فلما ظهر الاسلام لم يقتصر على تقرير العقائد ، بل تناول اصلاح مساويهم الفردية والاجتماعية ، ووضع لهم هدفاً أسمى ؛ جعل الحياة الدنيا في نظرهم رخيصة بجانب تحقيقه . وهم في الأصل على شجاعة لا تضارعهم فيها الامم التي استنامت الى الأسوار ، فتسابقوا إلى الجهاد تسابق الموقنين بان النصر حليفهم ، والمؤمنين بان الجنان جزاء الشهداء .

وإذا كان لشجاعة العرب الفضل فيما اصابوا من النجاح ، فان الفضل الأكبر يرجع ،في حقيقة الأمر، إلى الخليفتين الأولين ، وإلى رجالات الشورى في عهدهما ، ولاسيما عثمان وعلي اللذين خلفاهما ، فضلاً عن سائر القادة والعمال .

على أنه يجب ألا ننسي ما كان للاسلام من اثر بالغ في تسهيل الفتح ؛ فهو كما كونهم امة تكويناً جديداً،فقدوضع لهم نهجاً التزموه ، وحبب بهم الامم المظلومة .

وقد أسهب المؤرخون في تبيان ما كان لنظام الحكم ،الذي اتبعه الخلفاء ، من مفعول كبير في تسهيل الفتح ،ومن تأثيرفي تعريب البلدان التي اكتسحوها،ودفعها للاسلام . وحسبنا الاشارة إلى ما أورد كوستاف لوبون من الأمثلة على هذا المفعول. هذاوقد تناول الاستاذ فيليب حتي في كتابه « موجز تاريخ العرب » تعليل اسباب الفتوحات العربية (ص ٥٧ ــ ٥٨) مشيراً الى ان الدين كان اكبر عامل في خلق تلك الروح المتحفزة ،ولكنه انتهى الى القول بما يفيد :

١ ــ ان الفتوحات الاسلامية لم تكن في بدء عهدها نتيجة لخطة مرسومة ، بل كانت عبارة عن غزوات مصدرها الروح المتحفزة للقتال .

٢ ــ ان الفتوحات قد تمت بفضل الدولة لا الدين » اه.

وانصافاً للعرب والاسلام كان لزاماً علينا ان نعلق على هذين القولين بما يأتي :

١ – ان الفتوحات كانت لغاية سامية ، ولم تكن عن روح متحفزة للقتال فحسب ؛ وكانت الغاية الاولى منها نشر الاسلام : فقد وجه محمد الى ملوك العالم يدعوهم الى الاسلام ؛ ثم لما اشتد ساعده ولى وجهه شطر الشام يريد الفتح لنشر الدين ، واذ لم يمد الله في اجل الرسول جهز خليفته الاول الحملة التي اعتزم محمد سوقها الى سورية . وقد توفي ابو بكر وجيشه ، كما قلنا ، يحاصر دمشق . وعلى هذا القصد تابع خلفاؤه فتح العالم . واذا كان يصح القول بان الروح المتحفزة للقتال هي ظاهرة عامة كانت تبدو على الشعب العربي ، فليست هذه الروح هي التي كانت تحمل المسلمين ، وخصوصاً ، قادة الامر منهم على التوجه شطر الفتح .

٢ – قد اشرنا فيما سبق الى ان العالم الاسلامي اصبح عند موت عمر بن الخطاب يمتد من بخارى الى حدود تونس ؛ فما هي اذن الدولة التي كانت قائمة في عهدي ابي بكر وعمر التي يزعم الاستاذ حتي بان الفضل يرجع اليها في هذا الفتح وليس للدين ؟ والواقع انه لم تكن ثمة دولة بالمعنى المعروف ، ولكنها كانت امة آمنت بشريعة ايماناً صادقاً ، فحملت الايمان الذي يغمر قلبها ، الى العالم لتظهره على الدين كله .

. . . . .

الاسباب الخارجية : لم يكن نجاح الاسلام في جزيرة العرب أمراً عجيباً ، بل كان الاعجب منه تغلب اولئك الضعفاء على امبراطوريتي العالم المعاصرتين : فارس ، وبيزنطة . فقد عاصر الخلفاء الراشدون كلاً من الدولة الساسانية في فارس ، وأسرة هرقليوس بقسطنطينية ، وهما اشهر اسر الاكاسرة والقياصرة ؛ ولكن الحظ اذا كان مؤاتياً سخر لصاحبه الصعاب : فقد انقضى بموت كسرى برويز عهد مجد فارس اذ اصبح تاجها يرتفع ، من بعد ، تارة على رأس فتى ، وطوراً على رأس امرأة ، ولا يستقر على هامة الا لتطير معه بعد قليل . وهكذا انتقل التاج في مدة اربع سنين من رأس الى اخر حتى بلغ عددها تسعة كان اخرهم يزدجرد . وما كان مع ذلك لكسرى يزدجرد من السلطة الا الاسم : فكانت هذه بحوزة الوزراء والقواد يستبدون بها دونه ، فانقض العرب على فارس ، وهم نيام على الثقة ، وانتزعوا من كسرى وبطانته التاج والسلطة .

وأما في بيزنطة فكان الحال على خلاف ذلك : ولي هرقل فانقذ الدولة من الفوضى . وكما انتصر ، في الغرب ، على البرابرة المعروفين بـ أفارس ، Avares فقد ثار

في الشرق من الفرس، وكان اثناء ذلك يستخف بهؤلاء العرب الذين شرعوا يرتادون مشارف الشام، ويعتبرهم مجرد غزاة؛ فجنى عليه استخفافه الفشل، خصوصاً وكان قد اجهد الدولة بالحروب، التي كانت متصلة بين الغرب والشرق، اجهاداً القى الشلل في اعصابها حتى لم يعد الجند، على وفرة عددهم، يجدون النشاط للدفاع. أما خزينة الدولة فلم تكن تسعف الاجناد بالعطايا والعتاد، بل اصبحت على حالة افلاس أدى الى امتداد الايدي الى اموال الكنائس. ومن جراء ذلك لم تبق لوفرة عدد البيزنطيين ولا لمعاقلهم، ازاء شجاعة العرب وايمانهم اية قيمة.

هذا فضلاً عما كان لحالة الفرس والبيزنطيين الاجتماعية من تأثير في مساعدة العرب: فقد تفاقم الخلاف في فارس بين ديني مزدك وماني. كما تدهورت الاخلاق، وتلاشت العاطفة الوطنية. وفي بيزنطة اشتدت الانقسامات المذهبية، وانتهت بتباغض شديد بين الحكومة، التي حاولت ان تؤيد مذهبها بالعنف، وبين المذاهب الاخرى. كما شبت الفتن بين النصارى واليهود بصورة خاصة. وقد اسهب درابر Drapper في تبيان ما كان لذلك من مضار سياسية واجتماعية.

فلما حمل العرب على الدولتين الفوا قلوباً مفتوحة لاستقبالهم، ووجدوا قبائل، من ابناء عمومتهم في مشارف الشام والعراق، تطمئن لحكمهم؛ فكان النصر بذلك حليفهم وكان نصراً هيناً.

. . . . .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية عهد الخلفاء: نوهنا في هذا الفصل بما اصاب العرب، بفضل الاسلام، من تطور روحي. والواقع ان تأثير الاسلام تعدى ذلك الى كل ناحية من نواحي العرب. وهو لم يقتصر على حقل الاخلاق والعواطف، بل شمل ايضاً ناحية الآداب: فبدّل فيها وغيّر تبعاً لتطور الروح العامة، ووفقاً للحاجة الزمنية: فقد انحط الشعر عهد الخلفاء، وارتقت الخطابة، وتحسن الخط والانشاء. اما ما بقي من العلوم فقد انصرف عنها الناس الى الفتح. وربما كان اظهر تبدّل اصاب العرب في حياتهم الاجتماعية يرجع عهده الى حكم عمر. وسببه توفر الثروة في المدينة، عاصمة الاسلام، وسائر البلاد. وليس من شيء يؤثر على الناس كالحالة الاقتصادية. فان الفتوح قد درّت على الجزيرة الاموال، وكانت وفيرة، الى حد ان هذا الخليفة تمكن، على رواية كوستاف لوبون، من ان يخصص لكل واحد من رجالاته موارد سنوية تتراوح ما بين الالف، والخمسة الاف درهم، بحسب

خدماتهم وقدمها .

ولكن نفس عمر لم يغرها هذا الرخاء ، فاستمرت على التقشف ، وظل خبزه الشعير وثوبه الخام المرقع .

أما عثمان بن عفان فكان منعماً ،واستزاد في الرفه تمشياً مع تفاقم الثروة العامة، غير مبال بتشنيع أبي ذر الغفاري على الذين يكنزون الذهب ، بل عمد الى نفيه ؛ واكثر من القصور وتطاول في بنيانها ؛ كما بالغ في اقتناء المماليك .

وتصادم في خلافة عثمان المبدءآن :مبدأ الخليفتين الزاهدين ابي بكر وعمر،ومبدأ الخليفة المتنعم!والناس اميل لما فيه هوى نفوسهم.وهم على دين ملوكهم ،فتنافسوا في الانفاق حتى بيعت الجارية ، على رواية الحسن البصري ، بوزنها فضة ؛ والفرس بعشرة آلاف دينار ، والبعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف .

وهذه الرواية التي جاءت في كتاب الامامة والسياسة لا تخلو من مبالغة ، ولكنها مع ذلك تشير الى ما اصاب القوم من التبذير ، والى ما كانوا عليه من الرخاء ؛ على اعتبار ان الغلاء الطبيعي ،اذا لم يكن عارضاً، فهو من علائم الرخاء .

ولا نخال الناس تمتعوا ،عهد الامام علي ،بمثل هذه الثروة : فهو فضلاً عن كونه التزم نهج الخليفتين الاولين ،فان الاموال تضاءلت كثيراً في عهده من جراء تقاطع الامصار العربية، ولوقف الفتوحات، واصبح القليل الذي يحصل من الاموال ينفق على الفئات المقاتلة .



الفصل الرابع

عصر الشام

الفترة بين الخلافة والملك

من المعلوم ان بني أمية وبني هاشم هما من قريش زعماء مكة ، وقد كانت لأمية في الجاهلية القيادة ، وهي امارة الركب في الاسفار والحروب ؛ كما كانت لهاشم الحجابة ، وهي ولاية الكعبة . فكان لبني هاشم، بفضل هذه الولاية ، سيادة روحية الى جانب سيادتهم الزمنية . وقد زاد في رجحان كفتهم في الاسلام ان محمداً منهم ، وان الامويين لم يؤمنوا بمحمد، وبدين محمد إلا بعد ان آمن به غيرهم بسنين ، مما جعلهم يتأخرون في زعامتهم ، ليس فقط عن بني هاشم ، بل عن قبائل اخرى، هي أقل شأناً منهم قبل الاسلام ، صدقت بالنبي وأبلت البلاء الحسن في سبيل اعلاء الدين الجديد . ومن هؤلاء : المكيون المهاجرون ، والمدنيون الانصار .

فلما تولى الخلافة ابو بكر ، ثم عمر ، ادرك كل منهما ما يحز في نفوس الامويين من ألم ، لما اصابهم من تأخر في الهيئة الاجتماعية . فعملا على تلافيه بعقد الرايات لهم في الحروب ؛ وبذلك رويت نفوسهم الطامحة الى المجد والعظمة، ووجدوا في الولايات من العز والسؤدد ما فاتهم في العاصمة .

فلما صارت الخلافة الى عثمان بن عفان ، وهو واحد منهم ، قربهم اليه ، وخصهم بالعطاء والمراتب . فاذا بهذا النجاح يثير مطامع معاوية بن ابي سفيان ، وكان والياً على الشام آنئذ، فينزل الى الميدان ، ويأخذ الاهبة ، ويجمع الانصار . حتى اذا قتل الخليفة عثمان ؛ اتخذ من هذه الحادثة ذريعة للثورة ضد علي تحت ستار المطالبة بدم عثمان .

وقد استفاد معاوية من انشقاق الهاشميين على انفسهم بمكة ، ومن تخلي السواد

الاعظم منهم عن ابن عمهم عليّ ، كما استفاد من خصوم الهاشميين وحسادهم ، فحقق مطامعه بقوة انصاره ، وبفضل مواهبه السياسية . ثم أسعفه الحظ بقتل عليّ ، وبكره الحسن بن عليّ ان يركن الى اجناد قد خذلوا والده . ولما تنزل الحسين بن علي عن الخلافة انتقلت بذلك من آل النبي الى ابناء عمه الامويين ، ونقلت العاصمة من الحجاز والكوفة الى دمشق .

وقد كان لهذا الحدث أثر آخر في التاريخ عظيم الشأن : ذلك انه قد اسدل الستار ، من بعد ، على مبدأ الجامعة الاسلامية الذي دعا اليه النبي ، فأثيرت العصبية القومية كرة اخرى. وكان ان حكم الامويون باسم العرب ، وان تبرم الشعوبيون ، وثاروا عليهم بدافع العنصرية. على أن مبدأ الجامعة الاسلامية ، وان ظل يحتفظ بقوته ، وينتشر في العالم مع انتشار الاسلام ، إلاّ أن السياسة كانت مع ذلك تمثل ، وراء الستار ، ادواراً هي أقرب إلى العصبية القومية والعنصرية إلى اي شيء آخر .

الدولة الاموية بدمشق

من سنة ٤١ الى ١٣٢ هـ — ٦٦٠ الى ٧٥٠ م

اسندت أمارة الشام إلى معاوية بن ابي سفيان بعد أخيه ، فتولاها ايام عمر وعثمان ، وخرج على الخليفة عليّ فتسنى له ما اراد . غير ان الدولة لم تنسب اليه ، وانما نسبت إلى أمية ، لانها انتقلت بعد حفيده معاوية الثاني إلى مروان بن الحكم . ومروان هذا يجتمع بمعاوية في جدهما الأعلى أمية .

. . . . .

سيرة الامويين السياسية : لم يستتب الامر لمعاوية بقبول الحسين بن علي التنازل له عن الخلافة ، بل اصطدم ، من ثم ، بثورات كثيرة ، يقع أمثالها عادة اثر انتقال الملك من أسرة الى أسرة : : فقد كان لاقدامه على تحوير نظام الحكم بالاسلام ، وجعله ملكياً وراثياً ، بعد ان كان جمهورياً ، اكبر الاثر في جعل سادة العرب واشرافهم ينظرون إلى عمله هذا نظرتهم إلى البدع . فخرجوا عليه واعلنوا التمرد والعصيان ؛ خصوصاً وان هذا النظام الجديد لم يكن ، يتفق مع مصلحتهم الخاصة .ولكن ما تمتع به معاوية من دهاء وكرم قد ذلل له كل الصعاب. ثم تحول ، بعد ذلك ، إلى خطة الفتح حباً باكتساب عواطف المسلمين ، فاتيح له ان يستعيد الامصار المنفصلة عن الدولة ، خلال تلك الفتن ، وان يتوغل في الفتح حتى ان اسطوله ،

الذي كان قد نشأ من العدم ، استولى على بعض الجزر ، وبلغ صقلية غازياً ، واشترك مع الجيش في حصار قسطنطينية : عاصمة بيزنطة .

ولكن اهتمام معاوية بالفتح جاء متأخراً ، فلم يبلغ الامنية من قسطنطينية ، كما ان جيشه وقف في الشرق عند سمرقند ، وفي الغرب عند القيروان . ثم عادت بوفاته مشكلة الخلافة الى الظهور : فثار الحسين بن علي على يزيد بن معاوية . ومع ان هذه الثورة باءت بالفشل ، وانتهت بمقتل الحسين ، إلا انها قد جرّت بعدها ثورة جديدة قام بها هاشمي آخر ، هو عبدالله بن الزبير ، كانت أشد خطراً ، الى حد انه لما صار الحكم الى معاوية بن يزيد عاف هذا الخليفة الملك ، وترك الى مروان بن الحكم متابعة النضال ضد ابن الزبير ، ثم ضد من تلاه من الثائرين .

ولما بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة (٦٨٤ م) كانت قوائم الدولة لا تزال تضطرب : ذلك لان نجاح ابن الزبير كان قد شجع على قيام ثورات داخلية كثيرة ، كما اطمع هذا الاختلال الداخلي الاجانب بالعرب ؛ وبلغ من سوء الحال ان عبد الملك اضطر ان يصالح البيزنطيين على الف دينار يؤديها لهم كل اسبوع .

ولكن هذا العاهل الجديد استطاع التغلب على كل هذه المشاكل ، فاذا به ينجح في تطهير البلاد من الخوارج ، ويرد البيزنطيين الى الوراء ، بينما كانت جنوده تتقدم في القيروان ، وتسترد تونس . فكان بمثابة المؤسس الثاني للدولة الاموية .

ولما خلفه ابنه الوليد (٧٠٥ م) وجد السبيل امامه ممهداً ، فاتيح له بذلك ان يكون صاحب الحظ الأوفى بين الامويين من حيث امتداد الفتوحات . كعمر بن الخطاب بين الخلفاء الراشدين . فقد خفقت في عهده اعلام العرب من جبال استوريا Asturies في اسبانيا ، الى حدود الصين : ومن الهند وخليج فارس ، الى القفقاس واواسط الاناضول . وكان كلما جاءه نبأ انتصار جديد يخرّ ساجداً لله ، حتى قال فيه احدهم « لكثرة انتصاراته ظننت انه لا يرفع رأسه »

وكأن القناعة قد حلت محل الطموح بعد هذا النشاط الحربي ، والاتساع في الفتح ، فلم يوفق سليمان بن عبدالملك ، من بعد ، ان يوسع تخوم المملكة الا قليلا . كما أن عمر بن عبد العزيز جاء في غير أوانه عندما اراد ان يحيي زمن الخليفتين ابي بكر وعمر ، ويرد الدولة الى حدود الدين ، ويعيد الديمقراطية الى سابق عهدها . كل ذلك جعل الزعماء يكرهونه ويضعون العراقيل في وجه مهمته ، فمات مسموماً .

هذا الى ان الهاشميين وجدوا في حكم عمر بن عبد العزيز وحلمه مشجعاً لهم فبثوا

الدعاة لأحد العباسيين ، ثم ازدادوا نشاطاً (٧١٩ م) عندما كان يزيد بن عبدالملك منغمساً في اللهو والطرب .

ولما صارت الخلافة الى هشام بن عبد الملك (٧٢٤ م) ، وكان رجـــل عزم وحزم ، انتعش به الامل من جديد ؛ غير أن الاحوال الداخلية والخارجية حالت بينه وبين الفتح . ويكفي هنا أن نشير الى الثورات الشعوبية التي اصطدم بهـا ، تلك الثورات التي كادت تعم كل قطر . وعلى الرغم من ذلك فقد سجل لنفسه فضـل المحافظة على تخوم المملكة كما هي .

ثم خلفه الوليد بن يزيد (٧٤٣ م) ، وكان هذا عبداً لشهواته ، فقتله ابن عمه يزيد بن الوليد – ان العرب كانوا حريصين على مراعـــاة البيعة والوفاء بعهودهم ، وخاصة لأولياء العهد ، ولذلك أنكروا على القاتل يزيد اغتصابه الملك بالقوة مما أدى الى اشتباكه مع عماله في الامصار بنضال مستمر .ومع أن هذه الطريقة ،قصد الوصول الى الملك ،قد قوبلت بالاستنكار ، غير أن هذا لم يمنع ابراهيم بن الوليد من اعتلاء العرش بالوسيلة ذاتها . وهنا دبّ الخلاف بين هذا الخليفة الجديد وبين ابن عم له كان عاملاً على ارمينية ؛هو مروان بن محمد ؛وانتهى الخلاف بوصول الثاني الى الملك بمثل ما وصل اليه الاول . وكان من جراء ذلك أن انقسمت الاسرة المالكة عـلى نفسها (٧٤٥ م)،وان اتسع المجال لدعـــاة العباسيين في الامصار : وإذا بجيوش مروان بن الحكم، آخر خلفاء الامويين ، ومن أشدهم مراساً، تشتبك،في خراسان،مع جيوش أبي العباس الذي، كان قد بايعه انصار العباسيين بالخلافة ،وإذا بالظفر يكون حليف هؤلاء ، الذين ظلوا يطاردون مروان حتى دخل مصر حيث لاقى حتفه ، ثم ارتدوا الى اسرته وأنصاره ،ومثلوا بهم جميعاً شر تمثيل ،واستولوا على كافة ملكهم.

. . . . .

سيرة الامويين الادارية : لما دنا عمر بن الخطاب من دمشق في طريقه إلى بيت المقدس لتسلم مفاتيحها ، مستجيباً لطلب أولياء الامر فيها ، خرج للقائه عامله على الشام معاوية بن ابي سفيان ، وهو في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة . وكان الخليفة لا يختلف عن صحبه الوافدين معه في الثوب ، ولا المطية ؛ فأنكر على عامله مظهره الارستقراطي ، وقال له : « أكسرويّة يا معاوية ؟ » فاعتذر معاوية وقال: «يا أمير المؤمنين أنا في ثغر تجاه العدو،وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة» وفي الواقع كانت سورية ، التي تعاقبت على حكمها أرقى الامم،ودخلت في حكم

الروماني نحو سبعة قرون ، تنعم وقتئذ بمدنية عالية حقيقة بان تكون ذات نفوذ على كل نازل فيها . وقد قضى معاوية في الولاية عليها مدة طويلة تقدر باربعين سنة : عشرين منها أميراً ، وعشرين اخرى خليفة . وهي مدة كانت كافية لأن تجعل معاوية الشام غير معاوية الحجاز .

وقد استطاع معاوية فعلاً ان يخرج آلة الحكم فيها من سذاجة البداوة، ويطبعها بطابع الحضارة . فاتخذ من أرباب الرأي والزعامة بدمشق مجلساً أشبه شيء بمجلس النواب،وأنشأ مثل هذا لعماله في كافة الامصار،ونظم قواعدالجيش،وجهز الدولة بقوة بحرية إلى جانب قواته البرية ، واستخدم الاخصائيين من الاعاجم في شؤون الحرب، واصلح الدواوين ، ونظم البريد، وابتدع منصب صاحب الخبر (مدير الاستخبارات) واستخدم القصّاص للدعاية ، وتلبس بلباس الملوك في التنعم ،واقامـــة الحرس . وكان يمشي بين يديه صاحب الشرطة بالحراب . غير ان معاوية قد التزم، مع ذلك ، على ما قام به من التجدد ، جانب الحشمة . بخلاف ابنه يزيد ، الذي لم يستطع ان يصون نفسه من موبقات البيئة ، فاستسلم للتهتك .

ولما استتب الحكم لعبد الملك بن مروان استأنف اعمال التجدد ، وأراد طبعهـا بطابع عربي :فحول الطراز ،ولغة الدواوين إلى العربية، وسك بها النقود،وزاد في تشبهه بالاكاسرة : فكان أول من أقام على رأسه الحرس .

ولما استوفت آلة الحكم قسطها من التجدد جاء دور العمران ، فاستوفى منـه قسطه ايضاً . وهذه قبة الصخرة بالقدس ، وهي الـــتي اتفقت اقوال هايتر لويس وفركوسون على انها اجمل الاثار التي خلدها التاريخ وهي تقـّرظ بانيها عبد الملك ابن مروان، كما يقرظ الجامع الاموي في دمشق ابنه الوليد.وكان الوليد من اكبر الامويين عناية بالمنافع العامة إذ أقام المستشفيات،ودور الايتام، وملاجيء العجزة، والجزامى والعميان، وحبس عليها الاوقاف والمخصصات.وأجزل العطاء للفقراء، وحرم عليهم السؤال، فضلاً عن رعايته لاهل العلم والفقهاء.وكان الوليد اول من انشأ مارستاناً في الاسلام :شيده في دمشق سنة ٨٨ هـ. هذا بالاضافة لما كان له من الايادي في صعيد زيادة عدد الخانات ،والجسور ،والسدود ،ودور الضيافات، مما جعله قدوة حسنة للخلفاء .

ولقد قضى الوليد نحبه قبل اتمام الجامع الاموي بدمشق ،فأتمه بعده اخوه سليمان ابن عبد الملك،وجعله على شكل هو، في الواقع، معجزة من معجزات الفن.وجرى، مجرى الوليد في العمران ،هشام بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ،على قدر ما سمحت

لها الظروف .

فلا غرو اذاً ان يكتب لبلاد الشام في عهد الامويين ان تكون قدوة العالم في التنظيم والعمران : ذلك لانها أصبحت ، في ايامهم ، تتمتع ، إلى جانب ما كانت تتمتع به من تراث قديم ، بكونها مستودعاً لثروة الأمصار وخيراتها .

نظام الاجتماع في عهد الامويين : كانت أول خطبة القاها الخليفة الاول ابو بكر بعد البيعة مختتمة بقوله : « اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » وهذه عبارة تشف عن روح المجتمع العربي عهد الخلفاء الراشدين . أما الامويون فانهم قد جعلوا الاسلام دولة ، والشرع سياسة ، والجامعة قومية ، فتضافرت سياسة الدولة في ايامهم مع مقتضيات البيئة على تحوير ذهنية العرب واخلاقهم .

فبعد ان كان العرب في فتوحاتهم ، ايام الخلفاء الراشدين ، أشبه شيء بفرق عسكرية تنتحي كل منها ضاحية في المدن الكبرى ، وتمتنع عن الزرع عملاً بوصية الخليفة عمر ، الذي أراد ، من ذلك ، ان يستبقيهم كجنود ، و كجنود فحسب ، إذا بهم ينقلبون ، في عهد الامويين ، الى معسكرات منظمة تشبه المدن ؛ وإذا بهم يهملون وصية عمر ليستخدموا الثروة ، التي تدفقت ، في سبيل نعيم الحياة : فيبنون القصور وينغمسون في الترف والبذخ . على انهم ظلوا ، مع كل ذلك ، محافظين في اعماق نفوسهم على روح البداوة وسجاياها .

غير ان الذي خسروه في هذا العهد هو الشجاعة الادبية التي هي من مميزات العربي : فقد شرعوا يرون مواكب ملوكهم تمشي بين الحراب ، واذا قعدوا قامت على رؤوسهم السيوف . ثم سمعوا عبد الملك بن مروان ينهاهم عن الكلام بحضرته ، ولا يتورع ان يعلن بخطبة له قوله : « والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » .

هذا وقد كان الناس عهد الامويين على طبقتين : طبقة المسلمين ، وطبقة اهل الذمة .

أما المسلمون فكانوا ايضاً فئتين : العرب والاعاجم . وكان هذا التفاوت في الطبقات مألوفاً عند الامم التي خضعت للرومان . ولكن ، بالرغم من وجود هذا التفاوت ، فان كوستاف لوبون لم يسعه إلا ان يثني على معاملة الامويين لغير المسلمين

قائلاً: « وتحت حمايتهم الرحيمة تمتع الكهنة ، من الروم واللاتين، بطمأنينة لم يعرفوها من قبل » .

. . . . .

الحالة الاقتصادية في عهد الامويين : لا شك في ان دخول الامصار الكثيرة في حوزة سلطة واحدة ، واتحادها من شأنه تحسين حالتها الاقتصادية بما يتوفر لها ، من جراء ذلك ، من سهولة في تبادل المحاصيل والمنتوجات .

ولقد اتيح للامويين ان يبسطوا سلطانهم على أمصار تناولت اقساماً من اوربا وافريقيا وآسيا ، فوصلوا بين الشرق الاقصى والغرب الاقصى . وكان هذا الوصل عاملاً على رواج التجارة ، وبالتالي على رواج الصناعة والزراعة .

ومن المؤسف ان ما وصل الينا من اخبار الامويين هي نتف متقطعة لا تبرز لنا هذه الناحية بشكل واضح . ولعل العباسيين ، الذين خلفوهم على الملك ، هم الذين طمسوا هذه الاخبار ، وتعمدوا استئصال حسناتهم . اما خلاصة ما وصلنا من هذه الاخبار القليلة فهو : ان الامويين اقروا سكان البلاد التي فتحوها على مزارعهم ومصانعهم ، كما وضعوا نظماً تصون حق الفلاح والصانع والتاجر . فواصل الاهلون اعمالهم ، واخذ العرب يشاركونهم فيها ، لما لمسوه فيها من موارد كثيرة . والى معاوية يرجع الفضل في الخطوات الاولى شطر العناية بالزراعة . وكان في جملة مآتيه انه اراد ان يعوّض على اهل الحجاز ما خسروه بانتقال الملك الى الشام ، فعنى بتنشيط الزراعة في قطرهم ، جرياً على سنة عمر بن الخطاب . وفي هذا يقول بعض المؤرخين ما يلي : « ان الحجاز قد عاشت من بعد قرناً كانت تعتمد فيه على ارضها لم تشهد رخاء مثله » .

على ان عهد الوليد بن عبد الملك كان بمثابة العصر الالماسي في العهد الأموي من الناحية الاقتصادية : فتدفقت فيه الثروة الى الشام من كل صوب ، وتفاقم العمران الى حد « ان الناس – على رواية ابن الاثير – كانوا يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء » . وقد قدر جرجي زيدان متوسط الجباية السنوية في دولة الامويين عن العراق والشام ومصر فقط بمبلغ ١٨٦ مليون درهم ، اكثرها من العراق . وهذا كثير بالنسبة لمعدل الجبايات في ذلك العصر .

. . . . .

الثقافة في العصر الاموي : جاء الاسلام والامية تعم شبه الجزيرة العربية ، وخاصة الحجاز ومصر ، فافاد الاسلام الحركة العلمية من وجوه كثيرة . لان

نشر هذا الدين قد استتبع الحاجة الى القارئين والكاتبين . وكانت تعاليمه، وما روي فيها من اخبار الامم على سبيل العبرة، اساساً للثقافة الاسلامية وللنظم التشريعية . وقد دعا الاسلام للنظر في الكون فزاد ذلك في نشاط الحركة العقلية ، كما ان قيام الدولة الاسلامية قد خدم الثقافة العامة بما اتاح من تفاعل بين المدنيات المختلفة وتبادل جعل للعرب حضارة خاصة .

وبتأثير الاسلام ودولته اتخذت الحركات العلمية ثلاثة اتجاهات: حركة دينية . وحركة تاريخية وقصصية ، وحركة فلسفية .

هذا وكان تعصب بني امية للعروبة حافزاً لهم للعناية بآداب الجاهلية، وفي طليعتها الشعر والخطابة . ومن الممكن القول بان عصرهم كان العصر الذهبي للشعر العربي : وحسبهم ان يكون من شعرائهم الاخطل وجرير والفرزدق . غير ان انتشار الدين واستفحال الملك عملا على صبغ الادب بلون يتناسب مع الحضارة ، وان كان قد بقي عربياً من حيث الجوهر .

هذا، وكان اكثر حملة العلم في عهد الصحابة من العرب، أما في عهد الأمويين فقد تبدل الامر إذ اصبح اكثر العلماء من الموالي ، وذلك لانشغال العرب بالسياسة والرئاسة . والموالي هم الذين دخلوا في الاسلام من العناصر الاعجمية ، فاشتغلوا بالعلوم الاسلامية على النمط الذي كان عليه علم قومهم . وقد استطاعوا ، بفضل ما لقوه من تشجيع الخلفاء، ان يترجموا الفلسفة والعلوم الطبيعية الى اللغة العربية . وكان العالم، عصر الامويين، يرجع في آدابه وثقافته الى علوم اليونان، فلا عجب ان تغلبت على البيزنطيين فلسفة مدارس الاسكندرية، وان امتزجت فلسفة اثينا، التي حمل لواءها النسطوريون، بعقائد الفرس .

وهكذا نجد ان مدرسة الرها ونصيبين ظلتا تؤديان عملها، أيام الامويين، في نشر اليونانية، وظل المتخرجون السريان فيها يخدمون في قصور الامويين ورحابهم اطباء ومترجمين واساتذة . ومن اشهرهم ابن أثال ، طبيب معاوية الخاص .

على ان فريقاً من صميم العرب قد رجح جانب الثقافة على السياسة ، ومن هؤلاء بعض افراد الأسرة الحاكمة ، واشهرهم خالد بن يزيد حفيد معاوية الذي اخذ صناعة الكيمياء عن مدرسة الاسكندرية ، ونقلها الى العربية ، وانفق الاموال الطائلة في طلب علمي النجوم والطب ، واعداد آلاتها .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ساد الهدوء وساد السلام ، فلاءم ذلك الحركة

العلمية ونشطها وتولى هذا الخليفة بنفسه تشجيع اهل العلم وأهل النقل .

ولقد كثر التدوين والترجمة في عهد الامويين حتى كدنا نذكر لكل خليفة فيها أثراً ، ولكن ما وصل منه الى ايدينا قليل ، ولم نعرفه الا عن طريق الرواية من العباسيين .

الفن في العصر الاموي : اما الفن في العصر الاموي فلا نفتأ نرى أنموذجاً منه خالداً في بنائين يعدان من اروع ما انتجته العبقرية العربية : وهما المسجد الاموي في دمشق ، وقبة الصخرة في بيت المقدس . على أن التنقيب على الاثار في سورية وما حولها ،في السنين الاخيرة أخذ يكشف لنا عن روائع اخرى للامويين تقرظ فنهم المعماري وتبين مدى ما وصلت اليه مواهبهم في هذا السبيل . وهي اثار نقلت اخيراً الى دمشق عاصمة الجمهورية السورية ، وشخصت فيها امام الانظار محفوفة بالاعجاب والاكبار .



الفصل الخامس

عصر العراق

النضال السياسي بين العصبيات العربية وفوز العباسيين

لما توفي الرسول ، لقي العباس بن عبد المطلب ابا بكر وعمر، فسألهما عما إذا كان النبي قد ترك وصية للتمشي عليها بعد وفاته . ولما علم بانه لم يوص لاحد بالخلافة من بعده قال لابن اخيه علي بن ابي طالب ، وكان ساعتئذ بجانبه « ابسط يدك أبايعك فيقال عمّ رسول الله بايع ابن عمه، ويبايعك أهل بيتك » فاستمهله علي وقال: « ومن يطلب هذا الامر غيرنا ؟ »

على أن المسلمين قد خيّبوا ظن الامام بعد ذلك : فـــاذا هم يبايعون دونه أبا بكر، ثم عمر فعـــثمان ؛ وكأنهم كانوا يكرهون ان يجمعوا في بني هاشم بين فخر النبوة ومجد الخلافة . ثم لما أتيح لعلي بلوغ الخلافة وثب الامويون عليه ،وانتزعوها منه ليستأثروا بها دون الهاشميين .

ورأى أهل البيت النبوي في هذا العمل افتئاتاً على حقهم فنشطوا للمقاومـة ، وقاموا يطالبون باعادة الخلافة اليهم . غير ان العرب قد خذلوهم ،فلجأوا الى الفرس . وكان هؤلاء يتحمسون بالقومية الفارسية ،وكان تحمسهم هذا يزداد كلما آنسوا من الامويين تعصباً للعروبة ؛ فاقبلوا على الهاشميين يعاضدونهم وينتصرون لهم . وهم يعتبرون ان في معاضدتهم والانتصار لهم مظهراً من مظاهر التشيع للاسلام . ولعلهم،أو لعل بعضهم كان يرمي ، من وراء ذلك ، الى تعزيز القومية الفارسية بما يبذره من شقاق وتفرقة بين العرب . أو بعبارة اخرى ،باضعاف القومية العربية . على أن الهاشميين انفسهم لم يبقوا متفقين فيما بينهم بل انقسموا الى احزاب وفرق تتـّحد كلها او تكاد على الهدف المشترك ، وهو كفاح بني امية، الا انها تتنازع فيما بينها على فكرة الاحق بالخلافة . ولقد كان على رأس هذه الفرق حزبان :

١ ــ **الحزب العلوي** : وهو مؤلف من فئتين : فئة تدعو لسلالة فاطمة الزهراء ابنة النبي من زوجها علي ؛ وفئة تدعو لمحمد بن الحنفية بن علي من زوجة اخرى ، ثم لنسله من بعده .

٢ ــ **الحزب العباسي** : وهو يدعو لسلالة العباس بن عبد المطلب عمّ النبي.

وقد عانى الامويون الشدائد في سبيل اخماد ثورات الهاشميين ، ولكنهم ما لبثوا ان منوا بانقسام أفسح المجال لابي مسلم الخراساني ، وهو الذي كان يعمل لمصلحة العباسيين ، ان ينتصر ، ويبني لهم ملكاً على انقاض الدولة الاموية المنهزمة .

الدولة العباسية في بغداد

١٣٢ — ٦٥٦ هـ — ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

قامت الدولة العباسية في العراق ؛ ودامت ٥٢٤ سنة قمرية . وتعاقب على عرشها ٣٧ خليفة . اتخذ اولهم مدينة الانبار عاصمة للملك ، ثم انتقل بها الخليفة الثاني الى بغداد ؛ حيث ظلت عاصمة للعباسيين حتى انقضاض التتر عليهم . وعندئذ انتقلوا الى مصر واتخذوا القاهرة عاصمة لهم .

. . . . .

سيرة العباسيين السياسية : خلف العباسيون الأمويين على ملك كان يمتد من جبال البيرنه Pyrénées الى الصين ، ومن وادي كاشمير ، في الهند ، الى جبال طورس في الاناضول . ويشمل شمالي افريقيا وجزر البحر المتوسط . فلا غرو اذاً ان تنصرف مطامعهم عن الفتح الى العمران والحضارة .

غير ان خمود الروح الحربية في امة لها هذه البسطة في الملك ، وفي دولة تتألف من عناصر شتى من شأنه ان يؤدي الى التفكك ، والى الانحلال .

لذلك فان سيرة العباسيين السياسية ، التي لم تسجل من الحروب الدولية الا ما كان منها بينهم وبين البيزنطيين جيرانهم ، قد حفلت بحروب داخلية لا تحصى قامت بها العناصر الاعجمية المجاهدة في سبيل استقلالها .

وعدا هذا ، فان استئثار مماليك الخلفاء ، وبعض امراء الترك والديلم ، بالسلطة في بغداد ، واستمرار التنازع بين هؤلاء المتغلبين ، كل ذلك أفضى الى إثارة اطماع العناصر الاسلامية البعيدة ، فاذا بها تتقدم وتتقاسم البلاد ، واذا بسلطة الخلفاء تتقلص حتى تقتصر على السواد بين دجلة والفرات ، ثم تزداد تقلصاً حتى تصبح في القرن

العاشر الميلادي اسمية لا تتعدى حدود بغداد .

وقد خسر بنو العباس ،من جراء ذلك،مقامهم العالمي ايضاً، فأصبحت القاهرة ابان حكمهم ،قاعدة الاسلام ، بدلا من بغداد . وصارت الاندلس منارة العرب في جميع الاقطار .

ولكنه على الرغم من سيطرة الأعاجم على معظم شؤون الدولة فانهم لم يجرؤا على انتزاع الخلافة من اصحابها العرب. وهذا هو السلطان ملكشاه السلجوقي ، الذي كان رئيس شحنته يحكم بغداد ، فانه لم يجرؤ ان يتعرض للخلافة ، كما ان السلطان صلاح الدين الايوبي ، الذي اضحى رجل الاسلام بعد انتصاراته على الصليبيين ، فانه عندما قضى على الفاطميين بادر الى تحوير الخطبة للعباسيين ، ولم يجرؤ على تحويرها لنفسه .

وقد جعلنا الكلام على العباسيين فيما يلي مقسماً وفقاً لطابع الادوار السياسية التي رافقت خلافتهم .

. . . . .

١ ــ **عصر العباسيين الفارسي** : قامت الدعوة للعباسيين في ربوع فارس. وبفضل هذه الربوع واهلها بلغ العباسيون امنيتهم في الخلافة . فكان من الطبيعي ان تصبح الدولة ذات طابع فارسي . وقد تميزت الدولة في اول عهدها بالعنف . والعنف مطلوب لمعالجة الفوضى التي تقع عادة عند انتقال الملك من أمة لأمة ، او من اسرة لأسرة . ولهذا لقب ابو العباس اول الخلفاء العباسيين بالسفاح (٧٥٠ م) لما اشتهر به من الشدة .

وكان خلفه ابوجعفر المنصور (٧٥٤ م) عظيماً بكل معنى الكلمة : فقد استطاع تطهير الامبراطورية من الخوارج، واعادة ما كان احتله قسطنطين امبراطور بيزنطة ايام سلفه بالقوة . وانشأ اسطولاً عظيما في خليج فارس رأيناه فيما بعد يرتاد البحار، حتى يبلغ كانتون بالصين .

ولعل المنصور كان معذوراً في اقدامه على قتل ابي مسلم الخراساني صاحب الفضل في انتقال الخلافة الى العباسيين . ومهما يكن من امر فانه قد حفظ للفرس جميلهم ، وقرب منهم كثيرا ، غير ابي مسلم ، من رجالاتهم .

واقتفى ابنه المهدي(٧٨٦ م)اثره حتى ان جيوشه بلغت، في احدى حملاتها على الروم ،خليج قسطنطينية . ثم لم يكن ارتدادها عنه إلا بعد ان فرضت على بيزنطة

جعلا سنوياً .

أما خلافة الهادي (٧٨٦ م) فقد كانت قصيرة الاجل ، ولم يؤثر عنه فيها شيء يذكر . بل انه افسح المجال لهارون الرشيد (٧٨٧ م) لان يبلغ ذروة الشهرة . والواقع ان الاحداث السياسية كانت، مع ذلك، قليلة في عهد الرشيد، واهمها انتصاره على نيسوفوروس، Nicéphore امبراطور بيزنطة، واجباره اياه على الاستمرار في تأدية الجعل الذي تعهدت به من قبله الملكة ايرني Yréne . أما شهرة هارون الرشيد فهي قائمة على تعزيز الحضارة . هذا وقد اوجس الرشيد خيفة من مغبة استفحال شأن وزرائه البرامكة ففتك بهم ، وكانت نكبـــة على الفرس آذنت بسقوط نفوذهم في دولة العباسيين ، ثم كانت القاضية عليهم في عهد ابنه المعتصم .

وكان عهد المأمون ، ففتح اسطوله جزيرة صقلية ، ومرفأ بالرما في ايطاليا . وفي عهده انتهى العصر العباسي الفارسي ؛ ونعم العباسيون بالعز، وبالاستقرار السياسي .

. . . . .

٢ ــ **عصر العباسيين التركي** : عطف المعتصم (٨٣٤ م) على قوم أمه الترك بعد ان ارتاب من موقف الفرس منه ، فطفق يقربهم منه ، ويجندهم ويرغّب زعماءهم، القابعين بتركستان، في القدوم إلى بغداد . وخصهم بالقيادة والحجابة . ثم زادهم ابناه، الواثق والمتوكل، تقريباً جعلهم يطمعون بالوزارة، وكانت ما تزال في ذلك العهد موزعة بين العرب والفرس . وسرعان ما استأثروا بها دونهما بالقوة . غير ان الترك لم يكن لهم، مثل ما كان للفرس ، من خبرة ومرونة في ادارة الملك . فما ان استأثروا بزمام الدولة حتى أمست هذه فريسة الاهواء والاطماع . وقامت بينهم الفتن والمنازعات على المناصب ، وكان الخلفاء انفسهم اولى ضحاياها . وقد شجعت هذه الفوضى بعض العناصر الاخرى على اعلان استقلالها حتى انه لم يبق للعباسيين غير السواد بين الفرات ودجلة . ولما جاء المقتفي (٩٤٠ م) حاول انقاذ الأمة من هؤلاء الاجناد الطاغين : فعمد الى تقليد ناصر الدولة الحمداني، صاحب الموصل منصب امارة الامراء في بغداد، وكان عربياً، ولكن الترك استعادوا منه هذا المنصب بالقوة، وذلك بعد ان خلعوا الخليفة وسملوا عينيه .

. . . . .

٣ ــ **عصر العباسيين الديلمي** : ما زالت الفوضى التي احاقت ببغداد تتفاقم حتى افسحت المجال لدولة آل بويه، من الديلم، بالتقدم من جهة طبرستان ، وتمكن

احد ملوكها معز الدولة من فتح بغداد والاستئثار ، دون الترك ، بامارة الامراء فيها . على ان الديلم لم يكونوا خيراً من الترك في الادارة والسياسة ؛ فاستمرت الفوضى ، وظلوا يستبدون بالخلفاء ، ويمثلون بهم دون ان يتركوا لاحدهم من الامر شيئاً . وكان من جراء ذلك ان تقلص ظل العباسيين ، من جديد ، في عهد الخليفة القادر (٩٢٢ م) ، ولم يبق لهم تحت سلطتهم غير مدينة بغداد .

. . . . .

٤ ــ **عصر العباسيين السلجوقي** : ضاق القائم (١٠٣١ م) ذرعاً من جراء طغيان آل بويه ، فكتب إلى طغرل بك امير السلجوقيين ، وفاتح خراسان ، يستنجده ، فخف هذا الى بغداد واستخلص لنفسه بالقوة منصب امارة الامراء فيها . وهكذا استطاع الترك ان يستعيدوا ، بواسطة السلجوقيين ، السلطة على الخلافة العباسية . وراحوا بعد ذلك يجمعون شتات العالم الاسلامي تحت لوائهم ، تاركين للخلفاء في بغداد استقلالاً موضعياً . وامتدت امبراطوريتهم في عهد ملكشاه من تركستان الى البوسفور . ولكن السلجوقيين لم يلبثوا طويلاً حتى دب الشقاق بينهم والانقسام ، فذهب بأسهم بينهم ، كما اطمع ذلك التنابذ أهل الغرب والشرق في البلاد الاسلامية : فاذا بالصليبيين ينقضون عليها من الغرب ، وإذا بالترك والمغول ينقضون عليها من الشرق .

وقد حاول خليفتان المسترشد (١١١٩ م) والراشد (١١٣٥ م) استعادة استقلال العباسيين منهم ، ففشلا وقتلا ؛ غير ان موت السلطان مسعود السلجوقي اتاح لقوادهم واتابكتهم ان يستقل كل منهم بما كان يتولى عليه .

. . . . .

٥ ــ **عصر انتصار العباسيين** : لما استقل عمال السلجوقيين في ولاياتهم كانت الجزيرة في سورية من نصيب آل زنكي . وهنا لعب السلطان صلاح الدين الايوبي دوره الكبير في اجلاء الصليبيين عن سورية فمصر ، وصار له حكم وادي النيل وبلاد الشام والعراق . وقد تمتع الخلفاء العباسيون في عهد آل زنكي ، وعهد فرعهم الايوبي ، بالاستقلال والاحترام .

على ان الخلاف الذي وقع بين الايوبيين انفسهم بعد صلاح الدين قد نشط الصليبيين لاعادة الكرة على الشرق الادنى ، كما شجع المغول على الانقضاض عليه

بعد موت جنكيز خان ، وخاصة بعد فوزهم على دولة الخوارزميين التي كانت تحول بينهم وبين ديار العباسيين. وقد اتخذ هجوم المغول شكل المد والجزر إلى أن اعتزموا السير إلى الامام تحت امرة هولاكو. ولما دخلوا بغداد اعدموا الخليفة المستعصم واهله ورجاله ، وفتكوا بمعظم السكان فتكاً ذريعاً . ثم اندفعوا نحو بلاد الشام ، ولم يوفروها من التقتيل والتخريب . فكان القضاء المبرم على خلافة العباسيين في بغداد.

. . . . .

٦ ـ **العباسيون في مصر** : كان احمد ابو القاسم العباسي غائباً عن بغداد عندما دخلها هولاكو، فولى وجهه شطر مصر . وهناك بايعه الظاهر بيبرس احد المماليك البحرية بالخلافة ، وبذلك انتقلت الخلافة العباسية الى مصر حيث توالى عليها خمسة عشر خليفة، ظلوا يحكمون ٢٥٧ سنة (٦٥٩–٩٢٣ ﻫ =١٢٦٠ - ١٥١٧ م). ولكن نفوذهم لم يكن يتعدى النفوذ الروحي .

ولما دخل السلطان سليم الثاني العثماني الشام ومصر فاتحاً سنة (١٥١٧ م) كان اول عمل باشره هو خلع الخليفة واخذه اسيراً. ومن ثم استبد العثمانيون بالخلافة دون العرب ، وكانوا اول من جرؤ على توليها من الاعاجم .

. . . . .

سيرة العباسيين الثقافية : يغلب على عواهل الدول في عهد التأسيس ان يترنحوا بالآمال الباسمة، ويتزودوا بالنشاط الملتهب . ويقدّر لهؤلاء المؤسسين ان يوجهوا نشاطهم إلى حيث تمس الحاجة أكثر فأكثر . ومن هنا رأينا العباسيين ، وهم الذين خلفوا الامويين على ملك مترامي الاطراف لا مطمع لأحد بعده ، يركنون الى السكون والطمأنينة مدة قرن ونيف فاتجهوا شطر العلم والعمران . وأظهروا في سبيل الثقافة نشاطاً لا يقل عن نشاط الامويين في سبيل الفتح والاستعمار . ولعل من أهم مظاهر الثقافة التي امتاز بها العباسيون الترجمة والتدوين والتأليف . ومن مفاخرهم أنهم تجاوزوا التقليد الى الاستنباط والتوليد . ويعتبر عصر المنصور ثاني خلفائهم (٧٥٤- ٧٧٥ م) الاساس الاول لهذه النهضة العلمية : فلقد بنى المنصور بغداد وجعلها المورد العذب لعلماء الامصار . ثم جاء المهدي فاقتفى سيرة ابيه . الى ان كان عهد هارون الرشيد ، وكانت تلك النهضة العظيمة التي لا يزال صداها يرن في الآذان حتى الآن . وقد قامت هذه النهضة العظيمة على الترجمة من الفارسية والهندية واليونانية للعلوم الرياضية والفلسفية ، بالاضافة للعلوم اللسانية

والدينية .

ثم جاء المأمون (٧١٤ – ٨٣٤ م) فبز أباه في خدمة العلم . وكان هو نفسه عالماً مفكراً طليق الرأي . فاجزل العطايا للعلماء ودور العلم ، وشجع الغرباء على تزويد العربية بمدخراتهم الثقافية ، لا سيما للنستوريين منهم الذين عكفوا على ترجمة المؤلفات اليونانية . وعلى رأسهم حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق ، وابن اخته حبيش الدمشقي . كما انشأ المأمون بيت الحكمة في بغداد . هذا البيت الذي اصبح فيما بعد مجتمع النساخ والكتاب والترجمة . وفي عهده وعهد ابيه الرشيد قامت مدرسة علم الفلك في بغداد بخدمات جلى .

وكان المأمون اول من اهتم بقياس درجة دائرة نصف النهار توصلا لتقرير مساحة الارض ، واستمرت هذه الحركة الثقافية قوية في عهد اخيه المعتصم ، ولم تضعف الا فيما بعد عندما تسلط الترك والديلم على الخلفاء ، فامسوا ، من بعد ، اما اسرى شهواتهم او سجناء قصورهم . وهم على الحالين في شغل شاغل عن الثقافة وشؤونها ، وعذرهم انهم لم يكن بيدهم من الامر شيء . على أن افراداً قلائل منهم قد ابدوا عطفاً خاصاً على العلم والعلماء ، نذكر منهم المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢ م) والراضي (٩٣٤ - ٩٤٠م) والقائم (١٠٣١ – ١٠٧٥ م) والظاهر (١٢٢٦ م) وآخرهم المستنصر (١٢٢٦ – ١٢٤٣ م) . وقد وصف ابن العبري مدرسته الناصرية في بغداد بقوله « لم يعمر في الدنيا مثلها » واورد ابن العبرى دليلا على شغف المستنصر بالعلم « انه كان يشرف بنفسه على سير المدرسة من بستان ملاصق » .

هذا الى ان الحركة العلمية في العهد العباسى لم تعد تتوقف على الخلفاء واهل السلطة فحسب ، بل اصبحت بقوة الاستمرار من المناعة بحيث لا تؤثر عليها الفتن ، ولا الحملات التي منى بها العالم الاسلامي فيما بعد .

ومما يلاحظ في هذا العهد انه سجل ضعفاً في ناحية الادب ، وخصوصاً في الشعر والخطابة ، وذلك لانصراف الناس الى العلوم والفنون .

. . . . .

العلم والادب والفن في العصر العباسي : امتدت هذه الحقبة خمسة قرون خضعت خلالها مظاهر التمدن لتأثير الاحداث السياسية . على أن اشد الفوارق في الاداب العربية لم تظهر ، في الواقع ، الا في صدر الدولة ، حيث كان الخلفاء يتمتعون بالسلطة ، ثم في القرون الاربعة التالية : حيث استقل الاعاجم . ولذلك فنحن نميل

الى بحث هذا الموضوع على قسمين وعلى الوجه التالي :

العصر العباسي الاول : وفيه اختلفت مظاهر الادب العربي اختلافاً بيناً رغم انه لا يمكن ايجاد فواصل زمنية على وجه التحديد بين سقوط الامويين وقيام العباسيين .إلا ان هذا الحدث السياسي نفسه قد اوجب هذا الاختلاف، فاذا بالادب يضعف ليقوى محله الميل الى العلم : هذا الى ان الادب العربي كان قد اصبح ، منذ القرن الثاني للهجرة ، أجنبي النزعة ، واصبح الادباء فيه من المستعربين .

وتطور الشعر في لفظه ومعناه وغرضه وفنه ، كما انحطت الخطابة عن مستواها السابق ، وكذلك النثر تطور ايضاً فاصبح اكثر تنميقاً ورحابة وفقاً لحاجة الدولة وحاجة التأليف، ولكنه انقلب نثراً فنياً لا سلاسة فيه.

على ان هذا العصر قد امتاز بوضع الأسس العلمية الاولى لحضارة العرب : فكانت أهم مراكز الثقافة في الشرق تقوم في البصرة والكوفة وبغداد بالعراق ، والمدينة بالحجاز ، ودمشق بسورية ، والفسطاط بمصر . وكان لواء الزعامة الفكرية معقود لبغداد .

وقد دون العلامة سديّو M . sedeillot فصولا طوالاً فيما بذله العرب من خدمة للعلوم . نكتفي منها بقوله: « عني العرب بعلم الفلك ، وتعدوه الى سائر العلوم الرياضية فاقبلوا على الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والبصر والميكانيكا. ومنذ بداية عهد المأمون عكفوا على ترجمة هندسة اليونان ، وترجموا مؤلفات ارشميد Archiméde في الكرة والاسطوانة . هذا ولا يزال علم الجبر وعلم الكيمياء يحملان اسميهما العربيين في لغات التمدن الحديث ، الى جانب اسماء كثيرة للعلوم الرياضية والطبيعية . »

ومن مشاهير علماء الرياضيات في هذا العصر البتّاني Albatégni ، وهو عند العرب بمثابة بطليموس Ptolémée عند اليونان . وكان أشهر الفلاسفة يعقوب ابن اسحاق الكندي ، وهو عربي صميم .

. . . . .

العصر العباسي الثاني : استطاع الترك ان يزيحوا الفرس عن دار الخلافة ، وان يستأثروا بالنفوذ دونهم، مما جعل هؤلاء يتطلعون الى عروش أخرى يقيمونها في ديارهم على أساس القومية.وقد نجحوا فعلاً، واصابوا ما يريدون . فانشأوا في القرن الرابع للهجرة ممالك مستقلة عن العباسيين ، واحتذوا بهم في خدمة العلم، وتقريب

اهله ،ولكنهم لم يستطيعوا ان يجعلوا الفارسية لغة العلم والتعليم والسياسة مكان لغة القرآن التي ظلت لغة الثقافة والدولة . غير ان الادب العربي لم يستطع، مع ذلك ، الاحتفاظ بمستواه العالي في الامصار التي تتغلب عليها العجمة ؛ وكان يفضله الادب في الجزيرة والشام ومصر والاندلس . إلا أن الادب قد اصطبغ، على العموم، بلون روعي فيه تنسيق اللفظ اكثر من اختيار المعنى . وطبع الشعر بطابع هو اكثر ميلاً للعلم والحكم منه للفن والموسيقى . ومن شعراء هـذا العصر الخالدين المعرّي والمتنبي وابو تمام .

اما العلم ، فرغم ان البلاد العربية احيقت ، في ذلك العهد ، بمصائب وفتن هائلة داخلية وخارجية من شأنها اخماد كل ثورة فكرية ، فان الشغف بالفن وبالعلم كان قد قوي الى حد ان نضوج الحضارة العربية لم يتم الا في الحقبة المضطربة . وحسب هذا العصر ان يكون في عداد علمائه الفارابي وابن سينا والرازي .

ولقد نوه كوستاف لوبون بما اظهره العرب من الكفاءة في هضم العلوم اليونانية، وتوليدهم حضارة خاصة اصبحوا فيها اساتذة العالم ؛ داحضاً رأي الذين يرجعون الى غيرهم بدعـة الاختبار والملاحظة ، التي هي أساس الطريقة العلمية الحديثـة المنسوبة لباكون .

وقال،ان الاجدر الاعتراف للعرب بانهم السابقون اليها مستشهداًباقوال همبولت Humboldet وسدّيو . وبيّن ايضاً كيف انهم ، بفضل اعتمادهم على الاختبار والملاحظة ، توصلوا الى اكتشافات علمية ،اثناء ثلاثة قرون ،او اربعة ،هما أوفر مما خلفه اليونان طيلة أزمان تزيد كثيراً عن هذه الحقيقـة ؛ ولكنه في الوقت نفسه أشار الى ان العرب الذين فاقوا اساتذتهم فيما يحتاج الى الاختبار والملاحظـة من الناحية العلمية قصروا عنهم ، فيما عدا ذلك ،بالفلسفة مثلا .

وأما الفن العربي فقد قام في البدء على الاسس البيزنطية ، فاستعان الامويون بمعماريّ البيزنطيين في تشييد المساجد وسائر المنشآت ، ثم اصبح للفن العربي ، بما اكتسب من موضوعات الامم الكثيرة التي دخلت في الاسلام ، مسحة خاصة تميزه عن غيره . ويعرف بها لاول نظرة ، واصبحت هذه المسحة المميزة بارزة فيه منـذ العهد العباسي . وأعظم امثلة على روعته تلك الصروح التي لا تزال قائمـة والمزدانة بانواع النقوش البديعة ذات الطابع العربي والمرتكزة على القنطرة التي تمثل حـدوة الفرس؛ وهي من مبتكراتهم .

ولقد سمت الفنون والصناعة في أيامهم ، الى أعلى المراتب ، بارشادات الفرس الذين كانوا سادة فن الزخارف والتلوين منذ القديم كما كان هذا العصر بالنسبة للموسيقى عصراً ذهبياً ، وبلغ من اهتمام العرب باصولها ان وضعوا لها وللغناء المؤلفات ؛ وضمنوها الآراء العلمية والنظرية .

الحالة الاقتصادية في عهد العباسيين : تتوقف الحالة الاقتصادية لاي شعب من الشعوب على امور كثيرة ، أهمها حالة الامن وحالة العدل . ولما كانت الامبراطورية العباسية قد مرّت بمراحل كثيرة تفاوتت فيها هاتان الحالتان فلا عجب ان وجدنا ان الحالة الاقتصادية كانت تتفاوت من وقت لآخر تبعاً لهذه الظروف المتقدمة الذكر . ولذلك اخترنا ان يكون الكلام في هذه الناحية على قسمين ، وكما يلي :

١- **عصر العباسيين الاول**: يبدو لنا أن الزمن والظروف قد تواطأت على تكوين طبيعة العباسيين تكويناً سلمياً عمرانياً . فهم لم يهملوا الفتح فحسب ، بل تهاونوا أيضاً في رد شطر كبير مما ضاع منهم ، وكانوا قد خلفوه عن الامويين : فلقد أفسحوا المجال لأن ينكفيء الامويون عن أسبانيا ، ويستقل بنو الأغلب في تونس ، ويبسطوا نفوذهم على البحر المتوسط ، قانعين بان تستمر الخطبة لهم في الغرب . غير انه من الانصاف أن نعترف بان العباسيين في صدر الدولة ، لم يلزموا هذه القناعة انصرافاً الى شهواتهم الدنيا ، بل جرياً وراء شهواتهم العمرانية التي تملكتهم واستحوذت على نفوسهم ؛ فكان لهم مما ارادوا الشيء الكثير ، وها نحن متكلمون على هذه النواحي العمرانية واحدة اثر واحدة .

(**التجارة**) بسطة في الملك جمعت مقدرات أمم مختلفة ذات محاصيل ومصنوعات متنوعة ، وثروة في المعادن ، وغزارة في الاموال تدفقت من توفر الكسب ، وبحبوحة من العيش الى جانب أمن في الطرق وتأمين لراحة القوافل ، بالاضافة الى لغة واحدة تنتشر من المحيط الاطلسي إلى الصين ، يرافقها دين يعززها وثقافة تتسامى بها وتعتز . كل ذلك كان للعباسيين ، فكان منه ومن فيض واردات الدولة على نفقاتها عوامل هامة لرواج التجارة في ذلك العهد ، رواجاً وصفه

كوستاف لوبون بقوله : « كما نجد شعبا يتساوى مع العباسيين العرب في نشاطه التجاري علينا ان ننحدر مقبلين الى العصور الاخيرة . »

هذا، وكما اقتصر العباسيون على آسية سياسياً، كذلك اقتصروا عليها في الناحية التجارية ، وتركوا لعرب الاندلس وشمالي افريقية أن يجعلوا البحر المتوسط ، وما حوله حتى القطبين، المنطقة الاقتصادية لنفوذهم.

على ان علاقات العرب التجارية مع الهند وان كانت ترجع الى ما قبل الاسلام، فقد بدأوا الاتجار مع الصين مباشرة خلال العصر العباسي . وكانت لهم معها علاقات سياسية . وعلى رواية المؤرخ الصيني فواي جانغ « فان المسلمين قد قبضوا على زمام التجارة المتبادلة مع الصين منذ أوائل القرن الثامن الى أواخر القرن الخامس عشر.م ، وكانوا يبحرون من الخليج الفارسي الى الموانيء الصينية ، وأهمها وقتئذ كانتون . » وهكذا أصبحت بغداد، في ذلك الوقت، مركز التجارة العامة، ومنها تشعبت طرق التجارة في البر ، ونقلت القوافل سلع العالم ما بين الشرق والغرب . وقد آل هذا الامر إلى اثراء الكثيرين من أهاليها ؛ بينهم بعض صيارفة اليهود ، كآل فنحاس ، وآل عمران . وكان لثغر سيراف ، على بحر فارس ، وللبصرة المقام الاول في تجارة البحر . ومنهما كانت تتفرع الخطوط البحرية ؛ وقد أثرى فيهما أناس كثيرون أثراء عظيماً الى حد أن الحكومة كانت تجبي سنوياً من أحدهم ، على رواية زيدان ، مائة الف دينار رسوماً على متاجره .

وكانت مصر سوقاً للتجارة بين الشرق والغرب ، وتليها سورية ؛ كل ذلك على أسس من التنظيم ؛ قال عنه ريسوت في كتاب « العرب والتجارة » ما يلي : « احرز العرب قصب السبق على غيرهم في مضمار التجارة ، فرقّوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين حقوق الملاحة ، واقتبسوا استعمال البوصلة من الصين ، وضبطوا التجارة باصول مسك الدفاتر ، وشرحوا الكفالة ، وأنشأوا المصارف ، ووضعوا السفاتج والبروتستو . وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ، ويعمرون المرافىء ويصلحون الفنادق والرباطات ، وكانت المدن الاسلامية أوساطاً تجارية . »

(الزراعة) يعتبر العراق من أصلح الامصار للزراعة ، ولذلك راح العباسيون يستثمرون خصبه بعد أن اتخذوه قاعدة ملكهم ، فازدهر بجهودهم حتى أصبح ما بين دجلة والفرات ، على رواية ابن قدامة، سواداً مشتبكاً غير مميز تخترق اليه الانهار

من الفرات. وكان الخلفاء ورجال الدولة في طليعة الناس اهتماماً بالفلاحة، واقتناءاً للقرى ، وتكاثرت لديهم حتى كانوا يتهادونها، أو ينعمون بها على شاعر، جائزة على قصيدة ، او مكافأة على نكتة .

وقد كانت خلاصة تقرير السير ويلكوكس، المهندس الذي انتدبته تركيا لدرس الري في العراق في عهد السلطان عبدالحميد ، انه اقترح اعادة فتح الانهار والمجاري، واقامة السدود التي كانت في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون ؛ وقال : « ان عمل الخلفاء في ري العراق شبيه باعمال الري في هذا العصر بمصر والولايات المتحـدة » . وكانت ضريبة الارض (الخراج) في العراق تبلغ ١٢٠ مليون درهم في العام. وهذا يكفي للدلالة على حالة هذا القطر الزراعية .

وقد وجه العباسيون عنايتهم ايضاً الى خراسان، لما كان لها من اليـد عليهم ، والى الحجاز، لمكانتها عند المسلمين؛ واشتهرت بعض نواحي تركستان وقتئذ بزراعتها ولا سيما بخارى .

أما مصر فكانت كثيرة العناية بزراعـــة الكتان ،وكانت عهد الامويين على، رواية زيدان ، أوفر سكاناً واراضي مفلوحة منها في العصر العباسي ، ولكنها ،مع ذلك ، استمرت على العمران عهد العباسيين ، واحتفظت بمكانتها الزراعية .

ويروي ابو صالح الارمني في تاريخه « الكنائس» ان خراج مصر بلغ في أيامهم على يد احمد بن طولون خمسة الاف الف دينار . أو ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه مصري.

وكذلك كانت سورية آهلة بالسكان ،وكانت لا تزال تتمتع بثمرة جهود الامويين الحقل الزراعي ،وخاصة في زراعة القطن. وفي الجملة فيرجع الى العباسيين الفضل في تعريف العالم بفواكهة الفرس وأزهارهم ، ولا سيما أزاهير مازندران .

(التعدين والصناعة) قال سديو « أن الدولة العباسية استخرجت الحـديد من معادنه بخراسان ، والرصاص من كرمان ، والقار والنفط والخزف ورخـــام طوريس والملح الاندراني والكبريت . فكانت ميزة العرب انهم استعانوا بهـــذه المعادن، وما اليها من المواد الخام المتوفرة في بلادهم، كما استعانوا بمحصولاتهم الزراعية من قطن وكتان وحرير وسكر وغيرها ، لاظهار براعتهم الفائقـــة في صعيد الصنائع العامة . »

وقد أشار الى ذلك كوستاف لوبون حيث قال : « تتفاوت قوة الاختراع عنـد

الشعوب على قدر ما يتمتع كل منها بامكانيات تحويل المعادن التي بين يديه الى ما يلائم حاجاته ، وبالتالي الى إنشاء فن جديد . وليس من شعب فاق العرب في هذا الامر : فقد برزت روحهم المخترعة للعيان منذ باشروا منشآتهم الاولى . »

ويبدو لنا أن معظم ما ينسب للعرب من الاكتشافات الصناعية الكبرى يرجع عهده الى أيام العباسيين : فان اتصالهم عصرئذ بالهند والصين يسّر لهم نقل بعض ، المصنوعات المجهولة الى الشرق الادنى ، ومنه الى الغرب. وتعهدوها بالصقل والتهذيب فنسبت اليهم . ولقد اقتبسوا صناعة السكر عن الهند فاحسنوا تكريره ، كما انشأوا له المعامل ، واستخرجوا منه اصنافاً جديدة . واخذوا عن الصين صنع البارود والورق والحرير ، وطبعوها جميعها بالطابع العربي . حتى ان بغداد أصبحت في ذلك العهد ، على رواية « ب سارجنت » أعظم مركز لصناعة المنتوجات في العالم الاسلامي ، كما ان دمشق والموصل والكوفة وبعض المدن الاخرى في فارس ومصر اضفت أسماءها على صناعات كثيرة لا تزال تنسب اليها في اللغات الاجنبية ؛ كالدامسكوس والموسلين والكوافي والسجاجيد وسواها .

هذا إلى أن العرب كانت لهم صنعة حسنة في الميكانيكا ؛ ولا أدل على ذلك من من الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ، وكانت موضع الدهشة والغرابة في اوروبا ؛ ومثلها آلات كثيرة مائية ، وغير مائية ؛ ادرجت في سجل اختراعاتهم ، فضلاً عن الآلات المركبة من البكر والاكر والانابيب والاحبال ، وعدا ما اخترعوه من الأدات لرفع الاثقال والجر والنقل . ولهم في معظم ذلك مؤلفات ثمينة . كما ينسب اليهم اختراع الابرة المغنطة Bonssole .

٢–عصر العباسيين الثاني: ليس أدل على حالة اقتصاديات الامم مثل ميزانيات الدول . فمن مجاميع البيانات التي وصلتنا ، والتي تتعلق بميزانيات بعض الخلفاء ، ومن مقابلة بعضها ببعضها الآخر ، نرى أن الثروة بلغت أيام الرشيد والمأمون الذروة العليا . ثم أخذت بعد ذلك تتقهقر ، على أثر استئثار الترك بالقيادة ، واستمرت على هذا النحو من التقهقر حتى اضمحلال العباسيين في آخر ايامهم .

على ان المقابلة بين دخل الدولة في عهد الرشيد والمأمون ، وبين القائمة التي عثر عليها فون كريمر الالماني المختصة بجباية الدولة في ايام المقتدر ، أي بعد مضي قرن على عهد الرشيد ، تطلعنا على ان سير الانحطاط المالي في عهد العباسيين كان بطيئاً ،

بدليل ان مجموع هذه الجباية جاوز الاربعة عشر مليوناً ونصف المليون من الدنانير ايام المقتدر ، بينما كان يبلغ عهد الازدهار عشرين مليوناً ونيفاً .

والسبب في هذا البطء يعزى لعظم نمو الثروة العامة مدة ذلك القرن ، ورواج دولاب الاعمال الاقتصادية بشكل لم يكن يسمح بتقهقر مادي سريع . وآية ذلك ان الصليبيين جاؤا إلى الشرق الادنى ايام انحطاطه ، فاعجبوا ، مع ذلك ، بالرخاء الذي يسود فيه ، وببذخ العرب وذوقهم . وقد روى هذا كرانجر E. granger وسواه ، وقالوا ان الصليبيين عاشوا عيشة العرب ، ونقلوا معهم إلى اوطانهم اساليب حياتهم .

أما الانحطاط البين في اقتصاديات العهد العباسي فقد ظهر جلياً خلال القرن الثالث عشر الميلادي على اثر استفحال شأن المغول ، وتفاقم الفتن بين الممالك الاعجمية المتغلبة على الشرق الاوسط . ففي هذه الحروب افسد اكثر ما احتفره الخلفاء من ترع وسدود وانهر ، ووقف دولاب التجارة من جراء فقدان الامن والاطمئنان .

وكيف تترقب حسن الحال أمام ملوك استحكمت عندهم الضائقة حتى اضطروا إلى جمع المال بمختلف الطرق ، وقد رُوي ان الخاقاني ، وزير الخليفة المقتدر ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، واخذ من كل واحد منهم رشوة .

الرخاء والعمران في عهد العباسيين : لا تزال قصة الف ليلة وليلة ، المتداولة في الغرب والشرق ، تترك لنا صوراً عن حياة الصفاء والبذخ التي كان يتمتع بها العالم العربي عصر بغداد ، ولا بدع ان نتخيل ، نحن الذين نسبح اليوم في عصر المادة ، تلك الحياة شعراً أو خيالاً . أما أهل ذلك العصر فان الثروة لم تكن ، بالنسبة لهم ، كالظل امامهم يركض فيركضون وراءه إلى ما لا نهاية ، بل أتيح لهم أن يقبضوا على ناصيتها ، وان يستخدموها في وجوه الحياة ونعيمها .

نقل أحد المؤلفين ان ما كان يرد إلى بيت المال ، في عهد المأمون ، يقدر بنحو ٣٦٠ مليون درهم ، ينفق منها في مصالح الدولة نحو ٦٠ مليون درهم ، ويبقى فائضاً ٣٠٠ مليون درهم : أي عشرة ملايين جنيه ذهباً تقريباً . وهو مبلغ عظيم بالنسبة لذلك العصر . وإذ توالى انفاقه على عمارة البلاد ، وتأمين راحة الناس ، أفضى ، بطبيعة الحال ، إلى ما نعهده في تلك الحقبة من رخاء وثراء .

وكان الخلفاء انفسهم على جانب عظيم من الثروة ، ومثلهم رجالات الدولة . ويا حسن طالع من تسنى له ان يخالطهم ؟: فقد قيل ان تركة المكتفي بلغت اوائل

القرن العاشر نحواً من خمسة عشر مليون دينار . وبالغوا في تقـــدير ثروة بعض الخاصة ، كآل برمك في بغداد ، وآل الماردانى بمصر .

ولا عجب فهذا طبيب هارون الرشيد جبريل بن بختيشوع قد خلف تسعين مليون درهم ، وهذا مغنية ابراهيم الموصلي قد ترك اربعة وعشرين مليون درهم .

وكانت الثروة عامة متداولة : فبلاط الرشيد غاص بالوفود ، وبيت ماله حافـل بالنقود ، والبرامكة وامثالهم ينفقون عن سعة ، فيسبح تجار بغداد في نعمة لا حدّ لها ، ولا سيما باعة الرياش والمجوهرات . ويروى أن يحي البرمكي ساوم تاجراً على سفـط من الجوهر بمبلغ سبعة ملايين درهم فلم يبعه . وهذا السفط واحد من كثير مما في حوزة التاجر . فما ترى تبلغ قيمة مجموع ما في حانوته ؟ ويقول المؤرخون انه عندما صادر الخليفة المقتـدر أملاك الجوهري في بغداد المعروف بابن الجصّاص بقي في حوزته بعد المصادرة ستة عشر مليون دينار . فكم ترى كانت ثروته قبل المصادرة ؟

على أن هذه الثروة لم تكن محصورة في مدينة الخلفـاء فحسب ؛ بل كان اليسر عاماً والرخاء شاملاً ، وخاصة في قواعد التجارة من سمرقند الى حلب فسيراف والبصرة وعمان . فأثرى الكثيرون من تجار الثغور حتى قدرت ثروة الواحـد منهم باربعة ملايين دينار .

وكان في اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة بلغ من ثروة احدهم عمرو بن عيينة انه ابتاع مصاحف وزعها مجاناً في ديار الاسلام بلغت قيمتها مليون درهم .

وهنا مجال للقول بان سفط الجوهري الذي أراد البرمكي ابتياعه بسبعة ملايين درهم لم يكن غالياً في نظري ، لأن الحورية التي سيزدان جيدها به كانت جديرة بمثل هذه التضحية ، ولأن حالة القصر الذي تسكنه ، ورياشه ، مما يتناسق مع هـــذه الجواهر . والواقع أن المنصور منذ شيد بغداد وبنى فيها المساجد والمعاهد والحصون قد أقام إلى جانبها القصور الرائعة والجنائن الفتانة . وتنافس الخلفاء بعده في زخرف الحياة وتبرجها بسائر أنواعها ، وجرى مجراهم رجال الدولة ، وأغنياء الامة في سائر الامصار ؛ فقامت المنشآت العجيبة على أساليب جديدة مختلفة في الهندسة . واشتهر المتوكل بشغفه بالعمران ، وكرمه على العمارة ، حتى قدر بعضهم نفقة ثلاثة قصور شيدها بمائة مليون درهم .

وهذه القصور كانت أصدافاً اما القيمة الحقيقية فكانت داخل هذه الاصداف : فهناك جوار حسان تحوطهن الخدم والحشم يرفلن في نعيم من الاثاث والرياش ، ولا

همّ لهن الا التنافس على الجواهر والاثواب ، والتفاضل بالتبرج والجمال .ويروى ان الرشيد قد اشترى لاحدى هذه الجواري خاتماً بمئة الف دينار .

وكان في قصر الرشيد ثلاثماية جارية ، وفي قصور المقتدر أحد عشر الف خصي ، عدا الجواري. على ان هذه الشهوة الشديدة في اقتناء الجواري والغلمان لم يكن الباعث عليها حب الجمال فحسب، بل كانت منبثقة عن التسامي الى الحياة العالية عامة، والمشفوعه بالتنافس في الادب بوجه خاص.

ولا أدل على ذلك من تفاوت قيمة الجواري بتفاوت درجتهن في الادب والفن، ولا سيا الموسيقي إذ كانت تتراوح اثمان الواحدة منهن بين الالف دينار والمائة الف دينار . ولا يتوقف ذلك على جمالها ، بل كان للفن والآداب الحظ الأكبر في قيمتها .

وأما الرياش والتحف، التي كانت تزين تلك القصور، فحدث عنها ولا حرج . ويمكننا أن نتصور فخامة الاثاث في بلاط العباسيين من الثبت –وهو نوع من دفتر خاص في الاحصاء – الذي ذكره ابن الخطيب عن السجوف والطنافس وغيرها التي شاهدها في حفلة استقبال الخليفة المقتدر لسفير بيزنطة سنة ٣٠٥ ه .

وان قوماً يعيشون هذه العيشة في البذخ والنعيم كانت تترتب عليهم نفقات تتلاءم معها في الحياة الخارجية . فكان مفروضاً عليهم الصدقات للفقراء ، ولها تقاليد ومواسم ، والعطايا للعلماء والشعراء ، ولها مخصصات ومرتبات . على ان اعطياتهم لم تكن كالعطايا ، بل كثيراً ما كانوا يهبون الضياع مكافأة على قصيدة رائعة، أو نكتة جميلة .

هذا فضلاً عن بذخ لا حدّ له في المواسم ، والاحتفالات ، والافراح . وحبذا لو يتسع المقام لذكر أمثلة مما انفقوا في هذا السبيل ، وما بذلوا في بعض حفلات الاعراس ، وتنصيب الخلفاء ، أو على استقبال السفراء الاجانب . انه شيء يكاد يكون من اساطير الاولين ، وان كان لا يخلو من حقائق كثيرة واقعية .

ومن الانصاف الاشارة اخيراً إلى أن العباسيين لم يكونوا كرماء على القصور ولذات الحياة فحسب ،بل كانوا كرماء ايضاً على المنافع العامة :فعنوا بدور العلم والمكتبات والمساجد والتكايا . واقاموا السبل والخانات وبنوا الملاجيء والمستشفيات . وكان هارون الرشيد اول من أقام مارستاناً في بغداد ، ثم تعددت من بعده ، فكان منها في ارد السلام اكثر من واحد ، فضلا عن مارستان السواد

النقال وهو بمثابة مستوصف للارياف . ذكره ابن أبي أصيبعة .

. . . . .

عصر العباسيين المظلم : من المفيد الاشارة اخيراً الى ان ما نوهنا به من الرخاء في الناحيتين المنوية والمادية ، الذي تمتع به العباسيون حكومة وشعباً ، إنما كان ينطبق تماماً على العهد الاول الذي حكم فيه العرب بمعاونة الفرس ، ولا يتجاوز مدى هذا العهد مابة عام (١٣٢ — ٢٢٦ ﻫ = ٧٥٠ — ٨٥٠ م) . وبفعل قوة الاستمرار ظل هذا الرخاء على حالة حسنة خلال العهد التركي الاول الذي يعتبر عهدا انتقال من النور إلى الظلام . وقدره مابة عام أخرى أي (٢٢٦-٣٣٩ ﻫ = ٨٥٠ - ٩٥٠ م) . ولكن الرخاء انقلب فيما بعد إلى عسر منذ استولى الأعاجم على الحكم ، وضيقوا على الخلفاء ، وباتوا يرفعون منهم من يشاؤون ، ويمثلون بمن يشاؤون .

انقلب ذلك اليسر إلى عسر ، كما انقلب ذلك العمران إلى خراب ، من جراء تنازع هؤلاء المتغلبين على الرياسات العليا في الامبراطورية العباسية . فلقد تقاتل الترك عليها ، واشتبك معهم آل بويه من الديلم بحروب دامية عندما صارت السلطة اليهم .

بلى ان العالم الاسلامي تنفس الصعداء عندما انتهى التنازع بتغلب السلجوقيين ، ولكن هذا الاستقرار كان قصير الامد : فما ان قضى السلطان ملكشاه السلجوقي نحبه حتى تفاقم الشقاق بين اسرته ، وكانت فتناً تشيب له بهولها الولدان رافقتها المظالم ، من مصادرة الثروات ، وفقدان الامن ، وانقطاع السبل بين الامصار ، فضلاً عن انسداد الترع ، وسقوط الجسور ، وانطلاق الانهر . وقد توالى ، من جراء ذلك ، القحط والغلاء والوباء .

قال ابن العبري بمناسبة الحروب بين خلفاء ملكشاه السلجوقي في فارس وخراسان وجرجان : « خرب العسكر البلاد ، وعمّ الغلاء تلك الاصقاع ، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً بعد فراغهم من أكل الميتة والكلاب » .

وكان ذلك كله مما جرأ أهل المغرب والمشرق على اقتحام العالم الاسلامي في الشرق الاوسط . فانقض عليه الصليبيون والبيزنطيون من اوروبا ، ووثب عليه بدو الترك والمغول من جانب الصين ، فضلاً عن اللاز والكرج والقفقاس من الشمال . وقد امعنوا في بلاده فتكاً وتخريباً . كما فصلنا ذلك في كتابنا (فلسفة التاريخ العثماني) في معرض الكلام على المساعدات التي فتحت لآل عثمان باب النصر على مصراعيه . وقد أفضت هذه المصائب كلها إلى تبدل ! الارض غير الارض

خلال الاربعة قرون الاخيرة في حياة العباسيين .

على ان الناحية الثقافية في تلك الحقبة كانت أشد مناعة وقوة من النواحي الاقتصادية والعمرانية ، وقد ظلت الحضارة العربية في الشرق الاوسط تؤتي أكلها ناضجة ، ولعل مرد ذلك إلى ما تمتعت به من تنشيط وتشجيع من قبل بعض عواهل الدول الاعجمية المتغلبة : ذلك انهم حرصوا على تقليد خلفاء العرب في العناية بالعلم والادب ، وبأهلها بما عوض على الثقافة العربية بعض ما خسرته في الحروب . غير ان هذه العوامل كانت اصطناعية ، لا تعتمد على أساس ، كما كان مصير هذه الدول إلى الزوال السريع؛ فلم تلبث الثقافة ان تدهورت ، خصوصاً وان تلك الفتن لم تصرف العرب والمسلمين عن العلم فحسب ، بل نكبتهم ببيوت العلم ، واوقافها العظيمة ، وحرمتهم من مكتبات كثيرة تلفت ، وكانت ذخراً لهم في نهضتهم العلمية الجبارة .

الامارات العربية في عهد العباسيين

قامت الدعوة للعباسيين في فارس ، وتمّ لها الفوز على أيدي الفرس ، فلا عجب ان صار لهؤلاء من النفوذ، ما صار، في صدر الدولة . على ان العرب ، وهم أولو الامر وحماة الامبراطورية ، قد احتفظوا بشيء كثير من مكانتهم . فكان تكافوء القوى بينهم وبين الفرس في صدر الدولة، مثيراً للتنافس . وإذا بالترك يبرزون ويضعون حداً لهذا التنافس إذ يبسطون يدهم على كل سلطة في بغداد ، ويحولون العرب والفرس عنها إلى البحث عن المجد في وسط آخر . وكان العرب اول من وجدوا ضالتهم هذه بعد انفصالهم عن العباسيين ، فقامت دول كثيرة منهم خلال العهد العباسي ؛ أشهرها الاموية بالاندلس ، والادريسية بمراكش ، والاغلبية بتونس ، والفاطمية بمصر وسورية. وقد قطعت هذه الدول صلتها ببغداد ، كما ظهرت ايضاً أمارات عربية أخرى في احضان الامبراطورية العباسية ، استقلت اسوة بالدويلات الأعجمية ؛ واشهرها الحمدانية بحلب والموصل ، والمزيدية بالحلة (٤٠٣ – ٥٤٥ هـ = ١٠١٢ – ١١٥٠ م) ، والعقيلية بالموصل (٣٨٦ – ٤٨٩ هـ = ٩٩٦ – ١٠٩٧ م) والمرداسية بحلب (٤١٤ – ٤٧٢ هـ = ١٠٢٣ – ١٠٧٩ م) ؛ فضلا عن امارات كثيرة غيرها ظهرت في بلاد اليمن . وعدا ذلك فقد قامت امارتان اخريتان في مصرين أعجميين : الدلفية بكردستان (٢١٠ – ٢٨٥ هـ = ٨٢٥ – ٨٩٨ م) . والعلوية بطبرستان (٢٥٠ – ٣١٦ هـ = ٨٦٤ – ٩٢٨ م). وسيأتي الكلام على الدول العربية المشار اليها فيما بعد . أما الامارات فلا يتسع

المقام للتعرض اليها جميعها ، وانما نكتفي منها بالكلام على إمارة بني حمدان نظراً لما كان لها من المشاركة في تأييد حضارة العرب وتعزيزها .

. . . . .

امارة بني حمدان : (٢٩٣ – ٤٦٠ هـ = ٩٠٥ – ١٠٦٧ م) . كان حمدان ، جدّ هذه الأسرة ، صاحب قلعة ماردين اثناء خلافة المعتضد . وهو عربي من قبيلة تغلب ؛ وكانت له وقائع مع الخليفة انتهت بأسره ، ثم أطلق الخليفة سراحه ، وأمر بالتوسيع عليه وعلى أولاده . ولما صارت الخلافة للمكتفي ولى عبدالله بن حمدان على الموصل . فكان ذلك بدء دولة بني حمدان . وتتلخص سيرتها بانها كانت إمارة تنتقض أحياناً على بغداد ، ثم تعود فتدافع عن الخليفة ، فينال رجالاتها المكافآت والمناصب . وقد تقلد بعضهم أعمال خراسان وقاشان وغيرها ، ووسد المتقي لاحدهم ناصر الدولة امرة الامراء في بغداد (٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) ، وخلع على أخيه أبي الحسن علي ، صاحب الموصل ، لقب سيف الدولة . ولما صارت الغلبة للترك استعادوا منصب إمارة بغداد بالقوة ، فهرب ناصر الدولة إلى الموصل . أما أخوه سيف الدولة فقد استطاع ان يحتفظ بالامارة على الموصل ، وأضاف اليها بلاد الشام . وكانت له ، من جراء ذلك ، وقائع مع البيزنطيين زادت في شهرته .

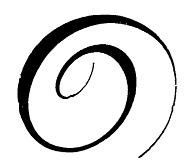
ولكن دولة بني حمدان كانت قصيرة الاجل فانقرضت بتغلب لؤلؤ غلام سيف الدولة على الامير أبي الفضائل الحمداني .

. . . . .

قسط الامارات العربية بالثقافة : كانت عواصم الدول وما تزال التربة الخصبة للثقافة . ذلك ان الثقافة كالزرع تحتاج لمتعهد ، وهي الحكومة ، وللري وهو المال . وكانت العواصم وما تزال البيئة الطيبة لبروز الموهوبين ، والوسط الرحب لقيام معاهد العلم والمؤسسات النافعة ، ومحط رحال العلماء والادباء ، حتى إذا آثر أحدهم البقاء بعيداً عن دائرة الخلافة كان ذلك مدعاة لخمول ذكره . ومن هذا القبيل أبو تمام والبحتري ، فانهما لم يبلغا ما بلغاه من ذيوع الصيت إلا بعد ان هجرا موطنهما إلى رحاب الخلفاء . وهذا حال لا يزال ملحوظاً حتى هذا العصر .

ولما ضعفت حكومة بغداد ، ونشأت بالشام ومصر والاندلس وغيرها دول وإمارات مستقلة ، قاسمت هذه الدول والامارات بغداد فضل العناية بالثقافة ، ورحبت بالوافدين اليها من الموهوبين ممن لم تتسع لهم بيئاتهم وأوطانهم . وكان بنو حمدان

في طليعة الامارات العربية اهتماماً بالادب، وأهله، وبالعلم وخدمته، ولاسيما أشهرهم الامير سيف الدولة : فقد اجتمع في عاصمته حلب من الفلاسفة واللغويين والادباء جمهرة لم تجتمع لخليفة العصر ؛ وبلغ الشعر العربي في كنفه مرتبة تعد أسمى ما وصل اليه من مراتب: متانة في اللفظ، ورقة وسمواً في المعنى، ودقة إلى جانب إتقان في الوصف، وفلسفة جرت على ألسنة بعض الشعراء. وحسب سيف الدولة ان يكون ابن عمه أبو فراس والمتنبي والنامي والببغاء من شعرائه، وحسبه ان يكون أبو العــلاء المعري من رعيته.



الفصل السادس

عصر افريقيا

العرب في مصر

ظلت مصر ، خلال تنازع الشرق والغرب ، موطىء سنابك الفاتحين : فقد خلف فيها اسكندر الكبير الفرس ، ثم استأثر بها البطالسة ، إلى أن دخلت في حوزة الرومان . وقدر لمصر ان تخضع لهذه الدول الفاتحة ، ولكنها استطاعت، مع ذلك، رغم استفحال نفوذ حضارتي أثينا وروما ، عسكرياً ومدنياً، أن تحتفظ بطابعها المصري الفرعوني . بيد أن مصر ذات المناعة ، من قبل ، لم تخضع للعرب سياسياً فحسب، ولكنها ترامت في احضان مدنيتهم ، وأصبحت سيفاً من سيوفهم . وكما امتزجت مدنيتا فارس والهند بحضارة العرب فان مدنية مصر قد ذابت بدورها في هذه الحضارة ، ولم يظهر لها من بعد أثر . وسبب ذلك ان الرومان كانوا قد تعمدوا محق المدنية المصرية قصد تسهيل انتشار المسيحية، فهدموا هياكل المصريين ومعابدهم، واحرقوا مكتبة الاسكندرية، فعملوا بذلك ، دون قصد ، على تسهيل مهمة العرب عندما خلفوهم على مصر، وعلى ان يقطفوا ثمار ما غرس امبراطرة روما. على أن القلوب التي رحبت بالعرب سياسياً ،قد رحبت بهم ايضاً اجتماعياً، وانصهرت دون تردد ،في بوتقة العروبة والاسلام .

لقد تغلبت النصرانية على الاقباط، ولكن هؤلاء اختاروا، مع ذلك ، مذهباً منها غير المذهب الذي تدين به الدولة الرومانية . فكان تنازع بينهما ، بسبب اختلاف المذاهب ، رافقه عنف ادى الى دخول العرب فاتحين ، من دون عناء ، الى وادي النيل سنة ٦٤٠ م . وأضحت مصر في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم في عهد الامويين فالعباسيين ، ولاية عاصمتها الفسطاط . هذا وكانت مصر وقتئذ ذات شأن ثانوي بالنسبة الى الاقطار ذات العروش . ولكن الفسطاط تمتعت، خلال حكم العباسيين بشيء من الاستقلال السياسي ؛ وذلك في زمن آل طولون (٢٥٧ – ٢٩٢ هـ =

٨٧٠ –٩٠٥م) وعهد الاخشيديين (٣٢٣ – ٣٥٨ ه = ٩٣٤ – ٩٦٨ م) رافقه كثير من الازدهار ؛ ثم لما استظهرت الدولة الفاطمية على مصر اتيح للقاهرة ان تنافس بغداد في الزعامة والعمران.

مصر عهد الخلفاء العباسيين : كانت الشام عهد الامويين ، ومثلها العراق عهد العباسيين ، محور حضارة العرب في الشرق ؛ فتعالت فيهما اعظم المعاهد والمدارس والمساجد ، وسائر مؤسسات المنافع العامة .وشد اليهما الرحال علماء العالم وادباؤه. أما مصر فكان شأنها شأن الولايات ، وتأتي في المرتبة الثانية . وكانت عندئذ قد شرعت تنحط حتى في المستوى الزراعي، وقلّ خراجها من جراء ضعف اقتصادياتها . لقد كانت مصر محتفظة بمستواها الزراعي عهد عمر بن الخطاب بفضل ما بذله عامله عليها عمرو بن العاص من العناية في الشؤون الاقتصادية معتمداً في ذلك ،على المقوقس حاكمها الاول من قبل البيزنطيين . وبلغ خراجها عن الاراضي والجزية في عهده نحو ثمانية ملايين جنيه .ثم انحط الخراج في مصر تبعاً لانحطاطها السياسي حتى لم يعد ينيف عن مليوني جنيه ونصف عند حكم هارون الرشيد ،وذلك رغم ان عهد هذا الخليفة يعد من خير ازمان العرب .ولما اتيح لمصر من بعد ان تستقل سياسياً في كنف الدولة العباسية، خلال مدتين قصيرتين ، تولى الحكم فيهما آل طولون ، فالاخشيديون ، اتاح لها هذا الاستقلال ان تتمتع بمثل ما كان يتمتع به العراق وقتئذ في الناحية الاقتصادية، وان تحظى بشيء كثير من العمران .

ويخال اليّ انه كان من أسباب انحطاط الزراعة في وادي النيل ،خلال حكم العباسيين،انصراف الناس وقتئذ إلى استخدام رساميلهم،على وجه عام ،في الاسواق التجارية ، وذلك لما صار للتجارة من الشأن العظيم خلال هذه الحقبة ، وقد درت بالفعل على المصريين ثروات طائلة .

وقد عقد المقريزي فصلاً خاصاً ،فيما كانت عليه الفسطاط،عاصمة مصر،من الثروة قبل الفاطميين، يكاد يشبه الخرافات . من ذلك انه روي عن محمد بن علي الواردائي انه قال : « بعث الي ابو الجيش خمارويه (من آل طولون) أن اشتري له أردية واقنعة للجواري ، وعمل دعوة خلا فيها بنفسه وبهم؛ وغدوت متعرفاً لخبره ، فقيل لي انه لما هو فيه فنثر دنانير على الجواري والغلمان ،وتقدم اليهم ان ما سقط من ذلك في البركة فهو لمحمد بن علي كاتبي. فلما حضرت ،وبلغني ذلك أمرت الغلمان فنزلوا

في البركة، فاصعدوا اليّ منها سبعين الف دينار . فما بالك بمال نثر على اناس ،فتطاير منه الى بركة ماء هذا المبلغ ؟ »

وترك بنو طولون في مصر من الآثار ما لا يزال بعضه قائماً ، وهو شاهد على أن ذلك العمران الذى أشاد به المؤرخون كان حقيقة،وما هو بالأساطير. وفي جملة ذلك جامعهم الشهير . ولكن اخبارهم تضاءلت ازاء ما تمتعت به ديار مصر من الثروة والبذخ عهد الفاطميين .

الدولة الفاطمية

٢٩٧ ـ٥٦٧ هـ ـ ٩٠٩ ـ ١١٧١ م

ظهرت الدولة الفاطمية Les Fatimides في تونس ، وهي علوية شيعية ترجع بنسبها الى السيدة فاطمة ابنة الرسول . وتعرف ايضاً بالعبيدية نسبة لعبيد الله اول خلفائها . وبلغ عدد عواهلها اربعة عشر خليفة ، حكم ثلاثة منهم في المهدية بتونس ، والباقون بالقاهرة.وقد درج الفاطميون في مصر على سنة العباسيين، من حيث اهمال شمال افريقيا ، مما أفضى إلى دخول تلك البلاد في حوزة امويي الاندلس .

. . . . .

سيرة الفاطميين السياسية: كان العلويون المطالبون بالخلافة اكثر من حزب واحد : فمنهم سلالة علي من زوجه فاطمة الزهراء ابنة النبيّ ، ومنهم سلالة علي من زوجة أخرى . وقد طاردهم العباسيون جميعاً فنفر اكثرهم إلى شمال افريقيا . وقد تسنى لهم ان يقيموا فيها دولتين ذاتي شأن في التاريخ :دولة الادارسة، والدولة الفاطمية التي نحن الآن في صددها .

ومن المفيد الاشارة هنا الى أن البربر كانوا ، كالفرس في الاسلام ، يعطفون على آل البيت ، ويتشيعون لهم . فلما أخذ ابو عبدالله الشيعي على عاتقه الدعوة للفاطميين في تونس لبّت قبائل بربرية دعوته، فخف الامام ابو محمد عبيد الله للرحيل اليهم ، وكان مختبئاً بالسلمية في الشام . وقد أظهر دعوته ، ولقب بالمهدي ، وابتنى المهدية ، وجعلها عاصمة دولته .

ولكن المهدي كان لا يزال كامويي الاندلس تواقاً الى الشرق الادنى ؛ ولما كانت مصر تعتبر المفازة اليه حمل عليها مرتين ؛ ثم ورث خلفاؤه هذه الامنية ، فوالوا الحملات على مصر، يطمعهم فيها ما صارت اليه خلافة العباسيين في بغداد من

الفوضى . ولكنهم لم ينالوا منها مأرباً .

ولما صارت خلافة الفاطميين للمعز بن المنصور (٣٤١ هـ = ٩٥٢ م) عني العناية كلها بالقوة البحرية وبالاسطول ، وتسنى له بسط سلطانه على المغرب الاقصى ، كما اتيح له بسط نفوذه على البحر المتوسط ، والاستيلاء على كثير من جزره : وفي جملتها مالطة وسردانية وصقلية . فانقض على وادي النيل انقضاض المطمئن ، ولكنه مع ذلك لم يفز منه بطائل . حتى إذا استحكم الخلاف بين الاسرة الاخشيدية الحاكمة تيسر لقائده جوهر ، احتلال الفسطاط ، عاصمة مصر وقتئذ ، فدان له على اثر ذلك وادي النيل ، ثم لحقت به سورية .

ولما بنى هذا القائد القاهرة بعث إلى مولاه المعز يستقدمه اليها ، فهبطها الخليفة (٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م) . وقد ظهر الفاطميون ، منذ ذلك ، بمظهر جديد ، إذ نافسوا خلفاء بغداد وقرطبة ، ليس في الخلافة فحسب ، بل في العمران ايضاً ، وفي محاولة الزعامة على العرب ؛ لا سيما بعد ان بسطوا حكمهم على الحجاز عهد العزيز بن المعز . وقد بايع بعض اهل العراق والموصل الفاطميين تخلصاً من استئثار الترك في العهد العباسي . ولولا تدخل آل سلجوق ، سلاطين آسية الوسطى ، وتغلبهم على بغداد ، لأفضت الخلافة وقتئذ إلى الفاطميين . ذلك أن أرسلان البساسيري ، متولي القيادة في بغداد ، كان قد رفع العلم الفاطمي ، وحمل الخليفة القائم بامر الله على التوقيع بان الحق في الخلافة هو للفاطميين ؛ فجاء السلطان طغرل بك السلجوقي ، بطلب الخليفة ، إلى بغداد ، وقطع الخطابة عن الفاطميين ، وأعادها للعباسيين . وفي هذه الرواية التي مثلت كانت الطائفية تلعب من وراء الستار . وربما كان البساسيري شيعياً على مذهب الفاطميين ، كما كان السلجوقي سنياً على مذهب العباسيين .

هذا وان الخليفة العزيز بن المعز (٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) كان في دولة الفاطميين مثل المعتصم في العباسيين : من حيث تقريب الترك ؛ ومثلما أفضى عمل الخليفة العباسي الى تغلبهم على الدولة وسقوطها ، كذلك أدى اعتماد هذا الخليفة الفاطمي على هؤلا الترك إلى استئثارهم بالسلطة ، وإثارة الخصومات فيما بينهم وبين العناصر الاخرى ، مما أودى ، آخر الامر ، بحياة المملكة الفاطمية .

على أن الداء لم تظهر عوارضه في أيام هذا الخليفة ، ولا في أيام ابنه الحاكم (٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) بل كان عهدهما عهد استقرار وازدهار ، وكذا عهد الظاهر (٤١١ هـ = ١٠٢١م) . ولكن التنازع على السلطة بين العناصر الاجنبية انتهى في أيام

المستنصر (٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م) بغلبة الترك على البربر والديلم. فاستبد هؤلاء بالحكم استبداد اخوانهم في بغداد مما أدى إلى ضياع دولة الفاطميين. هذا وكان بدر الجمالي عامل المستنصر على سورية ، وهو أرمني الاصل ، قد استقل فيها ، فاستدعاه المستنصر إلى القاهرة تخلصاً من هؤلاء المتغلبين ، وولاه الوزارة ، ثم خلفه عليها ابنه الافضل عهد المستعلي ابن المستنصر (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) فحالت وزارتاهما دون انهيار الدولة مدة من الزمن . ولكن الحظ لم يخدم الفاطميين إلى النهاية ؛ بل داهمتهم الحملات الصليبية من بعد ، خلال وقت تعاقب فيه على عرشهم خمسة خلفاء كانوا قاصرين أما في السن أو في الكفاءة . فآل الامر إلى خسرانهم العرش والمملكة معاً : فالآمر بن المستعلي (٤٩٥ هـ = ١١٠١ م) انغمس في الملاهي ، والحافظ (٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م) قنع بان يكون له التوقيع فحسب ، والظافر (٥٤٤هـ=١١٤٩ م) شغلته الحسان وقضى نحبه في سبيلهن . والفائز (٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م) ولي طفلاً . وكأن كبير الوزراء استساغ خلافة الاطفال فاختار بعده العاضد على غيره ، وهو لم يبلغ الرشد (٥٥٦ هـ = ١١٦٠ م) . ثم ان هذا الوزير لم يقنع بلقب ملك ، فأسمى نفسه السلطان الصالح ؛ وجرى مجراه الوزراء من بعده في الاستئثار بالسلطة دون الخلفاء ، وفي الجرأة على تسمية انفسهم ملوكاً ، يستخدمون القوة لادراك المناصب ، حتى آل الامر الى خروج الدولة من يد الفاطميين ، ومن ايدي هؤلاء المستأثرين ايضاً : وقد وقع ذلك حينما استنجد الوزير شادر بنور الدين زنكي ملك الموصل على خصم له ، فانجده واعاده للوزارة ؛ ولكن السلطة ظلت ، من بعد ، في قبضة قائد حملة ملك الموصل ، وهو اسد الدين شركوبه ، ثم انتقلت بعد موته الى حيازة ابن اخيه صلاح الدين ، الشهير بالايوبي . وكانت باكورة اعمال هذا السلطان تحويل الخطبة الى المستضيء العباسي في بغداد ؛ ثم الحجز على العاضد آخر خلفاء الفاطميين . وبموته ، بعد ايام ، كان بدء تاريخ الدولة الايوبية (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) .

سيرة الفاطميين الثقافية : نشأت الدولة الفاطمية بتونس خلال عصر الاندلس الذهبي ، على مرأى من مآتي الخليفة عبد الرحمن الثالث بقرطبة ؛ فعاصرت بذلك زمن بلوغ العرب حدّ الشغف بالثقافة ، حتى ان عواهلهم اصبحوا يتنافسون في خدمتها اكتساباً للثقة العامة . وكان طبيعياً ان يتأثر الفاطميون المؤسسون في تونس بالروح العربية العامة ، وان يتحفزوا للاقتداء بعواهلها المعاصرين والسالفين ، خصوصاً

وان الاندية والمحافل كانت لا تزال تردد اخبار المأمون ، وعنايته بالعلوم والفنون ، قبل نحو جيل من ذلك . هـذا فضلا عن ان اوساط تونس كانت لا تزال تحتفظ بشيء كثير من الازدهار . اشار الى ذلك السيد بلكران Pellegrin الفرنسي حيث قال : « يظهر ان الحياة الادبية التي كانت مزدهرة ايام بني الاغلب ، في القيروان وتونس ،ظلت على مستواها من بعد خلال حكم الفاطميين في تلك البلاد . »

هذا ولما انتقل الفاطميون الى وادي النيل،وهو ارحب مجالا لجهودهم العمرانية ، ازدادوا عناية بالثقافة والعمران ، وعمدوا الى تشييد المساجد ، واقامة المدارس والمكتبات. بدأ بذلك القائد جوهر، فاتح مصر، وباني القاهرة، فعمّر جامع الازهر، واقام فيه مكتبة قيمة ، ومدرسة كانت ولا تزال نبراس العلم . وقد اتخذ العزيز ، وهو اول خلفاء الفاطميين في مصر ، الى جانب القائد جوهر ، وزيراً آخر منحه ثقته، وفوض اليه اصلاح آلة الحكم، والعناية بالشؤون العامة .اعني به يعقوب بن يوسف. فقد نشأ هذا الوزير في بغداد يهودياً ، ثم اسلم ، وجرى في اصلاح شؤون مصر وفقاً لما عرفه وعاناه في وطـنه الاول . وكان يجلس في مجلسه الأدباء والشعراء والفقهاء ، وارباب الصنائع . وأجرى لهم الارزاق . وشاركهم في التدريس ايام الجمع؛ يقتبس الدروس من تآليفه . ويقال ان مكتبة الخليفة العزيز ، المشار اليه ، أصبحت تضم بمساعيه مليوناً من المخطوطات .

ولعل زمن الحاكم بامر الله كان ازهر ايام الفاطميين ثقافة :فقد كان هذا الخليفة يعطف على اهل العلم والفضل ، ولا سيما الفلاسفة ؛ ويشعر بلذة عظيمة في الاستماع الى مناظراتهم . ويخال اليّ ان الشذوذ الذي يتهمونه به انما هو من قبيل شذوذ النوابغ . ومن آثاره مكتبة دار الحكمة التي اختار لها أثمن الكتب ، استجلبها من الامصار ؛ ولم يكن ينقص عددها عن مائة الف مخطوطة .

وفي الجملة فقد جرى الفاطميون ، بصورة عامه ، مجرى سائر الخلفاء في تقريب العلماء والموهوبين، واجزلوا لهم العطايا ؛ فتهافتوا على مصر ، وخاصة على ازهرها ، حتى غدت تعج بهم عجيجاً. وانكب بعضهم على علوم الفلسفة، والرياضيات، والطب. اشتهر بذلك العتقي ، وابن يونس أيام كل من العزيز ، والحاكم.وقد وضع ابن يونس الزيج الحاكمي في المرصد المنسوب اليه في جبل المقطم ، واخترع الربع ذا الثقب ، ورقاص الساعة. وخلفـه في علم الفلك كثيرون ، لعلّ اشهرهم الحسن بن الهيثم، الذي وضع نيفاً وثمانين مؤلفاً ، ومجموعة في الارصاد .

وخلف من بعدهم خلف من العواهل شغلوا عن الدولة ، وافسحوا المجـــال لاستبداد قواد كان همهم الوحيد تثبيت اقدامهم في المناصب العليا ، وملء خزائنهم. ولا يهمهم ، من بعد، تعزز العلم أم اضمحل ، ما عـدا افراداً منهم كانوا ، اذا منوا بالاستقرار الداخلي، رجعوا الى سيرة المصلحين ؛ وفي طليعة هؤلاء بدر الجمالي وابنه الافضل ، الذي يرجع اليه الفضل في بناء المرصد العظيم بجوار المقطم .

ومن المفيد الاشارة هنا الى انه كان للثقافة في مصر عهد الفاطميين لون خاص : ذلك ان الفاطميين ، وقد جعلوا هدفهم تعزيز المذهب الشيعي ، وصرفوا اهتمامهم الى فقهـــه ، آثروا ان يتبوأ الفقه في أيامهم المقام الاول . ولعل ضعف الشعر ، خلال العهد الفاطمي ، يرجع الى اتجاه الدولة شطر تعزيز العـلوم الدينية التي تؤيد مذهبها . أما النثر فكان أوفر حظاً لحاجة السياسة اليه. وقد ادرك العصر الفاطمي كاتبان : القاضي الفاضل ، وعماد الدين الاصفهاني ، وهما من خيرة كتاب اللغة العربيـــة .

وخلاصة القول ان الثقافة في وادي النيل، عهد الفاطميين، قصرت عن بلوغ مستوى العراق عهد العباسيين ، ومستوى اسبانيا عهـد الامويين . ولم تصبح القاهرة محور الحضارة العربية إلا زمن حكم المماليك في مصر ، بعد ان نكبت بغداد بهولاكو .

. . . . .

الحالة الاقتصادية عهد الفاطميين : لم يقدر للفاطميين بسطة في الملك مثلمـا قدر للامويين والعباسيين . ولكنهم مع ذلك اتيح لهم ، بفضل اقامتهم في وادي النيل الخصيب ، ذي المركز التجاري العظيم، الذي يصل الشرق بالغرب، ان يتمتعوا بثروة عظيمة وفرت لهم حياة ملؤها الرفاه والبذخ . فلقد كان الشعب ، الى جانب موارده الزراعية الوافرة ، ينتفع بخيرات التجارة بنقلها من بر إلى بر ، ومن بحر إلى بحر . وكانت حكومة مصر بالتالي تشاطر الشعب أرباحه ومكاسبه .

إن موقع مصر الستراتيجي خولها ، منذ القدم، ان تتمتع بهذا المركز التجاري، ولكنها بلغت عهد العرب فيه مستوى قلمـــا شهدته : لان الاسلام ، بربطه بين الامم الاسيوية والافريقية برابطة الدين، ونشره، في انحائها، لغة تكاد تكون عامة ، وهي اللغة العربية ، قد أدى لمصر أجل المنافع من الناحية الاقتصادية . فاصبحت الاسكندرية ، عهد الفاطميين ، مرفأ التبادل بين المشرق والمغرب ، وأهم مستودع تجاري في البحر المتوسط .

ومن جراء فيض الزراعة والتجارة ،عهد الفاطميين، اصبحت اخبار الثروة، في عهدهم ، أشبه شيء بالاساطير . ومن هذا القبيل ما رواه المقريزي وغيره في وصف التحف والجواهر التي باعها المستنصر مضطراً لتأمين اعطيات جنده الاتراك ، قصد ملاشاة الثورة التي قاموا بها . وهذا ما أوحى الى م . مارسيل M. Marcel الفرنسي اشفاقه على ضياع كنوز كهذه إذ قال : « كأن ثروات العالم قاطبة تلاقت في هذا الجزء من العالم، على كرور الاجيال، ليكون مصيرها ان تبدد بأيدي أخس الجنود»

ومن أمثلة الثروة ايضاً ما روى عن تركة الاميرتين راشدة وعبدة ابنتي المعز ؛ فقد خلفت كل واحدة منهما ،على حد قول الرواة ، مليوني وسبعماية الف دينار ، عادت للخليفة المستنصر . وهذا مبلغ قليل مثيله في عصر الدولار . فكيف به قبل تسعة قرون ؟

وقد كانت هذه الثروة غذاء للصناعة ، فاصابت ارتقاء عظيما ، لا سيما من حيث حاجيات البذخ والتبرج التي تسمى بالحاجيات الكمالية. وقد قال كوستاف لوبون : « يخبرنا المقريزي ،وقد اثبتت روايته مخلفات ذلك العصر ، أن الصنائع ، ولا سيما الصياغة والنسيج ، وكل ما يختص بالرياش والأواني ، بلغت وقتئذ مبلغاً عظيما من الاتقان.» وكانت دمياط ومنطقة الابوانية تصنع وتصدر كميات من أنسجة التيل ؛ كما ان دبيق ، في مصر كانت شهيرة في منسوجاتها ؛ واليها تنسب الثياب الدبيقية . وكذلك كانت الفيوم مركزاً لنشاط صناعي عظيم ، وكانت تحتوي عدة مصانع للطراز .

ولما فتح القائد جوهر مصر وجد الزراعة ، وهي مورد مصر الطبيعي ، قد تدنت حالتها ، وتخلت للتجارة عن المقام الاول؛ فاولاها عنايته ،وحفر الترع ،واصلح نظام الجباية. وكذلك فعل كل مصلح تولى بعده الحكم ؛ كيعقوب بن يوسف ، وبدر الجمالي ، والافضل ابنه ؛ ولكن هذه المساعي الفردية لم تكفل لزراعة مصر استرداد سيرتها الاولى . وقد رجح الامير عمر طوسون في كتابه «مالية مصر» ان جباية مصر بلغت زمن المعز ، اول خلفاء الفاطميين في القاهرة ، (٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م) ١،٩٢٠،٠٠٠ جنيه مصري ، وذلك عن مساحة من الاراضي المزروعة كانت تبلغ ٦٤٦،٧٤٥ فداناً . وقال الامير ان الخراج بقي على حاله حتى ايام المستنصر ، ثم اخذ يتناقص على التوالي .

حياة البذخ والعمران عهد الفاطميين: روى المقريزي ، في حديث طويل ، ان المعز لدين الله استدعى اليه شيوخ كتامة بتونس في يوم شات ؛ فدخلوا عليه في مجلس اقتصر فرشه على اللبود ، وحول الخليفة كساء عليه جبة ؛ فلفت نظرهم الى ما هو عليه من التقشف ، واوصاهم ان يقتدوا به ، ويلزموا التواضع ، وعمل الخيرات ، الى أن قال : « واعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت ان يقرب الله علينا امر المشرق ، كما قرب امر المغرب بكم . »

ثم روى المقريزي في مكان آخر : «ان صلاح الدين الأيوبي وجد ، حينما استولى على القصر الكبير ، الذي كان مسكن الخلفاء الفاطميين ، واخرج من كان فيه ، اثني عشر الف نسمة ، ليس فيهم فحل الا الخليفة العاضد ، واهله واولاده » .

فما أعظم الفرق في حياة الخلفاء الفاطميين بين اوائلهم واواخرهم ؟ ولا ريب ان حالة الاوائل الروحية هي التي امنت لهم سبل العظمة ، كما ان حالة المتأخرين منهم الاخلاقية هي التي دفعتهم الى الهاوية .

ولا نكران ان للبيئة اثراً فعالاً في تكوين الاخلاق . وهذا الخليفة المعز ، الذي عاش عيشة التقشف في تونس ، ونصح شيوخ كتامة ان يقتدوا به ، فانه لم تطأ قدماه مصر الا لتصعد به الى قصر منيف شيّد لنزوله ؛ وقد ازدان بافخر الرياش . واستمر خلفاؤه يقلدون العباسيين في مظاهر النعيم حتى تمدوهم . وقد رفعوا القصور الرائعة ، وتفننوا في تشييد المقاصير والمنظرات والدور . وأنفقوا على عمارتها الاموال الطائلة . وعلى رواية المقريزي : « انهم أنفقوا على عمارة القصر الشرقي مليوني دينار . » ثم لما تحول هذا المؤلف إلى تعداد ما في خزائن تلك القصور : من جواهر وطيب وفرش وأمتعة واسلحة وآثار عتيقة ، حسبناه يطير في فضاء الخيال . ولكن روايات اجنبية جاءت تؤيد ما أرّخه العرب أنفسهم : فقد زار مصر ناصري خسرو الفارسي ، في منتصف القرن الحادي عشر للميلاد ؛ ودوّن وصفها بلغة تفيض بالاعجاب ، وقال « إن قصر الخليفة المستنصر كان يتسع لثلاثين الف شخص بينهم اثنا عشر الف خادم ، والف فارس وحارس . وأتى بمثال على الامن الذي كان سائداً في مصر فقال : « وحتى حوانيت الصاغة والصرافين ، فقد كان أصحابها يتركونها ليلا غير مقفلة » ثم وصف ثروة مصر بقوله : « لم استطع حصرها ، ولا قدرها ، ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر . »

وبعد فما قيمة تلك القصور على ما فيها من كنوز إذا لم يكن ساكنوها خيراً

منها؟ إنها تكون عندئذ كاقفاص خالية من الطيور ،أو كأجسام بلا أرواح!ولكن قصور الفاطميين كانت ، على العكس من ذلك ، تعج بالحياة ، وتكاد تضـــيء بلا كهرباء ، لما فيها من الجواري الحسان ، وما يتلألأ بين جنباتها من الجواهر . ويزعم الرواة أن الفاطميين فاقوا سائر الخلفاء في كـــثرة الجواري ساكنات القصور ، ووفرة الغلمان ، والاسراف على زينتهم . حتى قالوا انه كان في قصور الحاكم عشرة آلاف جارية وغلام ، وفي قصور اخته ست الملك ثمانية آلاف !!!

هذا وقد رصّع العباسيون عصائب نسائهم وأخفافهن بالاحجار الكريمة . أمـا الفاطميون فقد انتهى بهم البذخ إلى أن رصعوا أواني مطابخ القصور بالجواهر .

ويظهر ان هذا التبذير بقي ملازماً لهم حتى آخر حكمهم : فقد نقل غليوم دوتير Guillaume de Tyr. في كتابه Histoire des guerres des Princes Chrétiens en Palestine وصفاً لقصر الاستقبال الذي استقبلت به بعثة صليبية وفدت لمقابلة أحد ملوك مصر، ختمه بقوله : « إن عين الاوروبي لم ترَ قط مثله هندسة وفناً وثروة . »

وربما كان العمران على وجه عام أظهر في القصور والمساجد وسائر المؤسسات الحكومية منه في الاوساط الشعبية . يستفاد ذلك من كتاب النفحة المسكية ، وهي رحلة شاب اندلسي زار مصر خلال حكم الايوبيين سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤٧ م ،ويدعى الحسن بن سعيد ، وقد زار القاهرة والفسطاط ، وهو وإن نوه بابداع الفاطميين في بناء القاهرة ، إلا أنه قال بان اسمها أعظم منها ،وتحوّل إلى انتقاد دروبها ، ومبانيها ، وأسهب في وصف سوء حال الفسطاط وعمرانها .

وإذا كنا لا نتهم هذا السائح بالمبالغة فانا لا نجاريه كل المجاراة ، بل نحسب انه جاء من بلاد أرفع مستوى عمرانياً من وادي النيل ، فاستخف بما شاهده فيه .

ويخال لنا أن مصر ، وإن قصرت عن اسبانيا العربية في الفن المعماري ، فربما انها بزّت بذلك العراق والشام . ولا تزال الصروح والمساجد القائمة حتى الآن تشير إلى ما بلغته في هذا الشأن .



العرب في شمال افريقية

جرى المؤرخون على تسمية الأقطار الآهلة بالبربر الممتدة من مصر الى المحيط الاطلانتيكي، بالشمال الافريقي ؛ وأجمع رأيهم على أن البربر دخلاء على هذه البلاد، جاؤوها من الشرق الادنى. وقد اتيح لاوروبا في الاجيال الغابرة ان توالي حكمها على شمال افريقية، فدخلت هذه البلاد في حوزة الرومان، ثم الفندال، فالبيزنطيين. وكان اهلها وثنيين ومجوس.

ثم انهم اقتبسوا بالاختلاط اديان الفاتحين، فعبد بعضهم آلهة قرطاجنة، ثم تنصرت قبائل منهم كثيرة خلال حكم البيزنطيين.

والبربر قوم مشهورون بالصلابة والمحافظة على القديم، فلا غرابة اذن اذا هم قابلوا العرب الفاتحين بشدة لم يعهد هؤلاء مثلها في اكثر الامصار.

ثم ما زالوا ينتقضون عليهم، زمن الفتح، حتى بلغ عدد المرات التي ارتد بعضهم فيها عن الاسلام اثنتي عشرة مرة.

ولا ريب في ان البيزنطيين، حكامهم الاولين، هم الذين كانوا يغذّون هذه الثورات على الفاتحين، ولكن العاقبة كانت للعرب، فقد استطاعوا ان يأتوا هناك بما لم تستطعه الاوائل فعلاً: اذ رافق استتباب الحكم لهم، في افريقية الشمالية، انتشار دينهم ولغتهم، وتمكنت العروبة والاسلام بين البربر الى حد ان بلادهم احتفظت بعروبتها حتى الى ما بعد زوال سلطان العرب عنها.

ويقول المؤرخ التونسي المعاصر الاستاذ عثمان الكعاك (مجلة الثريا السنة ٣ مارس ١٩٤٦) « ويجب للتاريخ ان نقول ان الفينيقيين طبعوا البربر بطابع الحضارة الشرقية السامية، وان اللغة البونيقية، التي هي فرع من العربية القديمة، مهدت السبل لانتشار العربية، واستقرارها نهائياً في ديار المغرب. »

. . . . .

الفتح العربي الاول : لما فرغ عمرو بن العاص من فتح مصر غادرها متقدماً الى طرابلس الغرب (٢١ هـ = ٦٤١ م)، وكان الخليفة عمر بن الخطاب، رغم ما اشتهر به من الشجاعة، يكره المغامرات، فلم يسمح لعمرو بالتقدم، مما جعل هذا القائد مضطراً الى مصالحة اهلها على قدر من المال والعودة الى مصر. فلما صارت

الخلافة لعثمان بن عفان امر عامله على مصر ان يستأنف الهجوم على شمال افريقية : فتقدم هذا الى طرابلس، واجتازها الى تونس ، ثم عاد الى الفسطاط، مكتفياً بفدية اداها البيزنطيون له قدّرت بثلاثمائة قنطار من الذهب .

وانتهى عهد الخلفاء الراشدين دون ان ينال العرب من الشمال الافريقي مأرباً، ولما صار الحكم للأمويين استأنفوا الحملة على شمال افريقية ، فسيّر معاوية بن ابي سفيان حملتين سارت احداهما اليها براً فبلغت بنزرت في تونس ؛والثانية جرت بحراً الى صقلية، لتحمي الجيش من نجدات البيزنطيين. ثم والت الحملة التقدم حتى وطأت خيلها الجزائر . وقد بنى عامل معاوية مدينة القيروان بتونس ، واصبحت مركز الولاية والقيادة. وتفرغ بعدهـــا لنشر الاسلام ؛ فأقبل عليه البربر . وشاء يزيد بن معاوية ان يمضي كأبيه في الفتح ، فوفق جنوده لبلوغ المحيط الاطلانتيكي ؛ ولكنهم هوجموا ، وهم عائدون ، من قبل البيزنطيين والبربر وفتك هؤلاء بهم ، ثم ما زالوا يطاردونهم حتى تونس .

ويعزو مؤرخو العرب هذا الاندحار الى خيانة كسيلة أحد أمراء البربر ،الذي كان يرافق الحملة العربية متظاهراً بالاسلام، بينما كان يتواطأ عليها مع البيزنطيين .

. . . . .

الفتح الثاني : كافأ البيزنطيون الامير كسيلة بان قلدوه الامارة على ما وراء تونس،وجعلوه متراساً لهم في وجه العرب؛وقد دانت له الظروف، خلال الفتنة التي نشبت بين الامويين والهاشميين في الشرق الادنى ، فاخـذ ينبسط في الفتح ، ويرد العرب على اعقابهم . ولكن ما ان استتب الامر في الشام لعبد الملك بن مروان حتى سيّر حملة عليه (٦٩ هـ= ٦٨٨ م) فتكت به ، وخضضت شوكة البربر والبيزنطيين معاً، ثم تلتها حملة أخرى فتحت قرطاجنة، ولكنها اصطدمت بتكتل جديد قام به البربر بقيادة الكاهنة داهية الزناتية، فانتهى الامر بالحملة لأن تعود على اعقابها مهزومة. واستمرت الحرب سجالا، بعد ذلك، بين العرب والبربر الى ان صارت ولاية افريقية في تونس لموسى بن نصير في غرة القرن السابع للميلاد ، فكان النصر حليفه . ودانت له بلاد المغرب حتى المحيط . وساعدته الظروف فاجتـاز بلاد المغرب الى الاندلس وفتح اسبانيا . ثم خلفه على افريقية والاندلس جملة ولاة للامويين . وفي سنة ٧٤٦م تغلب عبد الرحمن الفهري على تونس وسائر المغرب ، ثم ولى الاندلسيون عليهم بعد ثلاثة اعوام من ذلك يوسف بن حبيب الفهري، فدان الأمر لهـذه الأسرة في المغرب العربي ، وأقرها الأمويون في الشام على الولاية . ولكن الزمن لم يصفُ لها طويلاً:

فقد خسرت الاندلس بقيام الدولة الأموية في قرطبة ، واضاعت افريقية بما نشب بين اعضائها في تونس من التنازع العائلي ، وكان تنازعاً شديداً جرأ البربر على استرداد البلاد والتمثيل بالعرب شر تمثيل .

. . . . .

الفتح الثالث: كبرت على الخليفة المنصور العباسي انباء استطالة البربر على أهل القيروان عاصمة تونس ، فسيّر حملة لاسترجاعها ، ولاسترداد ما بعدها ؛ وكان قد سبقه للثأر من البربر في تونس عبد الأعلى بن السمح ، وشايعه على ذلك بربر طرابلس . فزحف على القيروان وامتلكها ، واستعمل عليها عبدالرحمن بن رستم . وهو فارسيّ الأصل . ولما وصل جيش الخليفة الى الحدود أبى عبد الأعلى ان يتخلى له عن البلاد ، وعمد للمقاومة ؛ ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلاً ، فقتل وفر عامله ابن رستم المذكور الى الجزائر . وهناك التف اهلها حوله ، وبايعوه بالخلافة .

وامتنعت الجزائر على العباسيين ، او بكلمة أصح ، لم يأبه العباسيون بافريقية فاكتفوا منها بمصر وطرابلس وتونس . ثم اصابهم الملل من مشاكلها ، وانتقاض البربر عليهم انتقاضاً متواتراً ، فتركوا عاملهم في القيروان ابن الاغلب يتمتع بالاستقلال قانعين منه بالخطبة لهم ؛ على ان يكفيهم شر الدعوة العلوية التي قام بها الادارسة في فاس . وهكذا تمتع شمال افريقية باستقلاله خلال حكم العباسيين ، وقامت فيه دولتان عربيتان : دولة بني الاغلب ، وعاصمتها القيروان ؛ ودولة الادارسة ، وقاعدتها فاس . وعاصرتهما دولتان من البربر : الدولة الرستمية الاباضية نسبة لعبد الرحمن ابن رستم الذي اتينا على ذكره ، وعاصمتها تيهرت ، ودولة آل مدرار في المغرب الاقصى ، وقاعدتها سجلماسة .

وكان العباسيون يرحبون بنجاح الدولة الأغلبية ، ويرتاحون لتفوقها في البحار على أمل أن تكون لهم ترساً في وجه البربر الذين ظلوا ، يحرصون على استقلالهم ، ولان دولة الادارسة ، وان كانت عربية الرأس ، الا انها كانت بربرية الهيكل . هذا فضلا عن ان العباسيين كانوا لا يزالون يحسبون الف حساب للاساطيل الاموية ، ويخشون ان تأتي من الاندلس لتستعيد الشام التي ما فتئت تحنّ للأمويين .

وقد ظل الشمال الافريقي موزعاً بين الدول التي ذكرناها الى ان اجتمع تحت لواء الفاطميين . والفاطميون ، وان نشأت دولتهم في تونس ، الا اننا اخترنا ان نذكرهم في قسم مصر نظراً لانهم قضوا فيها حقبة أطول ، وخلفوا فيها امجادهم وآثارهم .

دولة بني الاغلب في تونس Les Aghlabides : (١٨٤ - ٢٩٧ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م) استمرت كل من تونس وليبيا ولاية للعباسيين، وكانت تعرف بولاية افريقية حتى نهاية القرن الثامن للهجرة . واصبحت السيادة التي كانت للخلفاء بغداد على هذه الولاية اسمية منذ هارون الرشيد : ذلك ان ابراهيم بن الاغلب كان قد استقل فيها منذ غرة القرن التاسع م ، وخلفه في القيروان لغاية سنة ٩٠٩ م ، عشرة عواهل من سلالته رافق حكمهم هدوء واستقرار وعز وعمران . وقد عمل هؤلاء على مزج العنصر البربري بالعنصر العربي ؛ وحاولوا ان يصبحوا اسياد البر والبحر. تلك كانت امنيتهم، وقد حققوا منها الشيء الكثير، خصوصاً بعد استيلائهم على ليبيا . Lybie فصارت النار توقد في ساحل سبتة ازاء جبل طارق، للنذير بالعدو، فيصل ايقادها بالقيروان عاصمتهم ، ومنها الى الاسكندرية في يوم واحد .

هذا وقد اضطر الاغالبة البيزنطيين ان يتخلوا لهم عن جزيرة بليار Ballières وسردينية . وهددوا ايطاليا وسائر جزر البحر المتوسط ، حتى استنجدت باوروبة . وأفضى خطرهم إلى تدخل قداسة البابا. وقد طلب قداسته من العالم المسيحي النجدة، فلباه الامبراطور شارلمان ، واستطاع حماية الجزر طيلة حياته . ولكن الفتن ، التي وقعت في فرنسة عقب موته ، أفسحت المجال لبني الاغلب أن يستأنفوا الهجوم على ايطاليا ، وعلى جزيرتي سردينية وصقلية . وقد نزلوا جزيرة صقلية سنة ٨٣١ م رغم البيزنطيين . ولم تدخل سنة ٨٧٨ م إلا وقد أصبحت الجزيرة بتمامها لهم . أما جزيرة قورسيقة، فكان قد سبقهم اليها عرب اسبانية، الذين اكتسحوا ايضاً بدورهم بعد موت شارلمان جنوب فرنسة .

ولم يجد ايطاليا تحالف فرنسة وبيزنطة مع الامراء اللمبارديين للدفاع عنها ، بل استولى بنو الاغلب علـــى ثغر برندس Brendizi ومدينتي باري وترنته Torente ، ووطأت أقدامهم دوقية بنيفان Benévant، وضواحي رومـــا ، في أواسط القرن التاسع . ثم أعادوا الكرة على روما ؛ ولم يرتدوا عنها إلا بعد أن فرضوا على البابا يوحنا الثامن فدية بلغت خمسة وعشرين الف رطل من الفضـة . وتحولوا من ثم إلى البندقية Venise ، واستولوا على مدينة غرادو . وما أن دخـل النصف الاول من القرن التاسع حتى أصبح البحر المتوسط منطقة نفوذ لهم ؛ وصارت اعـلامهم تخفق فيه على جزر مالطة ، وبالرمة ، وسردينية Sardaigne ، واقريتش Crète .

وقد عاب بعض مؤرخي الغرب على الاغالبة سياسة العنف التي رافقت حملاتهم

على ايطاليا وصقلية . وعذرهم آخرون باعتبارهم جروا على سنة الحروب في تلك العصور، مستشهدين بفظائع النورمان Normands في ايطاليا، اولئك الذين هبطوها، بغية الدفاع عنها .

ولعل خروج العناصر التي حملت على اوروبة، عهد الاغالبة، عن سنة العرب في الحروب مصدره أنها كانت حديثة العهد بدين العرب ، فتعدت الحدود التي وضعها الدين للحروب. وفي الواقع فان هذه العناصر نفسها كانت سبباً في سقوط الاغالبة : ذلك أن الوسط الافريقي ، بما كان فيه من تكتلات مختلفة للبربر ، لم يكن صالحاً لان تتمتع الدول فيه بحياة طويلة ؛ فسرعان ما انقلب البربر على بني الاغلب منذ آنسوا في احدهم أبي اسحاق (٨٧٧-٩٠٢ م) صدوفاً عن سياسة الانصاف ، وانحازوا لدعوة الفاطميين . فسقطت دولة الاغالبة من علٍ ، واستعاد الاوروبيون في ايطاليا باري(٨٧١م) وطارنت(٨٨٠م). وقد قامت على أنقاض هذه الدولة دولة الفاطميين. ولكن آثار هذه الاسرة ، في جميع نواحي الحياة الاجتماعية، ما زالت عالية خالدة ؛ ولعل أعظم اثر قومي لها اقرارها بافريقية لسان العرب ، ودين النبي العربي ، بالاضافة لنشرها حضارتهم .

قال ارتور بلليكران A . Pellégrin : «ان القيروان عهد الاغالبة انارت المغرب بالفلسفة والاداب والفن ، وصارت اللغة العربية خلال ذلك لغة الدولة والعلم . »

واطرى العلامة سديو Sedeillot اعمال الاغالبة العمرانية بما خلاصته : « انهم نشروا في الاقاليم الافريقية التمدن الاسلامي ، وشيّدوا في تونس وطرابلس مدناً امتزج فيها الفن المعماري الروماني بزخرف الشرق ، فجاءت تحفة رائعة .»

« وعنوا بالزراعة والصناعة والتجارة ، فضلا عن الثقافة ، فاقاموا الجسور والقناطر والاقنية ، وانشأوا مراكز تجارية سهّلت، بطرق آمنة ، اتصال الصحراء الكبرى بالسواحل، يعززها انتظام في البريد، كان يؤمن التواصل سريعاً بين مصر والمغرب الاقصى . »

«والى ذلك كله اسطول تجاري تسلط على البحر المتوسط ، وتعداه الى تطويق غرب افريقية » وانتهى سديو الى التنويه بمآتيهم الحسنة في الجزر التي احتلوها .

. . . . .

دولة الادارسة بمراكش: طارد الامويون في الشام العباسيين والعلويين من اهل البيت ؛ ولما صار الامر للعباسيين ، وفتكوا بالامويين ، انصرف خلفاء بغداد

بدورهم لاستئصال العلويين . فقتلوا زعيمهم الملقب بالنفس الزكية . غير ان اخاه ادريس افلت منهم ، ولحق بالمغرب الاقصى ، واخذ لنفسه البيعة على البربر في وليلى : قاعدة جبل زرهون ؛ وتزوج منهم (١٧٢ هـ - ٧٨٨ م) . وبلغت اخباره مسامع هارون الرشيد فاوجس منه خيفة ، وعمل على قتله مسوماً . ولكن البربر حافظوا على عهدهم له حتى بعد موته : فلما وضعت امرأته غلاماً اعطوه اسم ابيه ، وبايعوه بالامارة صبياً .

ثم ضاقت مدينة وليلى بالادريسي وانصاره ؛ فاختط مدينة فاس ، وعظم شأنه فيها حتى اعترف به من السوس الاقصى الى وادي شلق ؛ وخلفه سبعة من سلالته كان آخرهم يحيى بن ادريس . وبالرغم من اتساع مملكتهم ، عهد يحيى المشار اليه ، اتساعاً شمل جميع اعمال المغرب الاقصى ، فقدحاذروا ، ادعاء الخلافة لانفسهم ، واستمروا يخطبون لاموبي الاندلس .

وبينما كانت هذه الدولة تتمتع بمكانة مرموقة وطمأنينة عظيمة فاجأها التيار الفاطمي الجارف فاكتسحها (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م) ، في جملة ما اكتسح من الممالك في شمال افريقية .

على ان الادارسة خلفوا ذكراً طيباً في الناحية العمرانية : فقد كانوا يتحدّون العباسيين ، وينهجون نهج امويي الاندلس . فانشأوا ، لا سيما في فاس ، المساجد النفيسة ، والمدارس العامرة ، والمكتبات القيمة ، وقربوا العلماء واجروا عليهم الاعطيات . وقد قال في ذلك كوستاف لوبون : « ان مدينة فاس Fez ، التي كانت ، خلال القرن العاشر ، تنافس بغداد ، قد كانت ، على رواية مؤرخي العرب ، آهلة بخمسماية الف من السكان ، وكان فيها ثمانماية مسجد ، فضلا عن مكتبة غنية بالمخطوطات اليونانية واللاتينية . »

هذا واما من الناحية التجارية فقد كانت فاس همزة الوصل بين الاندلس وقسم كبير من افريقية ، ولكن قيامها بين دولتي الاندلس وتونس البحريتين لم يفسح المجال لها للتوسع على قدرها في الحقل التجاري .



الفصل السابع

عصر الاندلس

تاريخ العرب السياسي باسبانيا

١

احتل العرب اسبانية مدة ثمانية قرون ،واطلقوا عليها «الاندلس» ؛ وهو اسم اولى المقاطعات التي استولوا عليها. وقد جعلنا الكلام عليها مقسماً وفقاً لمراحل تاريخ العرب في تلك البلاد ، وذلك على الوجه الآتي :

١ – عهد الولاة ٢ – العصر الاموي ٣ – ملوك الطوائف ٤ – العهد البربري ٥ – الحروب الصليبية بالاندلس ٦ – عصر العرب الاخير ٧ – الجلاء عن اسبانيا.

ويعترض هذه الاقسام بحث يتناول الحروب الصليبية في الاندلس

.....

عهد الولاة

(٩٢ — ١٣٨ هـ — ٧١١ — ٧٥٦ م)

لما استتب الحكم لأمويي دمشق في شمال افريقية تعاقب عليها من قبلهم عمال اتخذوا مدينة القيروان بتونس مقراً لهم . ولما أتيح لموسى بن نصير ، عامل الخليفة الوليد بن عبد الملك على شمال افريقية ، احتلال اسبانية خلال أشهر قليلة من عام ٧١١ م ، استهواه هذا النصر السريع لمتابعة اكتساح اوروبا ، وهو يأمل ان يلحق بدمشق مجتازاً رومة والقسطنطينية . ولكن الخليفة نهاه عن هذه المغامرة فقفل موسى راجعاً عن الاندلس إلى دمشق بعد ان عهد بالولاية عليها لابنه عبد العزيز، وانزله في قرطبة . وجعل امرها مرتبطاً بالقيروان . وقد بلغ عدد الولاة عليها اثني وعشرين والياً ، نصب معظمهم عمال الأمويين في تونس .

وانقضى عهد الولاة دون ان يترك في تاريخ الاندلس ما يستحق الذكر : ذلك

أن العامل على الاندلس كان يرى نفسه منقطعاً عن الامبراطورية ، بعيداً عن سلطتها المركزية ، فيشعر حيال هذه العزلة بحاجة ماسة الى عصبة تؤيده . ومن جراء ذلك انتقلت الحزبية ، التي كانت مستفحلة بالشام ،إلى الاندلس،وازدادت تفاقماً وتعصباً : إذ أخذ الوالي القيسي يقرب اليـــه المضريين ، وشرع اليماني يجمع حوله اليمنيين . فانصرف العرب بذلك عن هدفهم الأسمى ، وشغلوا بالفتن عن متابعـــة الفتـــح ؛ وانقلب فتحهم ، في ذلك العهد ، إلى شيء هو أقرب الى الغزو منه إلى الفتح .

على ان هذا العهد ، وان مني بالفوضى ؛ لا سيما عقب تضعضع الدولة الاموية في دمشق ، إلا انه لم يخل من فترات استقرار اتاحت لبعض الولاة توسيع الحدود الى ما وراء جبال البيرنه ،وفتح اربونه Narbonne ،المعقـــل العسكري في فرنسا الجنوبية.وإذا امتنعت عليهم طولوز (٧٢١م) تحولوا عنها الى قرقسونة Carcasson ، ونيم Nimes ،وليون وماكون Macon،واوطون Autun .ولعل انتشارهم في وادي الرون Rhône هو الذي اتاح لهم الاستيلاء على المدينة.ثم انهم ثابروا على التقدم نحو الشمال حتى دخل في حوزتهم نصف فرنسا الحالية : أي من ضفاف نهر اللوار حتى فرنش كمته Franchecomté .

وكانت أشد تلك الحملات خطورة تلك التي قام بها عبد الرحمن الغافقي العامـل على الاندلس.ولكنها لم تكن موفقة إذ صدهـا شارل مارتل قرب بواتيه Poitier (٧٣٢ م) .وطاردها الى أقصى الجنوب ،منقذاً – على قول لاروس – المدنيـة المسيحية من الاسلام .

فتأخر من جراء ذلك – على رأي كلود فارير C. Farrère – نضوج التمدن الغربي عدة أجيال. غيران شارل مارتيل كان قد استسلم ،اثناء مطاردته لعبد الرحمن الغافقي، الى شهوة السلب،مما جعل اصحاب الاقطاعات المسيحيين في جنوب فرنسا يفضلون الاتحاد عليه مع العرب . فاضطروه الى الانهزام ، ولا يصح وجوده هكذا بعيداً عن الكلام المقصود والعودة من حيث أتى .

وفي عام ٧٣٤ م احتل العرب أفينيون Avignon ،كما تخلى لهم حاكم مرسيليا عن مقاطعة بروفانس Provence (٧٣٧ م) .

وبذلك امتدت سلطتهم الى حدود الألب، ولبثوا ، من ثم ، يسيطرون ، مدة قرنين ونصف القرن ، على جنوب فرنسا .

العصر الاموي في الاندلس

(١٣٨ — ٤٢٢ هـ — ٧٥٦ — ١٠٣١ م)

لما صارت الخلافة لبني العباس عمدوا الى وضع السيف في رقاب بني أمية . وكان عبد الرحمن بن معاوية الاموي غائباً عن داره في الكوفة فنجا ، ولبث يفر من قطر الى قطر الى ان بلغ تونس . ونزل عند قبيلة زناته من البربر متستراً تحت اسم جعفر المنصور . وكان موالي الامويين في الاندلس ، وانصارهم ، قد آلمهم ذهاب الملك عن اصحابهم ، فاقبلوا على الدعاوة لعبد الرحمن بن معاوية منذ جاءهم مولاه بدر وانبأهم بوجوده على مقربة منهم . وقد لقيت هـذه الدعاوة هوى في نفوس الحزب اليماني المتألم ، فوجهوا اليه وفداً ابلغه طاعتهم ، ورجع مصحوباً به الى الاندلس . وكان هذا الاموي الذي نزل قرطبة سياسياً لبقاً ، فلم ينحز الى اليمنيين اعداء امير البلاد يوسف الفهري ؛ انما عمل على التقريب بينهم وبين القيسيين ، وظهر بهما على جيشي المغرب العربي والفرنجة اللذين قاتلاه بحجة الانتصار للعباسيين . وقد اتاح له هـذا الفوز ان يؤمن تقمص الدولة الاموية من دمشق الى قرطبة .

هذا وقد بدت في حياة الدولة الاموية في الاندلس ، من بعد ، تطورات سياسية مختلفة تسمح بتقديم الكلام عليها على الترتيب الآتي :

١ — عهد الامارة : ومدته سنة واحدة تقريباً قضاها عبد الرحمن الاول كعامل للعباسيين ، وداعياً لهم على المنابر . وقد قنع بذلك على ما بينه وبينهم من شدة الخصومة ، مسايرة للظروف .

٢ — عهد الملك : ويبتدىء في السنة الثانية من ولاية عبد الرحمن الاول ، ويستمر الى عهد عبد الرحمن الناصر في مدة تناهز مائة وخمس وسبعين سنة .

٣ — عهد الخلافة : منذ اعلان عبد الرحمن الناصر خلافته ، وتسميته نفسه بأمير المؤمنين ، مع الدعاء له على المنابر ، وسك النقود باسمه ، حتى نهاية هذه الدولة .

٤ — عهد بني عامر : وهي فترة من الزمن اتيح خلالها لبني عامر ، وقد تعاقبوا على منصب الحجابة ايام هشام بن الحكم ، ان يقيموا دولة لهم ، من بعد ، في قلب الدولة الأموية ، ويستأثروا دونها بالحكم (٣٦٥ — ٣٩٣ هـ = ٩٧٥ — ١٠٠٢ م)

٥ — عهد الفوضى وخلافة بني حمود : ويبتدىء هذا العهد باسترداد الامويين الخلافة من بني عامر . وقد عرف هذا الدور بالنضال بين العرب والبربر من وراء ستار تنازع الأسرة الأموية على الخلافة . وانتهى هذا النضال بقيام ملوك الطوائف ، وتخلله قيام دولة بني حمود الادارسة ، اصحاب طنجة وسبتة ، في قرطبة .

١ — **عهد الامارة والملك** : قضى عبدالرحمن الأول شطراً كبيراً من حكمه يطفيء جذوة الثورات ، شأن سائر مؤسسي الدول . وكانت رقعة المملكة تشغل آنئذ اسبانيا، ما عدا استورياس Asturies؛ وهي منطقة وعرة جبلية في الشمال الغربي منها . وكان الاسبان قد اعتصموا فيها اثر موقعة وادي الليث (٧١٢ م) . وأظهر عبدالرحمن في ادارة المملكة وعمرانها حنكة سياسية لا تقل شأناً عن حنكته في صعيد انشائها . ولما خلفه ابنه هشام(٧٨٧ م)وجد نفسه امام اوروباالتي تألبت عليه مستجيبة دعوة مملكة استورياس . ونعني باوروبا هنا الامبراطور شارلمان الذي جمع في شخصه بين ممالكها،فتاخم البيزنطيين شرقاً ، والأمويين غربا . ولكن هشاماً وقف وقفة البطل ، فذلل الفتن الداخلية ، ورد غارات خصومه ، وتتبعهم الى ما وراء الحدود ،مستعيداً اربونة Narbonne .ثم كان انصراف الحكم الاول (٧٩٦م) للهو مما أطمع به الاقارب والاباعدحتى لم تفده مظاهر الملك ،التي عني بها،في ملافاة هذه المصاعب.فقضى أيامه يكافح عمّيه الثائرين عليه،ويقاتل مملكتي استورياس واراغون ، ومن ورائهما شارلمان.ثم وقعت حروب بين الاوربيين بعد شارلمان وابنه لويز أفضت الى تجزئة الامبراطورية بين فرنسا والمانيا وايطاليا ، فاستطاع عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ م) ان يرد الافرنسيين الى ما وراء الحدود ،وان يتفرغ لمملكة استورياس ، ويسترد منها برشلونة . وكان اسطوله ، خلال ذلك ، يطارد قرصان النورمانديين ، ويغزو شطوط فرنسا ، وجزائر البحر المتوسط . وقد لازم النصر ولده محمد الاول (٨٥٢ م) في حروبه ضد كل من استورياس ، وفرنسا ، وإمارة النافار . وأحرز نصراً مبيناً في موقعة سليط .

وأما ابنه المنذر (٨٨٢ م) فانه تمكن من دفع عادية الدول ، واستطاع اخماد ثورات رعاياه الاسبان، التي ما زالت تتفاقم منذ عهد جده وأبيه باغراء تلك الدول، فقد وقع قتيلا بينما كان يطارد ابن حفص . ولما بويع ابنه عبدالله (٨٨٨ م) اضطر الى مهادنة الاعداء الاجانب قصد التفرغ لمقاتلة هذا الثائر الذي استفحل شأنه .

. . . . .

٢ — **الخلافة في عصرها الذهبي** : كان عصر الامويين الذهبي بالاندلس قد آذن بالظهور حينما صار الملك الى عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١ م). فقد اتاحت له فرصة انشغال الممالك الاوروبية في شؤونها الداخلية ان يتفرغ لابن حفص وحليفه رودمير الثاني، ملك لاون Leon . فقضى على

هذه الثورة التي استعصت على ثلاثة من اسلافه ، واسترد من رودمير بعض الحصون. ثم تحول من خطة الدفاع الى الهجوم ، فبلغ من الدول المعادية ما لم يبلغه أي خليفة غيره.

وما ان تقررت هيبته الا واسرعت اوروبا الى معاهدته ؛ فظهرت الخلافة الاندلسية ، من بعد ، في مظهر من العظمة لا مثيل له . وعلى الرغم من ان الفاطميين كانوا يحاولون الاستئثار في شمال افريقيا فما وسع بنو ادريس ، في المغرب ، وامراء البربر هناك الا ان يأتوه طائعين .

و كان اجداده يلقبون ببني الخلائف ؛ ولما بلغه ان مؤنسا الخادم قتل المقتدر بالله العباسي ، أعلن خلافته . وتمتع الاندلسيون في كل من حكمه ، الذي امتد حوالى الخمسين سنة ، وحكم ابنه الحكم الثاني ، الذي امتد ست عشرة سنة ، بحياة ملؤها الاستقرار والطمأنينة . وكان الحكم (٩٦١ م) يكره الحروب فاستأنف المعاهدات مع جيرانه ملوك الاسبان .

هذا وكان قد نشأ خلال هذه الحقبة الطويلة جيل من الناس الفوا الرفاه ، واضاعوا الروح الحربية ، فكان ذلك بالاضافة الى عوامل أخرى عارضة ، الاسباب الرئيسية لضياع الدولة الاموية.

. . . . .

٣ ـ حكومة حجاب الدولة تقضي اضباع الملك : توفي الحكم ، وخلفه ابنه هشام صبياً (٩٧٦ م) ، فتغلب حاجبه ابوعامر على شئوون الدولة ، وتلقب بالمنصور ، وامر بالدعاء له على المنابر عقب اسم الخليفة . وبعد سبع وعشرين سنة قضاها في منصب الحجابة ، وهو يتمتع بالحكم المطلق ، خلفه ابنه ابو مروان ، ثم حفيده عبد الرحمن . وبذلك قامت دولة بني عامر . وكان الأمر امرها ، وليس للامويين الا الخلافة بصورة رمزية . على ان هذه الدولة احسنت التصرف : فطمع مؤسسها بان يجلي كل الدويلات الاجنبية عن اسبانيا ، ويجعلها خالصة للعرب . ويقال انه انتصر في خمسين موقعة ، وقضى نحبه شهيداً وهو يحاول تحقيق هذه الامنية . وكانت ايام ابنه ، على قصرها ، ايام نصر وازدهار ؛ كما درج حفيده على سنته ، ولكنه إذ تجرأ على ان يستكتب الخليفة عهداً بان تكون الخلافة له من بعده أثار ثائرة الشعب ، وجمع كلمة الامويين وانصارهم عليه ، فدفع حياته ثمناً لهذا المطمع البعيد. وهو بهذه المحاولة الفاشلة قد قضى على الدولة الاموية ايضا: فقد اتفق الناس على خلع هشام بن الحكم حينما اصبح هذا الخليفة لبني عامر أطوع من البنان ؛ وبايعوا

محمد بن هشام بن عبد الجبار (٣٩٩ هـ ١٠٠٩ م) . وكان نضال، على أثر ذلك، في سبيل الخلافة استمر مستمراً الى آخر عهد الامويين ، نضال ذو طابع شعوبي أفضى بالمقاتلين الى الاستنجاد بالاسبان، فاضاعوا البلاد . ذلك ان شأن البربر كان قد اخذ يعظم، منذ ايام عبد الرحمن الثالث، عن طريق الجنود والمرتزقة ، واستفحل امره خلال دولة بني عامر . ولعل الغاية من تقديمهم كانت الاستعانة بهم ضد الاعـداء، لا سيما بعد ان أخذ العرب يرتعون في بحبوحة الحضارة ، وبعد ان فقدوا الروح الحربية . ولما استتب الامر لمحمد بن هشام المشار اليه، وذلك بتأييد العرب ، اشتد على البربر ، فتآمروا عليه ، وبايعوا هشام بن سليمان، ثم قتلوا هذا، وتحولوا لمبايعة سليمان بن الحكم.

وخلال هذا النضال بين محمد بن هشام بن عبد الجبار، ومن ورائه العرب، وبين سليمان بن الحكم وصحبه البربر، لجأ كل منهما الى ملوك الاسبان يستنصرهم، ويبذل لهم ، في هذا السبيل، بكل كرم وسخاء ، المعاقل والحصون . ولما اشتد الحصار على قرطبة من قبل سليمان بن الحكم وصحبه رأى محمد بن هشام ان يعيد سجينه هشاماً ابن الحكم الى الخلافة ، ويكتفي هو بمنصب الحجابة ؛ غير ان هذا المسعى لم يفده شيئاً . وما اسرع ما وثب عليه مماليك الدولة الصقالبة ، وقتلوه متعللين بانهم انما ارادوا بقتله حسم الفتنة . (٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م) .

وسعى هشام بن الحكم لأن يستميل البربر اليه، ويصرفهم عن صاحبهم سليمان بن الحكم ؛ ولكنه لم يفلح ؛ وكانت بينهما حروب أتاحت لألفونس الخامس ملك قشتاله ان يسترد البلاد التي كان قد استولى عليها بنو عامر . على ان هـذا النضال، وان انتهى بغلبة سليمان بن الحكم وصحبه البربر على خصمه وانصاره العرب ، وقيامه في قرطبة ، إلا انه في الواقع لم يفض الى الاستقرار ، لا الى الطمأنينة : ذلك لأن استبداد البربر كان مثيراً وحافزاً لنشاط العرب في طلب الاستقلال : فقـد سار خيران العامري، وزير هشام بن الحكم، الى طنجة يستنجد بعلي بن حمود الادريسي، عامل الامويين فيها ، ليعيد هشاماً الى عرشه ؛ فأنجده هذا، وأزاح سليمان بن الحكم عن قرطبة . ولكن ابن حمود استغواه الحكم فادعى الخلافة لنفسه ، ثم خلفه عليها في الاندلس أخوه قاسم بن حمود هذا وكان الاندلسيون لا يزالون يعطفون على الامويين، فلم يرقهم هذا الاغتصاب، فبايعوا، في الجنوب، عبد الرحمن بن هشام، ووافقهم أهل قرطبة على البيعة، فأزاحوا عنها بني حمود عنوة . غير ان الاجل لم يمهل عبد الرحمن ابن هشام ، فخلفه ابنه محمد ، ثم حفيده هشام . وكان هذا خليقاً بالملك : فلما رأى

المملكة فريسة الدويلات الاسبانية قام على رأس جنوده لانقاذها ، يقودهم بنفسه مدة ثلاث سنوات . ولكنه بدلا من ان يقابل بالتأييد من قومه كان يصطدم ، خلال مجابهة الاجانب ، بثورات داخلية تعاقبت في الامصار ، وفتن نشبت في العاصمـــة ، جعلت طموحه ينقلب الى يأس ، وجعلته يتخلى عن العرش (٤٢٢هـ = ١٠٣٠ م) . ولم تقم من بعده للامويين قائمة ؛ بل استبد دونهم ملوك الطوائف في الامصار .

ويروى عن آخر أموي الاندلس : أمية بن عبد الرحمن الذي خلف هشاما ، انه رد على قولهم له عند البيعة « نخشى عليك ان تقتل فان السعادة قد ولت عنكم يا بني أمية » بقوله : « بايعوني اليوم واقتلوني غداً » فبايعوه ؛ ولكن لم ينتظم له امر ، الى ان اختفى دون أن يعلم أحد سر اختفائه .

. . . . .

ملوك الطوائف

٤٢٢ — ٤٨٤ هـ . ١٠٣٠ — ١٠٩٠ م

لمـــا تمت الغلبة لسليمان بن الحكم الاموي ، واستبد انصاره البربر في قرطبة ، وتقاسموا الامصار تجرأ بنو زيري ، وهم ايضاً من البربر ، على اعلان استقلالهم في غرناطة Crenade (٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م) . وبقيت دولتهم ثمانين سنة . فكان ذلك حافزاً لزعماء الأمصار والعمال لاعـلان انفصالهم عن الامويين ؛ وشجعهم الى ذلك إدعاء بني حمود الخلافة بقرطبة ، ثم قيامهم ، بعد عودة العرش للامويين ، ملوكا على مالقة Malaga والجزيرة (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ ١٠١٦ - ١٠٥٧ م) ؛ فاستقل بنو هود بسرقوسطة Saragosse (٤١٠ - ٥٣٦ هـ = ١٠١٩ - ١١٤١ م) وبنو عـــامر ببلنسيه Valenica (٤١٢ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢١ - ١٠٨٥ م) وبنو عباد باشبيلية Séville (٤١٤ - ٤٨٤ هـ =١٠٢٣ - ١٠٩١ م) وغيرهم في غيرها . ولما انقرضت دولة الامويين في قرطبة اجمع اعيانها على تولية احد الامراء جوهر بن محمد (٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م) ودامت قرطبة في ولده الى سنة ٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م .

ثم استقل في طليطلة Toleide عامله عليها ذو النون (٤٢٧ هـ = ١٠٣٥ م) ودامت هذه في حكم ابنائه الى سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م . والمؤرخون هنا متفقون على تسمية هذه المجموعة من العواهل بـ « ملوك الطوائف » وقد بلغ عدد ممالكهم نحو عشرين مملكة ، حاولت كلها ان تستعيض عن ضعفها بالالقاب الكبرى ، والمظاهر الدوليـــة .

هذا ولما دالت دولة اموبي الاندلس كان لا يزال في حوزة المسلمين نحو ثلثي شبه الجزيرة الاسبانية ، فحاول الامير جوهر ، الذي صارت اليه الامارة بعدهم في قرطبة ، ان يجمع كلمة ملوك الطوائف فلم يصغوا اليه ، بل استمروا يتنازعون امرهم بينهم ، ويستعين كل واحد منهم باعدائهم الاسبان حتى التهمهم هؤلاء ، واحداً بعد واحد . ذلك انه لما استولى العرب على بلاد الاسبان جلا جمهور من هؤلاء الى جبال قنطبريا Cantabre على مقربة من فرنسا ، والفوا في جبال استورياس Asturies حكومة برئاسة بلاجيوس من الاسرة المالكة ، هدفها استرداد الوطن ؛ وقد استخف وقتئذ موسى بن نصير قائد الحملة العربية باولئك المهاجرين ، فلم يلحق بهم ؛ وجرى مجراه الولاة الذين تعاقبوا على الاندلس . ورغم انتصار الاسبان في كافادنكا ،واسترجاعهم لاون Laon (١٠١ هـ = ٧١٩ م) فان اهداف العرب استمرت موجهة شطر فرنسا: الى ما وراء جبال البيرينيه Pyrénnées. وكانت هذه الهفوة ، التي تبدو بسيطة في بادىء الامر ، مصدر جلائهم عن الاندلس باسرها فيما بعد . فان اولئك المهاجرين الى الجبال من الاسبان كانوا نواة حكومة استورياس التي اتخذتها فرنسا نقطة ارتكاز خلال حملاتها المتصلة على الاندلسيين العرب . وكانوا بالتالي مصدر قيام ممالك قشتالة Castille ، وأراغون Aragon ، ولاوون Laon، ونوارة Navarres ، وقطلونية Catalogne ، ثم البرتغال . وهكذا أصبح العرب ،الذين كانوا طلقاء في شبه الجزيرة، محاطين بهالة من اعداء يعتنقون مبدأ واحداً : وهو تحرير وطن مشترك ، واجلاء عدو للجميع. ففي سنة ٣٥٠ هـ=٩٦١م صارت كنتية قشتالة مملكة ،وتوحدت مع دولة لاون Laon ، فاضحت اعظم دول الاسبان ، لا سيما بعد ان اتيح لها الاستيلاء على البقية الباقية من مملكة نوارة . فشرعت هذه الدولة تصلي العرب ،اصحاب طليطلة وسرقسطة وبلنسية ، ناراً حامية .

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي تولى الفونس السادس (١٠٦٥ – ١١٠٩م) ملك قشتالة قيادة جيوش الدول الاسبانية المتحدة ، فاكتسب فرصة تقاطع ملوك الطوائف ، وتقدم إلى طليطلة ، وافتتحها عنوة ،ونقل اليها عاصمة ملكه ، وارسل يهدد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة واشبيلية ، وكان يومئذ أعظم ملوك الطوائف .

وتجاه استفحال الخطر ما وسع ملوك الطوائف ، الا أن يوحدوا صفوفهم : فاجمعوا رأيهم ، في مؤتمر عقدوه بقرطبة ، على الاستنجاد بالمرابطين البربر ، اصحاب

مراكش . وكان البربر في شمال افريقيا قد تعصبوا للاسلام ، كالترك في آسيا ، واصبحوا اجنداً له، بينما كانت الحضارة ذهبت بفتوة العرب والبربر واضعفت فيهم شكيمة البداوة ، فلم يسع دولة المرابطين إلا تلبية نداء أهل الاندلس ، وخفت لنجدتهم؛ ولكنها كانت، في الواقع، نجدة لانفسهم. فهم وان دفعوا الخطر الأجنبي ، حيناً من الزمن ، إلاانهم قد استأثروا هناك بالملك، سواء ما كان منه في حوزة ملوك الطوائف، أو مااستردوه من الاسبان . وكان من نتيجة ذلك ايضاً ان التنازع القومي بين العرب والبربر في اسبانيا عاد كرة أخرى وانتهى الى غلبة البربر .

. . . . .

العهد البربري في اسبانيا

٤٨٤ _ ٦٣٠ هـ _ ١٠٩٠ _ ١٢٣٢ م

دولتا المرابطـــين Almoravides والموحدين : كانت بلاد شمال افريقيا تبابع دول المشرق تباعاً : امويي الشام فالعباسيين، فالفاطميين . ثم تحولت لخلفاء الاندلس أمويي قرطبة ، وخطبت باسمهم . حتى اذا زالت دولتهم قطـــع البربر الخطبة للعرب .

وكان الاسلام ، خلال ذلك ، يتقدم بسرعة في اواسط افريقية . وآمنت بـه فيمن آمن ، عشيرة صنهاجة المنتشرة في الصحراء الكبيرة ، وكانت من قبل على دين المجوس، وتعرف هذه العشيرة بالملثمين ، وذلك لاسدال رجالها اللثام ، على وجوههم. وفي تلك الصحراء ، وبين هؤلاء القوم ، نشأت دولة عرفت فيما بعد بدولة المرابطين ، كان هدفها الاسمى نشر الاسلام . ولما بلغت هذه الأمنية في الاوساط المحيطة بها ، واصلت التقدم شطر بلاد المغرب الاقصى . وعندما اعتزم ابو بكر بن عمر عاهل المرابطين مغادرة المغرب قصد العودة الى الصحراء (٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م) أقام عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين. وقد عظم شأن هذا حتى اصبح ، منذ عام (٤٧٥ هـ = ١٠٨٢ م) المغربان الاقصى والاوسط في حوزتـــه ، فضلا عن بلاد الريف . واختط مدينة مراكش ، وجعلها عاصمة ملكه . فلما اتتـــه رسل المعتمد بن عباد تستنجد به ، باسم ملوك الطوائف في اسبانيا ، نفر الى الحرب على جيش كثيف تلتهب افئدته حماساً لنصرة دين محمد (٤٩٧ هـ = ١٠٨٦ م)، وانتهى الامر بانتصاره انتصاراً مبيناً ، في موضع يقال له الزلاقة ، على جيوش الاسبان التي اتحدت للقائه. هذا فضلاً عن استرداده ، من بعد، بلاداً كثيرة كان المسلمون أضاعوها خلال تنابذهم . ولكنه،

وهو ابن الصحراء ، لم يستطع إلا أن يتأثر بالخيرات الفياضة التي لقيها في الاندلس ، فسولت له نفسه ان يستأثر بالسلطان هناك . وكانت بينه وبين ملوك الطوائف حروب ذللها بحزمه ، على حين انه لم يترك المجال لالفونس السادس ملك قشتالة لاستثمار النزاع الواقع بين المسلمين . وامتد ملكه من مدينة أفراغة ، في اقصى الشرق بالاندلس ، الى اشبونه Lisbonne على المحيط الاطلنطي . وبايع المستظهر العباسي في بغداد ،فعقدله على ماملك، واقرّه عليه.وظل الحظ حليفاً لهذه الدولة عهد ولده علي (٥٠٠ – ٥٣٧ ﻫ = ١١٠٦ – ١١٤٢ م)، وانتصر على الاسبان في مواقع كثيرة . واسترد منهم جملة من البلاد . غير ان خطراً مداهماً لم يلبث ان أحاق بهذه الدولة . وكان وقد نشأ في المغرب الاقصى : ذلك ان سلطنة الموحدين البربر التي قامت في جبل تينملل كان قد استفحل امرها إلى حد أن اميرها عبد المؤمن بن علي اقتحم مملكة المرابطين في المغرب ، واستمر يطارد ملكها تاشفين بن علي حتى تردّى هذا عن فرسه ومات . ولما دان المغرب للموحدين اجتازوا الى الاندلس ، واستولوا على بلاد المرابطين فيها ، وازاحوا سلطانهم اسحاق بن تاشفين عن قرطبة (٥٤٣ ﻫ = ١١٤٨ م) ، وكانت هذه فرصة اتاحت لملك قشتالة الفونس الثامن استرداد جملة حصون . ولكن الموحدين الذين هبطوا الأندلس، كانوا يدخرون الشيء الكثير من قوة البداوة ، والحماس للاسلام، فلم يلبثوا ان استردوا ما اضاعته الحروب التي وقعت بينهم وبين المرابطين . وفضلا عن تهديدهم دول اسبانيا فقد القوا الذعر في اوروبا كافة .

الحروب الصليبية في الاندلس

ما زال العالم المسيحي يزداد تألماً من جراء سياسة العنف التي خلفت حكم العرب العادل في الشرق الادنى ، وما فتئ يتنادى للحروب الصليبية ، ولكن لم يكن مقدراً لتلك الدعوات ان تثمر ، ودولة السلاجقة الجبارة تربض في ذلك الشرق ، ويتطاير من عينيها الشرر . غير انه لما وقع الخصام بين السلاجقة أنفسهم ، وذهبت ريحهم ، كانت دعوة ناسك بسيط كافية لجمع كلمة اوروبا . على ان الثماني حملات التي حملها الصليبيون على المسلمين (١٠٩٦ – ١٢٧٠م) لم تكن في النتيجة موفقة . ولذلك شاءت اوروبا ان تعوض عن فشلها هذا بحروب صليبية تقوم بها في الغرب، فاصغت الى استغاثة ملك قشتالة،على اثر استفحال خطر الموحدين في اسبانيا، لا سيما في عهد الخليفتين يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ – ٥٨٠ ﻫ = ١١٦١ – ١١٨٤ م)

وولده يعقوب (٥٨٠ – ٥٩٥ ﻫ = ١١٨٤ – ١١٩٨ م) . وتحولت الى الاندلس تسوق اليها حملات صليبية جديدة .

وكان البابا يحث المسيحيين على الاتحاد لاجلاء المراطقة من الاندلس ، ونجدة الفونس التاسع ملك قشتالة (١١٥٨ - ١٢١٤ م) ؛ بينما كان خليفة الموحدين يثير حماس المسلمين للجهاد ضد هؤلاء الصليبيين . أما النصر فاستمر حليف الموحدين إلى ان كانت وقعة العقاب Tolosa (٦٠٩ ﻫ=١٢١٢ م) التي انكسر فيها الموحدون ، ولم تقم لهم من بعدها قائمة . وان فشلاً واحداً ما كان ليؤثر على الدولة إلى هذا الحد لولا ان تعاقب على عرشهم ضعفاء اطمعوا الاقارب والاجانب . هذا فضلاً عن ان العرب لم يكونوا يلبون طوعاً دعوة الموحدين ، إذ كانوا لا يعترفون لهم بصحة خلافتهم . وكما انتقض عمالهم عليهم في افريقية : فاستقل في تونس زكريا بن ابي حفص ، وفي الجزائر يغمر بن زيان ، وفي مراكش بنو مرين Merinides . وكلهم من البربر ، كذلك انتقض عليهم سادة العرب في الاندلس ، واجمعوا الرأي على اخراجهم : فثاروا في وقت واحد ، وفي طليعتهم محمد بن هود الجزامي صاحب مرسية Murcie ، واعلن استقلاله (٦٢٥ ﻫ = ١٢٢٧ م) واخذ يخطب للعباسيين . وكان هذا الخصام القومي الدائم بين العرب والبربر من اكبر العوامل التي سهلت ضياع الاندلس،بالاضافة الى التنافس المستمر على الزعامة بين سادة العرب انفسهم .

عصر العرب الاخير في الاندلس

٦٢٥ – ٨٩٧ ﻫ – ١٢٢٧ – ١٤٩٢ م

لما انفرط عقد دولة الموحدين ، وادعى الخلافة الامير زكريا الحفصي في تونس ، وهو من البربر ، بويع الشيخ محمد بن الاحمر الخزرجي بحصن ارجونة من اعمال قرطبة (٦٢٩ – ٦٧١ ﻫ) واطاعته جيان وشريش . وكأنه كبر عليه ان يرى ابن هود ، الذي استقل بمرسية وقتئذ ، يتمتع بالزعامة بين عرب الاندلس ، فنهض لمحاربته مستعيناً عليه بفرديناند الثالث ملك قشتالة . ثم لم يظفر ابن الاحمر بابن هود إلا بعد أن أتاح للاسبان فرصة الاستيلاء على خيار البلاد : قرطبة (٦٤٥ ﻫ= ١٣٤٧م) ، وجيّان ، واشبيلية (٦٤٦ ﻫ = ١٢٤٨ م) ، والقالاAlgala وقادس Cadis والقرفا Algarva (٦٥٢ ﻫ = ١٢٥٤ م) ومرسية Murcie (٦٩٥ ﻫ = ١٢٦٦ م) . اما بنو الاحمر ، الذين شنوا هذه الحرب على اخوانهم العرب ، فقد

اكتفوا من الغنيمة بالسلامة عند ساحل البحر: في غرناطة (١٢٣٢م) بجنوب اسبانيا.

وكانت مساحة هذه الدولة ضيقة جداً وذلك بالنسبة لشهرتها الواسعة: إذ كانت تبلغ، ما بين رندة غرباً، والبيرة شرقاً، مسافة عشر مراحل فحسب، ومرحلة واحدة من الشمال الى الجنوب. (أي ما يقابل ١١٠ اميال طول و٧٥ ميلاً عرض). أما السبب في تلك الشهرة الواسعة التي احرزتها دولة بني الاحمر، على ضيق رقعتها، فيعود لانها كانت مهجراً لمسلمي اسبانيا: فقد جاؤوها من ممالك عدة اشتهرت كل منها بفن اوصنعة او علم. ولا غرو إذا وجدناهم يفرغون فيها كثيراً من فنهم وصنعتهم وعلمهم ليجعلوا منها وطناً جديداً عامراً بالحضارة، وزاخراً باسمى مواهب العرب ومعارفهم الفياضة. هذا فضلاً عن ان ثغري البيرة ومالقا اصبحا، عهد بني الاحمر، من أعظم الثغور مكانة في عالم التجارة.

وأما دولة الموحدين، فبعد ان اخرجها سادة العرب من اسبانيا، انكفأت إلى مراكش، حيث ابتلى اصحابها بالانقسام ايضاً، وافسحوا المجال لبني مرين، الذين ظهروا في ضواحي المغرب، لان يزدادوا بأساً على بأس، يوماً بعد يوم، الى ان كانت سنة (٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م) فاستولوا على مراكش قاعدة الموحدين، ثم على سجلماسة؛ ودان لهم المغرب كافة. وبنو مرين هؤلاء هم من البربر ايضاً.

هذا ولما صار ملك غرناطة الى محمد الفقيه (٦٦١ - ٧٠١هـ = ١٢٦٢-١٣٠١ م) التمس الفرج ايضاً من جانب المغرب، فاستنجد بالسلطان يعقوب عاهل بني مرين الذي لم يخيبه. واجتاز السلطان البحر الى الاندلس، وهو مصمم النية على ان يستعيدها خالصة للمسلمين؛ غير انه اصطدم فيها بمتاعب لم تكن في الحسبان؛ وقد نشأت هذه المتاعب عن اختلاف وقع بين ابن الاحمر وابن اشقيلولة صاحب مالقة أفضى لانكماش ابن الاحمر وتراجعه عنه؛ والى عقده اتفاقية مع الاسبان. وبلغ من جهالة ابن الأحمر ان وقّع على عهدة مع ملك قشتالة تقضي بالتعاون لدفع السلطان عن الاجتياز مرة أخرى إلى الاندلس. واستمالا اليهما صاحب الجزائر. ولكن السلطان كان أعظم همة من أن تقف في وجهه هذه الصعاب، فاجتاز إلى الاندلس عنوة مرتين أخرتين، وما زال النصر حليفه حتى خضع له الملك سانش ملك قشتالة، وعقد معه معاهدة استعاد بها المسلمون كرامتهم (٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م). غير ان هـــذه الوثبات البدوية لا يكون مصيرها سوى الزوال السريع اذا لم تعززها دعوة دينية. وهذا ما حدث بالذات، في ذلك العام، على اثر وفاة السلطان يعقوب: فقد ابتلي بنو مرين بمثل

ما ابتلى به غيرهم من الانقسامات الداخلية ، فسهلوا للاسبان الفرصة للتحرر من هذه المعاهدة ، لا سيما بعد ان انتصر الملك الفونس الحادي عشر على بني مرين في موقعة طريفة (١٣٤٠ م) Tarifa ، فشرع هذا يقتطع الاندلس كورة كورة ، وثغراً ثغراً .

أما بنو الاحمر في غرناطة فقد عادوا للاتفاق مع ملك قشتالة ، خصوصاً بعد وفاة السلطان يعقوب ، واذ لم يصدق الاسبان في مسالمتهم اصبحوا يتقلبون بين الفريقين : فتارة يكونون مع الاسبان ، وأخرى مع بني مرين . وخلال ذلك كانوا يتمتعون احياناً باستقلالهم الناجز ، كما حصل ايام ابي الوليد اسماعيل ، والمغنى بالله محمد ، وذلك في القرن الثامن للهجرة ، أو يخضعون بعض الاحيان لنفوذ قشتالة وسلطتها .

وحدث بعد المغني بالله انقسام داخلي في غرناطة كاد يلقيها في احضان الاسبان. ولكن بني الاحمر قدرت لهم السلامة ، في ذلك الوقت ، من جراء الانقسام الذي أصاب مملكة قشتالة ، حول التاج ، ومن جراء خصام آخر وقع بين ممالك الاسبان نفسها. ولما صار الملك الى ابي الحسن علي (٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م)، وكان قد أحسن الاستعداد، هادنه الاسبان وهابوه. ولكن هذا العاهل كان ، على حزمه ، قصير النظر: فقد ظن ان الفتن بين الاسبان لا نهاية لها ، فاعتزل الناس واستسلم الى الملذات. وهكذا تفاقمت المظالم في ايامه . وانه لفي لهوه ، لا يحسب للدهر حساباً ، إذ اتحدت اسبانيا بزواج فرديناند ، ولي عهد اراغون ، بايزابلا ملكة قشتالة ، وكان اتحاداً لم يفض الى رفع الخلاف بين الاسبان فحسب ، بل جمع كلمتهم ، وحدا بهم لاستئناف حروبهم التقليدية ضد المسلمين . وقد وجه فرديناند رسولاً الى عاهل غرناطة يطلب اليه الجزية ، فما كان من ابي الحسن إلا أن جابهه بقوله : « قل لاسيادك ان سلاطين غرناطة الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا من زمن ، أما الآن فان دار ضرب النقود لم تعد تصنع إلاّ نصال السيوف وحراب الرماح .»

وكان هذا الجواب بمثابة اعلان حرب بين الفريقين . وفضلاً عن ان التوازن بين القوتين كان معدوماً ، فقد زاد الخرق اتساعاً تنازع عائلي حدث بين السلطان المشار اليه ، وبين أخيه الزغل من جهة ، وبينه وبين ابن اخيه ابي عبدالله من جهة ثانية . فكانت حروب داخلية مهدت السبيل لتقدم ملك اسبانيا نحو غرناطة ، حتى اذا تمت الغلبة لابي عبدالله ، وذلك بمظاهرة الاسبان ، على عمه

سلطان غرناطـــة فاجأه فرديناند بطلب نزوله عنها ؛ ولما أبى ضيق عليها الحصار الى ان سلمت جوعاً (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) . ولقـــد تعالت اصوات المسلمين اشفاقاً على خسران البلد الاخير من اسبانيا ، التي أهلت وعمرت بهم ثمانية قرون، ودوت احتجاجاتهم من كل صوب على نكث الاسبان بالعهود، وعلى ما أتوه من المنكرات ضد المسلمين،ولكن صوتاً واحداً استمر يدوي حتى الآن ، هو صوت والدة ابي عبد الله آخر سلاطين بني الاحمر اذ رأت ولدها يلتفت الى غرناطة ويبكي حين غادرها الى جبـــال البشرات Sierra maurina فقالت له : « ابكِ كامرأة على ملك لم تستطع ان تحتفظ به كرجل » .

الجلاء عن اسبانيا

لقد راعى الاسبان، في اول الامر، شروط الصلح التي عقدوها بينهم وبين غرناطة حين استسلامها لهم ؛ ولكنهم لم يلبثوا الا بضع سنين حتى عمـــدوا للتضييق على المسلمين واليهود، لا سيما في عهد الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ – ١٥٩٨م)، وشددوا في اكراههم على اعتناق النصرانية. وقد أحرجوهم كثيراً حتى اخرجوهم ، فثار المسلمون طويلاً، واستنجدوا بسلطان تركيا سليم الثاني . فلم ينجدهم . وكان فيليب الثاني يحسب حساباً كبيراً لآل عثمان ؛ فلما تغلبت اساطيل الدول المتحدة ، وفي جملتها اسطوله على عمارة تركيا ، وذلك في الموقعة المعروفة بليبانته lepante (١٥٧١ م) أمن فيليب، المشار اليه، جانب تركيا ، وهي النصير القوي الوحيد الذي ترجى نجدته لمسلمي اسبانيا ، فاسترسل في اضطهادهم ، والفتك بهم. واخيراً اصدرت اسبانيا أمراً (١٠١٨ هـ = ١٦١٠ م) بان يختاروا بين التنصر وبين الجلاء . فتنصر معظمهم ، وشدد الاسبان البحث عمن كان يقيم الشعائر الاسلامية سراً ، وأحرقوا من اشتبهوا به ، واخرجوا البقية الباقيـــة منهم بمن كانوا قد التجأوا الى الجبال . وأما الذين اختاروا الهجرة، فقد قرر الراهب بليدا Bléda « ان الذين قتلوا منهم خلال مبارحتهم اسبانيا بلغ عددهم حوالي ثلاثة أرباع المهاجرين ، ولم يسلم منهم سوى الربع » .

وقـد انتشر الذين سلموا ما بين تلمسان ووهران وتونس والمملكة العثمانية . واحصى سديو وغيره عدد الهالكين من المسلمين والعرب ، منذ فتح فردينـــاند غرناطة حتى جلاء العرب الاخير ، بثلاثة ملايين ، كانوا يشكلون الطبقة المثقفة العاملة في اسبانيا . وان خسارة هذه الطبقة ، التي لقبها كوستاف لوبون بالارستوقراطية المفكرة ، هي التي أوحت اليه قوله : « ان حضارة اسبانيا كادت تكون في حيز العدم ، ولكنها بالعرب قد اصبحت حضارة متلألئة وضاءة . اما بعد العرب فلاشيء غير انحطاط عميق » .

حضارة العرب في اسبانيا

وفق العرب لانشاء حضارة زاهرة في الاندلس اتخذت لوناً خاصاً مستمداً من المحيط وتراثه ، ومن مزيج العناصر الاسيوية والافريقية والاوروبية . وسنتكلم في هذا القسم على كل من الثقافة والاقتصاد والاجتماع ، وهي ، كما لا يخفى ، قوام المدنيات ؛ كما سنتكلم على العمران والرخاء ، وهما من المظاهر القوية للحضارة .

تطور الثقافة في الاندلس

الثقافة عهد الولاة : لم تتمتع الاندلس ، في هذا العهد ، بالاستقرار الذي من شأنه ان يفسح المجال للتفكير في الناحية الثقافية . وكان الادب العربي ، على العموم ، صورة عن ادب العرب في الشام ، وهو ادب الجزيرة العربية المطبوع بصفاء الطبيعة ، والبعيد عن جمال الصنعة .

. . . . .

الثقافة في العصر الاموي : يعتبر آخر عهد الامويين بالشام بداية عهد العناية بالثقافة وتدوينها ؛ ويعتبر العباسيون قدوة لسائر الحكومات الاسلامية في صعيد تعزيز العلم واهله ، وفي جملتها دولة اموي الاندلس .

هذا ورغم المشاغل الكبرى التي تعرض عادة للملوك المؤسسين فان عبد الرحمن الاول ، وهو الشاعر المطبوع ، لم ينس واجبه ، حيال الثقافة ؛ بل اجتهد في نشر العلم والادب ، وكان له الفضل في وضع الاسس لتلك النهضة الفكرية التي جعلت اسبانيا ، من بعد ، منارة للعالم هذا . ولما استقرت احوال البلاد ، ونفر الاندلسيون الى المشرق لاداء فريضة الحج ، أو لطلب العلم ، نقلوا الى بلادهم اكثر ما صنف في علوم اللسان والدين . ثم ان الظروف اتاحت فرصة ارحب لهشام بن عبد الرحمن الاول ، فانصرف بكليته الى خدمة الثقافة ، ونشر اللغة العربية ، حتى عمت الاندلس ، وشرع القوط الاسبان يعتمدونها بدلا من اللاتينية .

وكان عبد الرحمن ، الثاني متضلعاً في الفلسفة والفقه ، ويجيد الشعر والموسيقى ؛ فقرب منه أهل العلم والادب والفن ، واجزل لهم في العطاء ، حتى انه لما قدم زرياب الموسيقي من العراق خرج بنفسه لاستقباله . ولما انتهى امر الدولة الى

عبد الرحمن الثالث ، وكانت قد بلغت عنفوان الشباب ، اصبحت مظاهر القوة تبدو على كل ناحية من نواحي حياتها ، بما في ذلك ناحية الثقافة . وجاء هذا العاهل عقب عهد المأمون ، محيي النهضة العلمية في العراق، فرغب في ان يعدّ قرطبة لتكون على اهبة منافسة عواصم العالم في الازدهار ، وان تبزّ الاندلس بقية الامصار ، وخاصة في النواحي الثقافية . وقد تحققت له هذه الرغبة بما وفر من المتأدبين في ايامه ، وبما انفتقت قرائحهم حتى صاروا ينشدون الشعر ارتجالا . وكان على رأسهم ابن هاني الملقب بمتنبي المغرب .

والى هذا فقد اصابت المرأة حظاً من الأدب موفوراً، وكان من شهيرات هذا العصر حفصة ابنة حمدون، والغسانية . بل ان روح العصر ، التي تشبعت بمحبة المعرفة والفن ، قضت بان يصبح الادب من قبيل الحلية الضرورية للناس كافة ، فاقبل عليه الجواري والسراري اقبالهن على الموسيقى ، واخذ منه غلمان القصور نصيباً حسناً ، واصبح لهم فيه ، على رواية صاحب نفح الطيب ، عدة مؤلفات . وكان الاندلسيون قد اجتازوا الى دور الفلسفة منذ ايام عبد الرحمن الثاني ، واشتهر بها وقتئذٍ ابو عبيدة مسلم . ثم انهم ازدادوا عناية بها عهد عبد الرحمن الثالث .

وقد ذاع صيت يحيى القرطبي في ذلك العهد ، وابي القاسم المرحيطي ، وكانت له شهرة في العلوم الرياضية . وترك عبد الرحمن الثالث آثاراً خالدات في ناحيـة المعاهد، والمراصد، والبيمارستانات، والمكتبات ؛ وفي جملتها مدرسة قرطبة الطبية ، ومكتبتها الـتي كانت تضم نحواً من اربعمائة الف مجلد خطي ؛ على ما ذكر ابن خلدون ، والمغربي .

واذا رأينا حكومة اسبانيا تحتفي سنة ١٩٢٩ م بذكرى هـذا العاهل العظيم بمناسبة مرور الف سنة على تأسيس مدرسة قرطبة الطبية ، فما ذلك إلا لانهم يقدرون فضل هذا المعهد الذي تخرج منه اساتذة اوروبا الاولون ، ومشاهير اطبائها .

وقد اتاحت الظروف للحكم الثاني ان يفوق اباه في العناية بالثقافة حتى بلغ منه انه انصرف عن السياسة اليها ، والى العناية بمعاهدها المختلفة . ولا جرم فهو من العلماء ، ولعله أعظم عالم بين الخلفاء . وقد اصبحت قرطبة في ايامه وسطاً علمياً فنياً صناعياً تجارياً لا يمكن عدها ، على ما يقول كوستاف لوبون ، الا بمستوى عواصم العالم الكبرى في العصر الحاضر . فقد ابتنى الحكم في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية ، واجرى المرتبات على اهل العلم . وتحت اشرافه تألفت فيها جمعية

العلماء على أسلوب الاكاديميات العلمية المعاصرة وقامت ؛ فيها المكتبات العامة المختلفة ، وكان اعظمها مكتبة قصر الخليفة . وقيل انها كانت تضم ستماية الف مجلد ، ويبلغ عدد فهارسها اربعة واربعين مجلداً .

ويقول دوزي عن هذا العهد ، انه « لم يكن يوجد وقتئذ بالاندلس رجل أمي ، بينما لم يكن في اوروبا من يلمّ بالقراءة والكتابة ، الا كبار القسس . »

وقد جرب بنو عامر حجاب الدولة ، الذين اغتصبوا السلطة فيما بعد ، ان يحافظوا على رعاية جانب العلم . ولكن الحوادث السياسية لم تبق لهم متسعاً لهذا المطلب من جراء تعاقب الفتن والحوادث المفجعة ، ومع ذلك فان قوة الاستمرار ، بالاضافة الى تمكن الثقافة في نفوس الشعب ، قد كفلت لهم بقاء الازدهار العلمي طويلاً في الاندلس ، حتى كان فيها ، (اواخر عهد الامويين) حينما اصبحت السلطة في حوزتهم ، سبعون مكتبة عامرة . وقد ظهر خلال هذه الحقبة علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤م) صاحب الشهرة الواسعة بالمؤلفات الدينية الكثيرة والمنطق ، فضلا عن مؤلفاته في الادب .

الثقافة عهد ملوك الطوائف : ليست ايام ملوك الطوائف سوى ذيل للعصر الاموي : ففيها كانت بداية نضوج حضارة الاندلس ، وخلالها نبغ الوف العلماء في مختلف العلوم والفنون ، حتى كادت الاندلس ، في ذلك العهد ، تضارع المشرق ، أو تفضله في بعض العلوم . وممن أصاب شهرة واسعة وقتئذ ابن خفاجة أشهر وصّاف في الطبيعة ، والفتح ابن خاقان المؤرخ الكاتب ، والخازن العالم في الطبيعيات .

وقد قال المسيو شارل اكبر علماء الطبيعيات باوروبا : « ان تعاليم الخازن هي اساس كل ما نعرفه الآن عن البصريات » .

ويعود كثير من الفضل ، في هذا الازدهار الثقافي وقتئذ ، الى ماحدث بين ملوك الطوائف من التنافس في تقليد الخلفاء ، وخاصة من حيث تعزيز العلم واهله ، فضلاً عن تناظرهم شخصياً في تحصيل الاداب والفنون . وهذا التناظر جعل منهم الادباء والمؤلفين والمؤرخين ، نخص بالذكر منهم زعيمهم السياسي المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، والوزير احمد بن زيدون . واذا نوهنا بفضليات النساء في تلك الحقبة فلا يفوتنا ذكر الولادة ابنة الخليفة المستكفي .

الثقافة في عصر البربر : حسب بعض المؤرخين ، ومنهم كوستاف لوبون ، ان الحضارة العربية اصابها الذبول خلال دولتي المرابطين والموحدين . والواقع ان هذه الحقبة كانت حقبة نضوج بالنسبة للتمدن العربي ، لا سيما ايام عبد المؤمن ، ويوسف ، ويعقوب من سلاطين الموحدين .

ومن اظهر خصائص هذا العهد تشوف المغرب لمضاهاة الاندلس ، ومنافستها في كل محمدة . وكما كانت مدائن اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية وطليطلة عامرة بالمكتبات العامة ، غنية بالمعاهد العلمية ، حافلة بمجالس الادب ، كذلك كانت سبتة وطنجة وفاس ومراكش ؛ وهي تحاول اللحاق بها في هذا المضمار ، وتتمنى منافستها .

وأشهر علماء العرب في الاندلس والمغرب هم الذين عاصروا هذا العهد ، ومنهم الفلاسفة ابن زهر Avenejoas وولداه ، وابن رشد Averroes ، وابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن ميمون الاسرائيلي . ومنهم الجغرافي ، والجراح الزهراوي ، والطبيب ابو عبدالله المالقي ، والزراعي ابن العوام ، والصيدلي النباتي ابن البيطار . ومنهم الفلكيون والرياضيون : مسلمة المجريطي ، وابن راجل ، وابن ابي طلحة .

وكان لبعض علماء تلك الحضارة اشتراك في علوم كثيرة : فالفيلسوف كان يضيف الى الفلسفة شهرة اخرى ببعض العلوم ؛ كابن زهر الفيلسوف الذي كان جراحاً ايضاً ، وله في هذه الصنعة اكتشافات ؛ وابن رشد ، الفيلسوف في قرطبة ، فكان من كبار علماء الفلك والمؤلفين فيه ، كما كان طبيباً ايضاً ؛ وابن ميمون اشتهر بالفلك والطب اشتهاره بالفلسفة .

وقد ظهر ، خلال ذلك ، كثيرات من المتأدبات ؛ وخص المقري قسماً من كتابه نفح الطيب بالنساء الشهيرات « كي يعلم ان البراعة في اهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم » . والى هذا فقد تجلى في هذا العهد الطرب للشعر ، والتفنن بالشعر : فظهر اصحاب الموشحات ، وعلى رأسهم ابنا زهر ، وابو بكر ، وابن سهل ، وابن باجة ، والاعمى التطيلي . ولعل هذه الحياة الزاهرة الطلقة التي كانت تسبح في لججها دنيا الاندلس لم تكن تتفق مع مبدأ التصوف . والدليل على ذلك ان محي الدين ابن عربي ، امام ذلك العصر في التصوف ، لم يطب له البقاء في اشبيلية فرحل الى دمشق .

وجدير بالذكر ايضاً ان الادريسي اصطنع لمخدومه روجار الثاني ملك صقلية كرة الارض من فضة ، واشار في شرحه عليها الى وجود قارة وراء المحيط الاطلانتيكي ، وفقاً لما يقتضيه ناموس التوازن . ولذلك كان مكتشفو امريكا ،

كغيرهم ممن سبقهم، في هذا السبيل ، من العرب، مدفوعين بسائق فكرة وضعهـا الادريسي ، وآمنوا هم بصحتها ، فاستحبوا التضحية في سبيل تحقيقها .

. . . . .

الثقافة في عصر غرناطة : استقبلت دولة بني الاحمر جاليات الاندلس ، التي هاجرت من ديارها بعد ان احتلها الاسبان، فظهرت بهم، على صغر حجمها، بمظهر رائع من الثقافة والفن. والواقع ان نتاج العقل العربي، خلال هذه الدولة، كان عبارة عن زرع اجيال . وكان عواهل بني الاحمر انفسهم قد اصبحوا في مستوى رفيع من التمدن اتاح لهم حسن الاختيار في التوجيه ، فعرفوا كيف ينشطون العلوم والاداب والفنون ، وكيف يضعون لها الاساليب العلمية . وفضلاً عن ذلك فانهم اشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العلمية ، وقيدوا الفقهاء بانظمة شرعية مدنية ، وسنوا للاحكام انظمة ادارية اشبه شيء بالقوانين العصرية ، فكانوا بذلك ، نموذجاً للتمدن الحديث في التنظيم والاصلاح .

هذا الى ان غرناطة فتحت صدرها ايضاً للشعراء الملهمين ؛ وكانت آلهة الشعر قد استقرت من قبل زمناً طويلاً في قرطبة ، عقب اشبيلية ، فزها الشعراء في كنف بني الاحمر ؛ ولا سيما باصحاب الموشحات ، امثال ابن الخطيب ، وابي عبدالله ابن زمرك ، واحمد بن علي اللخمي . وكانت للمرأة مشاركة طيبة في الاداب العربية ، في ذلك العهد الذي جمع بين النار والنور .

ولما اجلي المسلمون عن اسبانيا عنوة وكرهاً، وأمر الكردينال خيمانس Ximénes باتلاف مؤلفاتهم، واحرق في جملة ما احرق، منها في غرناطة ثمانون الف كتاب عربي خطي ، خسرت الحضارة الانسانية ما لا يقدر بثمن من الكنوز العلمية . وقد ازدرى كوستاف لوبون هذا العمل، بل هذه الجريمة ، فقال: « كان (الكردينال) يظن انه يستطيع ان يمحو الى الابد من سفر التاريخ ذكرى خصوم عقيدته ؛ ولكن الاعمال التي غطى هؤلاء بها وجه الارض تكفي لتخليد اسمهم ، فضلاً عن اثارهم الخطية » .



حالة اسبانيا الاقتصادية عهد العرب

٢

لقد قدر دخل الدولة في اثناء حكم عبد الرحمن الثالث باثني عشر مليوناً وخمسة واربعين الف دينار ، خلا غنائم الحرب والجزية . وهذا دخل ، وان بدا لابن العصر الحاضر ذا قيمة زهيدة ، فهو في الواقع ، عظيم القدر بالنسبة لغلاء النقد في ذلك الزمن . على ان هذا الدخل ، وان كان يوازي نصف موارد خزينة الدولة العباسية على وجه التقريب ، فهو يدل على ان الحالة الاقتصادية في الاندلس كانت ، على وجه عام ، خيراً منها في بلاد العباسيين ؛ وذلك اذا اخذنا بعين الاعتبار ما كان بين مساحتي المملكتين من الفرق الكبير في الاتساع . ولا شيء أبلغ ، في تبيان ثروة الاندلس ، مما رواه ابن حوقل ؛ فقد ذكر انه اجتمع نحو اربعين مليون دينار في خزينة الدولة عهد الحكم بن الناصر ، واردف هذه الرواية بقوله : « وعدّ هذا كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول » .

(**التجارة**) — ولت الدولة العباسية وجهها ، في تجارة البحر ، شطر المحيط الهندي ؛ وفي البر شطر أواسط آسيا . فكان تجارها وسطاء بين الشرق البعيد ، وبين كل من الامبرطورية البيزنطية واوروبا الشمالية ؛ واستعانوا بنهر الفولكا في روسيا . وكما اهمل العباسيون جانب الغرب في الناحية السياسية ، كذلك أغفلوه ايضاً في الناحية التجارية ، وتركوا لبني الاغلب اصحاب تونس ، وللامويين في قرطبة ، زمام تجارة البحر المتوسط . وقد أصبح هذا البحر في القرن التاسع للميلاد كبحيرة عربية ، يستحوذ على التجارة فيه كل من بني الاغلب ، واموبي الاندلس . ثم تفرد بها الاندلسيون في القرن التالي : وازدهرت التجارة في هذا البحر ازدهاراً كبيراً ، لا سيا بعد انتشار الاسلام في أواسط افريقيا ، ودخول كثير من امصارها تحت سلطة الاندلسيين ؛ فكانت مراكبهم التجارية تغادر مالقة Malaga ، وبرشلونة Barcelone ، وقادس Cadix ، فتنتشر انتشار الفراش في البحر ، وترتفع أشرعتها كالمنائر في مراسي افريقيا الشمالية والغربية . وكانت هذه المراكب تارة تهوي الى جنوب افريقيا ، وطوراً ترتفع شمالا الى فرنسا ، وتلف حولها في البحر الاطلانتيكي.

وكما افضى نجاح الزراعة والصناعة في الاندلس ، بصورة طبيعية ، الى رواج التجارة ، كذلك رأينا الخلفاء الامويين في قرطبة يوجهون عنايتهم ايضاً الى تعزيز التجارة ، وتسهيل شؤونها . وقد بدأ ذلك مؤسس الدولة عبد الرحمن الاول ،

فبذل جهده في ابتناء المرافيء وتخطيط طرق المواصلات ؛ وعني سميه عبد الرحمن الثاني بالبريد، فنظمه أحسن تنظيم؛ حتى اذا صار الملك لعبد الرحمن الثالث، واصبحت الاندلس ، في عهده وعهد ابنه الحكم ، زعيمة العالم في العمران والثروة ، بلغت التجارة الذروة، واخترقت الحدود الاسبانية الى سائر العالم ، وكانت في جملة ذلك، تجتاز فرنسا الى اواسط اوروبا ، وتمتد في روسيا الى بحر جرجان .

ثم جاء دور انحطاط الدولة الاموية، ومن شأن الانحطاط ان يعرقل سير الاعمال التجارية . وانتهى هذا الدور بقيام ملوك الطوائف، وما رافقه من انقسام وخصام. ولم تستعد التجارة مكانتها الا خلال فترة الاستقرار ، وذلك أيام المرابطين والموحدين .

هذا الى ان اتصال الاندلس سياسياً بمراكش وفاس ، في ذلك العهد، كان مما ساعد على ازدهار التجارة فيها؛ ويذكر للسلطان يعقوب رجل الموحدين، الذي حاول ان يعيد للاندلس مكانتها التي كانت لها ايام الامويين، اهتمامه بتسهيل طرق القوافل ؛ وذلك بحفر الآبار في الطرق العامة ، وانشاء الفنادق ، والمنازل للمسافرين . ولكن الجيلين اللذين حكم البربر فيهما الاندلس ، كانا ، في الواقع ، قليلي الاستقرار : ذلك لان الحملات الصليبية على الشرق الأدنى ، التي عاصرت عهد البربر في الاندلس، قد يسرت للصليبيين ، بعد حين، السيطرة على البحر المتوسط، والقبض على زمام التجارة فيه . هذا الى ان دولة بني الاحمر ، وان أتيح لها ان تجعل مملكة غرناطة غنية بالموارد الاقتصادية، فقد عاصرت زمناً سجل مبتداه خروج زمام البحر المتوسط من قبضة العرب ، وامتلائه بالقرصان على اختلاف نحلهم ؛ ثم اصبح في منتهاه يرزح ، تحت سلطة البندقية والاسبان والبرتغال . وقد ازدادت الحالة الاقتصادية في البلاد العربية سوءاً على سوء بعد اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح (٩٠٣هـ = ١٤٩٧ م) ، وتحول طرق التجارة الى سبيل آخر جديد .

(الزراعة) – هاجر مؤسس الدولة الأموية من الشام . ولكن دمشق وغوطتها وسائر جنان وطنه الاول ما زالت تتمثل أمام عينيه . وكان يحن شوقاً اليها ، ويود لو انه ملاقيها في وطنه الجديد . وقد أوحت اليه هذه العاطفة الملحة أن يباشر برنامجه الاقتصادي بالعناية بالزراعة . وكأنه أراد أن يكون بمثابة القدوة لقومه فأنشأ بستاناً عظيماً جمع فيه عدداً لا يحصى من أنواع النبات ؛ وأرسل وفوداً إلى الشام ومصر والعراق وسائر المشرق لجمع بذورها النادرة ، وأغراسها الفاخرة . وابتنى للماء العذب قناة تحمله إلى العاصمة وجنائنها . ثم حبّب إلى خلفائه مثل ما

حبّب اليه، حتى ان هشام بن عبد الرحمن أدوج في الوصية، التي وجّهها لولده الحكم، التوصية بالفلاحين خيراً، وقال: « انظر إلى الفلاحين، الذين نقتات من نتائج اشغالهم، وراعهم وتفقد مزارعهم ومحصولاتهم تتمتع الرعية بخيرات الحياة في ظلال سلطانك. » على أن أشدّهم اعتناء بالتشجير واصلاح الريّ والزراعة كان عظيم الأمويين، عبد الرحمن الثالث؛ فقد شاء هذا العاهل أن يقيم اصلاحاته الزراعية على أساس علمي، فعهد إلى لجنة من العلماء تعريب كتاب ديسقوريدس في النبات. وكما كان قصر الزهراء، الذي بناه في قرطبة، تحفة التحف، فان البساتين العديدة، التي أنشأها حوله كانت جنة الجنان. ولم يكن في المغرب كله من منظر أجمل من جبل العروس، الذي يقع شمال القصر، ذلك الجبل الذي كان، بتينه ولوزه وسائر أشجاره، كأنه قطعة من الجنّة، لا سيما في اثناء تنوير الأزهار. وقد قلدت الخاصة عواهلها في العناية بالزراعة، وجرت العامة مجرى الخاصة، فأصبحت الأندلس، بغياضها وحدائقها وبساتينها، كتاج رصّع بالزبرجد. وقيل ان الماشي في لشبونة Lisbone كان يسير مسافة أربعين ميلاً في الطول، واثني عشر ميلاً في العرض، تحت ظلال تينها وزيتونها. وقيل ان المرسية كانت تلقب بالبستان لوفرة جناتها. وأما المرية Almeria، الشهيرة بتوتها وحريرها وقرمزها، فقد كان ينبسط إلى جانبها واد يبلغ طوله أربعين كيلومتراً في مثل ذلك عرضاً، كله بساتين نضرة، وحدائق غنّاء، تنساب فيها أنهار وجداول.

وأما ضواحي اشبيلية Séville، المغطاة باشجار الزيتون، فكان فيها مائة ألف مزرعة ملأى بمعاصر الزيتون؛ كما أن إقليم فلنتية كان يكفي ممالك اوروبا الجنوبية بثماره الطيّبة. واشتهرت شنترة بجودة أرضها ونتاجها. قال عبدالله الباكوري، وكان ثقة على رواية بعض المؤرخين: « ان رجلاً من أهلها أهدى إلى المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية) أربعة من التفاح دور كل واحدة خمسة أشبار ».

وفي الواقع فان الفضل الأكبر في هذا الخصب إنما يرجع إلى العناية بالزراعة. فأهل الأندلس كانوا، على رواية بعضهم، أول من احتفر الترع للري، واحكموا ترتيبها؛ ولا تزال آثارهم قائمة في سهل هوسكاة بجوار بلنسية، وسهل ويغات على مقربة من غرناطة. فقد أقاموا سداً عظيماً لنهر طونه، الذي يجري في سهل هوسطاة، له سبعة جداول، ولكل جدول اقنية، ينسكب الماء منها إلى كل مربع من السهل. حتى أصبح جديراً بان يلقب ببستان اسبانيا. وعدا ذلك فقد ادخل

العرب إلى إسبانيا كثيراً من الأشجار والنباتات التي لا عهد لهـــا فيها : فالأرز والقطن وقصب السكر وتوت الحرير والنخل والفستق والموز، بالاضافة إلى الازهار الجميلة، مثل الكاميليا وورد بابونيا وغيرها، كلها من زرع العرب في اسبانيا . ولكن زراعة الأندلس في أيام الانحطاط، منيت بمثل ما منيت به التجارة، من البوار، لاسيما في أواخر عهد الموحدين ؛ ولا بدع فالبلاد التي تصبح ميدان حرب لا تجني الا الاشواك. وهكذا فقد اشتد القحط في تلك الأمصار الخيرة بسبب الحروب، واستمر سنوات ٦١٤ هـ = ١٢١٧م و ٦٢٤هـ = ١٢٢٧ م و ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢م . واشتد الغلاء والوباء ايضا، في العام التالي حتى اكل الناس بعضهم بعضاً ، على رواية ابن الاثير ، وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من هلكى الجوع .

غير انه لما استتب الحال لبني الاحمر عند سيف البحر، استعادت الزراعة مكانتها في مملكتهم الصغيرة مدة قرنين ونصف القرن؛ ولكنها كانت يقظة الاحتضار، فما لبث العرب ان أجلوا عن اسبانيا ، ولم تقم من بعدهم فيها للزراعة قائمة .

(**الصناعة**) ــ لما شاء امويو الاندلس منافسة العباسيين في ناحيتي المدنية والعمران استفادوا من جهود جيلين قبلهم بذلها أهل المشرق من قومهم في هذا السبيل ، واستعانوا بتقليدهم . وقد عمدوا إلى الاصلاح في كل ناحية ، وهدفهم بلوغ ما هو أجـــدى وأحسن، فكان تقدمهم سريعاً ، وكانت حضارتهم زاهرة . وساعد الاختلاط بين أهل المغرب وأهل المشرق على نضوج هذه الحضارة عاجلًا في اسبانيا: فكان المغاربة يقصدون الى المشرق، اما للحج ، او لطلب العلم، اوتفقـــداً للاهل والوطن الاول الذي لا يزال خالداً في مخيلتهم . وكان المشارقة يفدون الى الاندلس ايضاً، ومنهم انصار بني أمية الذين كانوا يؤمونها فراراً من اضطهاد العباسيين، ومنهم قوميون كانوا يفضلون العز في ظل الامويين على استبداد الفرس، ثم الترك ، في كنف العباسيين، إلى ما هنالك من طلاب عيش ومرتزقين ، تجاراً كانوا أم صناعاً ، فنانين او موهوبين، طمعوا بالمكاسب في ظل مملكة متحفزة للنمو .

هذا إلى ان المعادن الوفيرة ، التي عثر عليها العرب في جوف الاندلس ، كانت بمثابة المادة التي استعانوا بها على بلوغ مطمحهم في الصناعات . ويقول سدّيو ان الاندلسيين استفادوا من معارف الرومان والفينيقيين واستعانوا بها على استخراج المعادن المطروقة ، والسائلة كالزيبق ، فضلًا عن الياقوت . كما انهم عنوا بالغوص على المرجان في سواحل الاندلس ، واللؤلوء في جوار طرقونة Taragone .

على ان ارتقاء الصناعة ، وان أصبح عامـــاً في ديار الاندلس ، إلا أن بعض المدن والامصار قد امتازت على غيرها بصنف منها ، او باصناف عدة عرفت بهـا . فكانت مالقة من اشهرها بصنع الفخار المحلى بالذهب ، وكورة باجة بدباغة الجلود وحياكة الكتان ، والمرية بالديباج والحرير ،وسائر انواع النسيج . وكان فيها الف نول للديباج ، وثمانماية نول للحرير . هــذا فضلاً عن شهرتها بالميكانيكيات ،وصنع الآلات ، والاواني من المعادن والزجاج . وامتازت قرطبة بصنع الاصناف الجلدية وكلمة Cordonnerie منحوتة من اسمها ؛ كما ان طليطلة تفوقت بصنـع نصال السيوف؛ وامتاز كل من غرناطة والمرية واشبيلية بالنسيج الحريري.وكان في اشبيلية ستة آلاف نول للحرير وحده .

هذا وقد اشتهرت فونسية ومرسية باجوافها اشتهار بلنسية بمعامل السكر ومطاحن الأبازير . واطرى جيرودوت دي برانجة J. de Berenger صناعـــة الزركاش التي اخترعها العرب ، وهي نوع من النسيج الذي تتخلله خيوط الذهب والفضة على رسوم وصور جميلة تظهر كأنها مرسومة بريشة مصور فنان . ولا تزال أنوال دمشق تخرجه للناس تحفة للناظرين (بروكار)

وكان الورق معروفاً من قديم ويصنع من الرق على الاكثر ،فيبدو نادراً وثميناً. ولكن العرب عمدوا الى خلقه خلقاً جديداً يستفيد منه الناس ، ولا سيما في تخليد ثقافتهم ونشرها .

فبدأوا في صنعه من الحرير ، ثم اكتشفوا طريقة اخراجه من القطن والكتان والتيل ،إلى أن دان لهم علم الكيمياء ، الذي يعتـــبر من موضوعاتهم ،فاخترعوا صناعة الورق من الخرق البالية . وقد اشتهرت في ذلك قشتالة Castilles ؛ وعنها أخذت أوروبا هذه الصنعة . وكان ينافس قشتالة ، في صنع الورق ، كل من شاطبة وبلنسية وطليطلة .

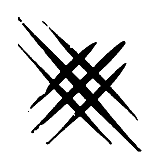
وارتقاء الصناعات في الاندلس إلى جانب تقدم العلم أفضى إلى تحفز موهبـــة الاختراع . وان المكتبات لحافـــلة بالمؤلفات التي درجت اختراعات الاندلسيين وسائر العرب . ولا يسمح لنا التزامنا الايجاز بالتعرض اليها ؛ غير ان الوفاء يقضي علينا ألا نهمل التنويه بعباس بن فرناس حكيم الاندلس ، مخترع المنقـــال لتحرير الاوقات ، ومكتشف صناعة الزجاج من الحجارة . وهو والجوهري أول من حاول الطيران . وقد أرادت مصر أن تخلد ذكرى هذا السبق فنقشت على قاعدة تمـــثال

أقامته بميدان الطيران في مصر الجديدة هذين البيتين :

إن يركب الغرب متن الريح مفتخراً ما قصرت عن مداه حيلة الناس
فان للشرق فضل السبق نعرفه للجوهريّ وعباس ابن فرناس

العمارة والفن : على أن أثر الاندلسيين الخالد في الصنعة والفن مداره العمارة ، وما تشمل من علوم في الهندسة والنقش والرسم . ونحن لا نبغي إطراءهم غير أن القلم إذا عجز عن إيفاء آثارهم حقها في ميدان الوصف ، فان النظر ليدرك لأول وهلة، في آثارهم التي لاتزال بقية منها باقية إلى الآن ، روعة تلك الآثار ، وعظمة الذين شيدوها ومهارتهم .

وقد قسم جيرودوت دي برانجه التطور الذي مرت به صنعة المعمار في الاندلس إلى ثلاثة عصور : العصر الاول وهو يتناول القرن الثامن الى العاشر ، وفيه كانوا يكثرون من الزخرف بالحصى المختلفة الالوان ؛ ويقيمون اقواساً ومنحنيات تمثل رسوماً هندسية غاية في الابداع . والعصر الثاني يمتد من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر؛ وفيه عني العرب بجمل البناء على الهندسة المغربية، واقبلوا على تزيين الجدر بالقيشاني ، وتفننوا في النقوش تفنناً عظيما ؛ واستعملوا الرخام الاصطناعي، وهو من اختراعهم. واما العصر الثالث فقد كان عصر النضوج. وفيه بلغت صنعة البناء الغاية في الاتقان والهندسة وجمال الوضع ؛ كما تشهد بذلك عظمة الحمراء .



عمران اسبانيا في عهد العرب
٣

توخى امويو الاندلس ان تضاهي مملكتهم بلاد العباسيين في العمران والتمدن ، بل ربما اعتزم بعضهم ان يرفعوا من الصروح والعمارة ما لم يسبقهم اليه خلفاء بغداد. فكان أحدهم يشرع ببناء مؤسسة ، ويموت قبل ان تتم ، ثم يتعاقب على اكمالها اكثر من واحد . ومن هذا القبيل ان عبد الرحمن الاول ، مؤسس الدولة ، كان قد شرع بتشييد قصر قرطبة الكبير ، وهو مجموعة قصور ودور على أروع ما يكون من الزخرف ، جرت اليها المياه من الجبال ، وتفرعت في ساحاتها ونواحيها ، وسكبت في بحيراتها وأحواضها بتماثيل صيغت من ذهب او فضة . وقد قصرت حياة الخليفة عن مدى الزمن اللازم لعمران هذا القصر ، فأتمه خلفاؤه . ومثل ذلك حصل في تشييد مسجد قرطبة : باشر به عبد الرحمن المشار اليه ، وانفق على بنائه ثمانين الف دينار ، ولكنه لم يكمل الا بعد ان تعاقب على بنائه ثمانية من الخلفاء بذلوا في سبيله ما لا يحصى من الاموال . فجاء آية من آيات الزمان . وهو اليوم كاندرائية تحمل اسم عذراء الصعود. وقصر الزهراء ، الذي كان يقوم على هضبة من هضاب جبل الشارات (سيراامورينا) على اربعة اميال من قرطبة ، قد قضى عبد الرحمن الثالث في تشييده خمس وعشرين سنة ، ثم وكل أمر اكماله الى خليفته الحكم ، فصرف ايضاً في هذا السبيل خمس عشرة سنة اخرى ؛ وقد أنفقا عليه أموالا عظيمة ، اختلف الرواة في تقديرها ما بين عشرين وخمسين مليون دينار. وليس قصر الزهراء ، في الواقع ، سوى مدينة مؤلفة من مجموعة قصور محلاة بالذهب ، مليئة بالتماثيل المذهبة والمرصعة ، تقوم على أعمدة من البلور الصافي والرخام على مختلف الوانه ، وتتخللها الاحواض البديعة ، والبحيرات الجميلة ، وتكتنفها حدائق غناء حافلة بمساكن الوحوش المختلفة ، واقفاص الطيور المتنوعة . وقد وصف المقريزي مجلس الخلافة في هذا القصر وصفاً بديعاً ، وذكر ، في جملة ما ذكر ، ان سقف القصر صيغ من الذهب والفضة ، وان أبوابه صنعت من العاج والابنوس المرصعين بالذهب ، وأصناف الجواهر. ولا تزال آثار هذا القصر ماثلة للاعين الى الآن ؛ وقد بوشر منذ سنة ١٩١٠م باجراء الحفريات فيه .

وشاء المنصور بن ابي عامر ، ديكتاتور الاندلس في خلافة هشام بن الحكم ، ان يتمثل بعبد الرحمن الثالث في الناحية العمرانية ، فابتنى في الطرف الآخر من قرطبة

منازل له ولحاشيته اسماها « الزاهرة » .. وهي قصور حصينة أقطع ما حولها لرجال الدولة . ولما تنافس الاعيان في النزول باكنافه قامت هنـــاك بلدة عامرة اتصلت ارباضها بارباض قرطبة ، كما اتصلت بالعاصمة ايضاً قصور الزهراء في الجانب الآخر . فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال يستظلون نهاراً بافياء القصور والحدائق ، ويستضيئون ليلاً بانوار السرج المرفوعة ؛ وهي كسلسلة ماسية تمتد على طول الشارع .

ولما جاء دور ملوك الطوائف حاولوا ان يعوّضوا عن ضعف حكوماتهم الصغيرة بتقليد أسلافهم الأمويين ، ان بالالقاب ، وان برفع القصور والمؤسسات النافعـة . فكان من آثارهم قصر طليطلة الذي بناه المأمون بن ذي النون . وكانت تتوسط هذا القصر بحيرة ذات قبة من زجاج منقوش ، تنسكب المياه من قمتها الى جوانبها بشكل هندسي رائع ، والمأمون جالس في داخلها . وقد وصفها ابو محمود البصري بقوله :

شمسية الانساب بدرية　　يحار في تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر دجى　　وهي عليه الفلك الدائر

وابتنى بنو هود في سرقوسة قصر السرور ، فجاء اسماً على مسمى ؛ هـذا فضلاً عن قصر بني عامر في اشبيلية ، وقصر الشراحيب في مدينة شلب ، من اعمال قرطبة ، وقصر المنصور بن الاعلى في بجاية ، وغيرها .

وقد توخّى الموحدون البربر ان يقلدوا العرب في كل محمـــدة ، فعنوا بتشييد القصور والمساجد والمؤسسات النافعة في اشبيلية وسواها ؛ فانشأ السلطان يعقوب مسجداً ذكرى للانتصار الذي احرزه في واقعة العرقوص ، بلغ ارتفاعـه ٧٢١ قدماً ، توج بكرة من الذهب قدرّ سدّيو كلفتها بمائة الف دينار .

ولا يزال القصر الذي شاده الموحدون في اشبيلية (١١٩٩ — ١٢٠٠ م) ورممه الاسبان عهد بطرس الصارم ١٣٥٣ م ، قائماً حتى الآن ؛ وهو والحمراء أنفس ما خلفه العرب في اسبانيا ومما يؤسف له ان هذا القصر أصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية التي وقعت قبيل الحرب العالمية الثانية .

وأما قصر الحمراء في غرناطة الذي رأى المعاصرون فيه ، رأي العين ، نموذجاً من فنون العرب في البناء ، فقد شرع ببنائـــه محمد الاول من بني نصر سنة ١٢٤٧ م وأتمه حفيده محمد الثالث سنة ١٣١٤ م . وكان حصناً يتسع لنزول اربعين الف مقاتل ، وفيه ثلاثة دور عظيمة ، تجلى فيها رونق الابداع العربي . وحسب الحمراء عظمة ان يكون الانكليز قلدوها بقصر شادوه في سيد نهام ؛ وهـذا القصر ، وان لم يضاه الاصل في

فنه وروعته ، الا انه مع ذلك يعتبر من أجمل المباني في العصر الحاضر .

على ان عمران الاندلس لم يقم على ما شيّده الخلفاء والملوك ورجال الدولة من قصور ومؤسسات عامة فحسب، بل قام على نهضة اجتماعية مدنية عامة تناولت لفيف الشعب بكامله . ولقد أتت على الاندلس مائة سنة شملت القرن العاشر للميلاد من مبتداه الى منتهاه، تقدم فيها العمران، وتمتع الناس فيها برخاء قلما يجود بمثله الزمان؛ فترفهوا واسترسلوا في البذخ .تلك هي ايام عبد الرحمن الثالث الاموي، وابنه الحكم الثاني، وحفيده هشام .

وكانت العاصمة قرطبة ، تمتـد على ضفة الوادي الكبير مساحة تناهز ١٤٤ ميلا مربعاً (بينما ان مساحة لندن تقدر بـ ١٧٧ ميلا مربعاً فقط) ، وتضم بين جنباتها ٧٠٠ مسجد و٣٠٠ من الحمامات العامة ، فضلاً عن المكتبات الكبيرة والمدارس، وهي بحدائقها المتعانقة التي تحنو على القصور ، وبقصورها الشائقة التي تحيط بالمآذن الرفيعة ، كانت ، على رواية كوستان لوبون، وسطاً علمياً فنياً صناعياً تجارياً يجعلها بمستوى عواصم العالم الحاضرة . وفي رحابة هـذه المساحة الزاهية بالجنان كان مليونان مـن السكان يرفرف عليهم الحظ باجنحته رفرفة قلوبهم الى الحب والحياة والفروسية . وكانت جميع المدن الاندلسية تقتدي بالعاصمة في العمران ، كما كان سائر الاندلسين يقلدون اهل قرطبة قدوة الزمان . وهكذا أصبحت ديار الاندلس على مستوى رفيع من العمران حتى جاز لابي الحسن بن سعيد الاندلسي ، الذي هبط مصر في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، ان يبخس القاهرة منزلتها من العمران ،ويوجه الانتقاد الى مبانيها الشعبية، ودروبها ونظافتها .

على ان المقابلة التي تعرّض اليها سديّو بين عمران الاندلس بالأمس وبين حالها في عصره تلقي نوراً كثيراً على ما كانت عليه تلك المدن من العمران عهد العرب : فقد قال : « كان سكان طليطلة مائتي ألف ،ولا يزيد عددهم الآن على خمسة وعشرين الفاً ؛ وكان عدد أهل إشبيلية ثلاثمائة الف، بينما لا يتجاوز اليوم ستة وتسعين الفاً . وأما قرطبة التي كانت تضم ستين الف قصر و٢٨٣ الف بيت ، فلم يبقَ من سكانها ، الذين كان عددهم يناهز المليونين، إلا ستة وخمسون الفاً . وكذلك ابرشية سلامنكة ؛ تلك التي كانت حافلة بمائة وخمسة وعشرين مدينة وقرية، اصبحت خالية الاّ من ثلاث عشرة قرية » .

وقد نحا نحوه كثيرون من ارباب القلم في الغرب ،ومنهم كلود فارير الفرنسي ، فأنحوا باللائمة على الاسبان الذين حالوا بين العرب وبين رسالتهم التمدينية في اوروبا.

رخاء الاندلس وثروتها

٤

لا نريد ان نحاول التعرض لوصف مـــا حوته تلك القصور ،التي كانت تملأ الأرض ،من نفائس الرياش والاثاث،وما ادخرته من فرائد الجواهر ، ولا الاتيان على استعراض ما كان ضمن اسوارها من الجواري الحسان والخدم والحشم ؛ فان تبيان ذلك يطول بقدر ما يطول وصف البـــذخ والاسراف والتبرج التي كانت تجري في رحابها .

والقارىء يعلم بالبداهة ان قصوراً كهذه ،كانت اعجوبات الزمن،مفروض فيها ان تكون آهلة باعاجيب الاخبار والاسرار .

واذا كانت اخبار القصور بقيت سراً في التاريخ فان المؤرخين طالما تعرضوا لها محاولين كشف ما خفي منها.وكم حدثنا المقري في كتابه نفح الطيب عن المهرجانات الكبرى التي كان يحييها عواهل الأندلس، وعما كانوا يتكلفونه من الاموال لاظهار عظمة الدولة في أعين ملوك اوروبا .

وكان أشد هؤلاء العواهل اتصالا باولئك الملوك هو عبد الرحمن الثالث: فقد كان ملوك الافرنج وقياصرة بيزنطة يخطبون ودّه، ويوفدون اليه رسلهم بالهدايا، فيقابل اولئك المرسلين باحتفالات شائقة يريد بها زيادة هيبة الدولة في أعينهم .

وفي جملة الامثلة التي اوردهـــا المقري وصفه ذلك الاستقبال الذي قام به المنصور بن ابي عامر ، حاجب هشام بن الحكم ، لرسول ملك الروم . قال « اراد المنصور ان يبغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر ان يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر باربعة قناطير من الذهب ، واربعـة قناطير من الفضة ، فسكبت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفر ، وملأ بها جميع النيلوفر ، وبعث الى الرسول ،فحضر عنده قبل الفجر بمجلسه في الزاهرة،فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقالبة Slaves ، عليهم الاقبية والمناطق من الذهب والفضة ، وبيد خمسمائة منهم أطباق من ذهب ، وبيد خمسماية منهم اطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمـالهم ، ولم يدرِ الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة، وبادروا لاخذ الذهب والفضة

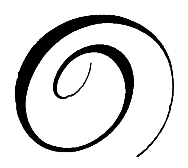
منه حتى التقطوا جميع مـا فيها ، وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً ، فتعجب الرسول من ذلك ،واعظمه ، وطلب المهادنة ! » .

واصطنع المنصور هذا قصراً من فضة للسيدة صبح ، والدة الخليفـة هشام ، وحمله اليها على رؤوس الرجال .

وأغرب من هذا ما فعله المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية من ملوك الطوائف ، فقد رأت زوجته اعتماد نساء البادية يبعن اللبن في القرب ،وهنّ رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « أشتهي يا سيدي أن أفعل ، أنا وجواريّ ، مثل هؤلاء النساء » !

فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصيّر الجميـع طيناً في القصر ،وجعل لها قرباً وحبالا من الابريسم ،وخرجت هي وجواريهـا تخوض في ذلك الطين .

ومثل هذه الاخبار كثيرة في التاريخ ، وكلها تشير الى حياة الثراء والبذخ التي قضاها العرب في الاندلس .



الفصل الثامن

عصر الحصاد في الشرق

التمدن العربي في الممالك الاسلامية

تفكك الجامعة الاسلامية والتراجع نحو القوميات

قامت دعوة محمد على اساس الدين ، وكان من اسباب نجاحها ما قرره الاسلام من المساواة بين المؤمنين ، سواء أكانوا من العرب أم من الاعاجم. ولكن هذه الاخوة في الاسلام لم تلبث ان اصطدمت ،بعد محمد، بالعصبية القومية فاضعفتها :فقد تعصب بنو امية للعرب،وخصوهم بالسيادة ؛ وكان من جراء ذلك ان تسرب إلى العناصر الاسلامية الاخرى شعور هو مزيج من حنو لاستقلال غابر،وألم لمصير حاضر، مصير أصبحوا فيه رعية لقوم كانوا يرونهم بالامس القريب دونهم مكانة اجتماعية .

(الفرس) — وكان الفرس أشد العناصر الاسلامية تحسساً بهذا الشعور، وهم ، اصحاب امبراطورية كسرى الزائلة ، وحضارة امته الزاوية . فما فتئوا يحتضنون كل دعوة تثار ضد بني امية : فناصروا العباسيين عليهم والعلويين . ولما اتيح لهم ان يقيموا قواعد دولة بني العباس على انقاض الامويين . وان يتمتعوا،في هذه الدولة الجديدة ، بمناصبها العليا ،خمدت ثائرة نفوسهم .

ولكنهم ما أن فوجئوا بتغلب الترك،بعد حين ،على حكومة بغداد حتى تحولت مطامعهم شطر الاستقلال والانفصال عن العباسيين . وقد اتيحت لهم في القرن الثالث الهجري،واوائل الرابع ،فرص مؤاتية لان ينشئوا في فارس وخراسان حكومات تمتعت بالاستقلال . وأشهرها هي :

الطاهرية ،والصفارية، والسامانية ،والساجية والزيارية،ثم البويهية؛وكانت أعظمها شأناً ؛ وقد تسنى لهذه الدولة ، التي تنسب لآل بويه ،أن تنشر سلطتها مدة من الزمن على حكومة بغداد .

(**الترك**) — أما الترك فكأنهم قنعوا بما بلغوه من السيطرة في بغداد فانصرفت اهداف الزعماء منهم إلى التزاحم على مناصبها العليا . وما عدا الدولة الطولونية ، التي انشأها احمد بن طولون في مصر (٢٥٤ ﻫ = ٨٦٨ م ، والدولة الاخشيدية التي خلفتها هناك ، واستولت على الشام (٣٢٣ ﻫ = ٩٣٤ م) فان ما قام من الدول التركية عهد العباسيين ، إنما نشأ ، على الاكثر ، في ديار خارجة عن نطاق الخلافة .

وأشهر هذه الدول ثلاث : السامانية فيما وراء النهر وخراسان ؛ ملكت ١٧٠ عاماً الى ٣٩٠ ﻫ = ١٠٠٠ م ؛ والغزنوية ، وقد قامت على انقاض الدولة السامانية الفارسية (٣٦٦ – ٥٧٨ ﻫ = ٩٧٦ – ١١٨٢ م) والسلجوقية التي دامت من ٤٢٩ – ٥٨٩ الى ٧٠٠ ﻫ = ١٠٣٧ – ١١٩٥ الى ١٣٠٠ م وهي اعظمها شأناً . وقد امتدت رقعتها ، عهد السلطان ملكشاه من اطراف الصين الى البحر المتوسط . ولكن هذا الاتساع كانت عاقبته وخيمة ، وأفضى بها الى الزوال . وقام على انقاضها احدى عشرة دولة ، احداها دولة آل عثمان .

(**الاكراد**) — وقد تسرب الشعور القومي الى الاكراد ايضاً مع انهم كانوا أبعد العناصر الاسلامية عن السياسة ؛ وانشأوا خلال القرن الرابع للهجرة كلاً من الدولة البزركانية في كردستان ، والمروانية في ديار بكر . ولم تعمرا طويلا . غير ان سلطنة جديدة قامت للاكراد فيما بعد ، وهي ، وان لم تتمتع بحياة طويلة ، الا انها كانت مفخرة لقومها ، وأعني بها الدولة الايوبية (٥٤٦ ﻫ = ١١٥١ م) : دولة السلطان صلاح الدين الايوبي ، صاحب مصر والشام .

(**المماليك**) — وخلف الايوبيين مملكتا المماليك(١) البحرية (٦٤٨ – ٧٩٢ ﻫ = ١٢٥٠ – ١٣٨٩ م) ، (٢) والشراكسة (٧٨٤ – ٩٢٢ ﻫ = ١٣٨٢ – ١٥١٦ م) ولما استفحل شأن آل عثمان ، واستولوا على الشام ومصر ، وقضوا على المماليك الشراكسة اصبح تاريخ الشرق الاوسط من بعد ، ومثله تاريخ اوروبا الشرقية ، فرعين من تاريخهم العام .

(**البربر**) — صمد البربر في وجه العرب عند الفتح ، ثم انتقضوا عليهم مراراً بعد اسلامهم . ولما اعتنقوا الاسلام ، وحسن اسلامهم ، ظلوا يجنحون الى الاستقلال ؛ فانشأوا

الدول القومية، كالمكناسية في مكناسة ، والمدرارية في سجلماسة ، والرستمية في الجزائر ، وبني عبد المعطي في تلمسان ، واختاروا ، تحت تأثير نزعة المعارضة لسلطان العرب ، مذاهب الخوارج . وكانوا خلال ذلك ، اذا استسلموا للعاطفة الدينية ، وارادوا الاختيار بين العرب انفسهم ، يميلون لمناصرة اهل الشيعة ؛ وبهذه الدوافع بايعوا الادارسة في مراكش ، والفاطميين في تونس .

وكأن العرب كانوا غير آبهين للمغربين الاقصى والادنى في افريقيا ، وكما رضي العباسيون بالتخلي لبني الاغلب ، وهم من العرب ، عن تونس وما يليها ، فان الفاطميين بعدهم قد استخلفوا فيها بني زيري من البربر (٣٦٠ هـ = ٩٧١١ م) . فتم بذلك لاخواننا البربر استقلالهم . ولقد امتد حكم بني زيري قرناً ونصف قرن تقريباً ، وانكمشت دولتهم خلال ذلك، من جراء فساد داخلي تطرق اليها ، واقتصرت على تونس ومدينة الجزائر وبجاية . ثم انقض عليهم النورمانديون من صقلية ، وأجلوهم الى البادية، حتى اذا قامت دولة المرابطين على انقاض آل مدرار في مراكش ، ثم دولة الموحدين ، استرد هؤلاء من النورمانديين ما كان قد دخل في حوزتهم من شمال افريقية .

ثم خلفهم آل ابي حفص الهناتي في تونس (٦٢٥- ٩٤١ هـ = ١٢٤٢- ١٥٣٤م) وبنو زيان الزناتي في تلمسان (٦٣٣ - ٧٩٦ هـ = ١٢٤٨ - ١٣٩٣ م) وبنو مرين في مراكش، وضواحي المغرب (٥٩١- ٩٧٥هـ = ١٢٥٠ - ١٥٦٧ م)، والوطاسيون (٨٧٥ - ٩٦١ هـ = ١٤٧٠ - ١٥٥٣ م) وهم من بني مرين ، وكلهم من البربر .

وعاصرت عهد الفتح العثماني دولة الشرفاء السعديين ،فحاول السلطان سليمان القانوني ان يجتاز الجزائر الى المغرب الاقصى فصدت هذه الدولة جيوشه ، حتى اذا اشتد الخصام بين اسرتها المالكة،وأنجد السلطان بعضهم على البعض الآخر،أتيح لآل عثمان ان يخطب لهم ، مدة في المغرب ، اسوة بسائر شمال افريقية .

ولما كان العالم الاسلامي دخل،خلال العهد العثماني في نطاق هذه الامبرطورية،فانا سنقف في هذا الفصل عند تاريخ ظهور هذه السلطنة على ان نستأنف البحث في الموضوع نفسه في جزء آخر يتناول عهدالعثمانيين .

التمدن العربي في الشرق

لقد كان من المستحيل احتفاظ الامبرطورية الاسلامية باتحادها وسلامتها، وهي المكونة من عناصر مختلفة اكثرها ذو ماض مجيد، فضلاً عن ترامي اطرافها. غير أن الوحدة الاسلامية التي دعا اليها نبينا محمد، وان لم تقوَ على ملاشاة العصبيات القومية، إلا انه قد كان لها اثران عظيمان وهما: الاخوة الاسلامية الوثيقة، وغلبة الحضارة العربية على كل حضارة اصطدمت بها في القرون الوسطى.

فقد تضافرت العناصر الاسلامية على وضع المدنية العربية، فبلغت هذه من القوة حداً انها لم تتغلب على هذه العناصر فحسب، بل استخضعت ايضاً الدول الاعجمية التي اتيح لها بسط سيطرتها على العرب والمسلمين؛ حتى ان الامصار التي قامت فيها الحكومات العربية: كسورية والعراق ومصر والمغرب، والتي كانت تظهر مناعة ضد الفاتحين السابقين، وذلك بمقاومة التأثر بلغاتهم وحضاراتهم، قد احتفظت كلها باللغة والحضارة العربيتين، وظلت كذلك رغم دخول هذه الامصار في حكم الاعاجم مدة طويلة. وهكذا فان المسلمين، وان انتهى بهم الامر الى الاستقلال بعضهم عن البعض الآخر، إلا انهم استمروا على ارتباط وثيق بدين محمد، وبمدنية قومه العرب. وقد لاحظ وليم بدول، أحد عظماء جوالة البريطانيين في مطلع القرن السابع عشر، «ان اللغة العربية كانت اللغة الوحيدة للدين، كما هي اللغة الاساسية لشئون السياسة والعمل، من الجزائر في المغرب الى بحار الصين».

هذا فضلاً عن ان التمدن العربي في الشرق لم يقف عند الامصار التي تعتبر اسلامية، بل تعداها، مرافقاً الاسلام، إلى حيث انتشر هذا الدين في الشرق. وقد عقد كوستاف لوبون فصلاً في كتابه «حضارة العرب» استعرض فيه تأثير هذه الحضارة في الهند والصين، نكتفي بالاشارة اليه، والى ما دوّنه سديو وغيره في هذا الموضوع.

. . . . .

حضارة العرب عهد الفرس: فتح العرب أصفهان سنة ٦٤٥م، واستمرت ثلاثة قرون تحت سيطرتهم، فاختلط تاريخها بعض الاختلاط، بتاريخ بغداد. ثم كان الفرس أول الاعاجم اعلاناً لاستقلالهم وذلك بفارس وخراسان؛ وحاولوا احياء عهد الساسانيين وحضارتهم. غير انهم، وان نجحوا قليلاً في نظم الشعر

بلغتهم ، وفي بعض الآداب الفارسية ، الا انهم لم يستطيعوا سبيلاً الى جعل اللغة الفارسية لغة العلم والتشريع والسياسة . بل استمرت اللغة العربية بعد ذلك ، مدة طويلة لغة المتعلمين ، ومعتمدهم في المراسلة والتدوين .

وكان مثلها في فارس وسائر الشرق والغرب الاسلاميين كمثل اللغة اللاتينية في اوروبا بالقرون الوسطى .

ان الدولة الطاهرية ، وهي تنتسب لطاهر عامل المأمون على خراسان كانت اولى الممالك الفارسية حصولا على الاستقلال . وقد قلدت العباسيين في تنشيط الحضارة العربية . فكان عهد طاهر بن عبد الله ، رابع ملوكها ، حافلا بالعلماء يلتفون حوله في عاصمته نيسابور . وبينهم مشاهير من علماء الفلك الذين كانوا يرصدون السماوات بدائرة اسطرلابية ، أشار اليها ابن يونس الفلكي الاشهر في القاهرة .

وخلفت هذه الدولة بخراسان الدولة الصفرية (٨٧٢-٩٠٥م) ، ثم السامانية التي بزت أسلافها رغبة في العلم ، وكان الفخر الرازي ، وابن سينا يجدان في رحاب ملوكها خير بيئة لخصب المواهب . ولما تسنى للدولة البويهية صاحبة فارس (٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) ان تزيح الترك عن منصب امارة الامراء في بغداد حاول ملوكها ان يحيوا عهد المأمون . ونخص بالذكر كلا من عضد الدولة وشرف الدولة ، وقد كانا من العلماء ، وعنيا بعلم الفلك ، وأقاما له الارصاد . وفي عهدهما تسنى للفلكيين ان يتموا حل مسائل قصرت عنها مدرسة الاسكندرية قبل الاسلام . وتمكنوا من اكتشافات رياضية وميكانيكية عدت من فخار الحضارة العربية الاسلامية . على ان الازدهار الثقافي كان في عهد آل بويه ، شاملاً سائر ، فنون العلم والادب : ففي الطب اشتهر علي بن عباس الفارسي ، وهو الذي أهدى عضد الدولة كتابه الملكي المؤلف من عشرين مجلداً : عشرة منها في قواعد الطب ، وعشرة في عملياته . وفي الشعر ذاع صيت مهيار ، كما نبغ في النثر الوزير ابن العميد ، واضع الشعر المنثور . وحسبهم فخراً ان يعيش في كنفهم ابن سينا ، فيخدمهم طبيباً وفيلسوفاً ووزيراً .

غير ان الزمن لا يصفو دائماً لاحد على الدوام : فقد حمل السلجوقيون على الملوك البويهيين ، وأجلوهم قسراً عن بغداد (٤٤٧ هـ ــ ١٠٥٥ م) ، وجعلوها ملحقة باصفهان قاعدة سلطانهم .

حضارة العرب عهد الترك — كان الترك رجال حرب اكفاء ، بيد انهم لم يكونوا على استعداد لاستثمار الارث الاجتماعي الذي خلفه لهم العرب .

لقد كان ابن طولون عاملاً للعباسيين على مصر ،فلما آنس عجز العباسيين عن اخماد ثورات الدولة الصفارية في فارس ، والعلوية بطبرستان ، والزنجية بالبصرة اعلن استقلاله بوادي النيل ،واستحوذ على الشام (٢٥٤هـ = ٨٦٨ م)؛وجرى مجراه بعده محمد الاخشيد (٣٥٨ هـ = ٩٣٤ م) ، واستمرت مصر في حكم ابنائه حتى استظهر عليهم الفاطميون (٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م) .

وفي عصر هاتين الدولتين كانت الحضارة العربية لا تزال في عنفوان ازدهارها ، تشع انوارها من قرطبة والقيروان ودمشق وبغداد ، وتتلاقى مع اضواء لها اخرى تسطع من شيراز ونيسابور وسمرقند . غير ان آل طولون وآل الاخشيد كانوا أشد تشبهاً بالخلفاء في الناحيتين العمرانية والاجتماعية منهم في الناحية العلمية : فأشادوا القصور ،وفي طليعتها قصر خمارويه بالقاهرة ؛ وعمروا المساجد ، واشهرها جامع ابن طولون ، واقاموا المستشفيات ، واولها مارستان احمد بن طولون ومستوصفه ؛ وكذا مارستان كافور الاخشيدي ، ولكنهم في الوقت نفسه اقبلوا على البذخ والفجور . على ان الرغبة في خدمة الثقافة ظهرت بمظهر أجلى وانجع عهد السلطنة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٨ هـ ٩٧٦ - ١١٨٢ م) ذلك ان هذه الدولة التي تغلبت على السامانيين الفرس ، وخلفتهم على ايران ، كانت قد اقتبست من الشعب الفارسي عاطفة الرغبة في العلم والادب ،وجرت مجراهم؛وانا نخص بالذكر من عواهلها السلطان محمود ، فاتح الهند : ففي أيامه دخل العصر الثاني من عصور اتقان العرب ازياج بطليموس الفلكية ؛ ويرجع الفضل في ذلك لمحمد البيروني ،خريج بغداد،الذي استكمل ما بدىء به عهد الخليفة المنصور العباسي في صعيد اصلاح علوم الكوزموغرافيا Cosmographie والفلك .

وقد قربه اليه السلطان محمود المشار اليه .وكان هذا العاهل العمراني يحرص على ان يختص ايضاً بابن سينا . فراح يغريه بالنعم للبقاء في كنفه ؛ ولكن هذا الفيلسوف اختار خدمة العلم في كنف آل بويه على كل وسط آخر ،فانتقل الى رحابهم .

وكانت البلاد الاسلامية قد أصبحت فريسة لعشائر الترك : فما كانت تتغلب احداها ،وتكاد تستقر حتى تصل موجة جديدة ،من أقصى الشرق ، فتطغى عليها ،وتحتل مكانها . وهكذا فقد خلف السلجوقيون الغزنويين ، وتربع اميرهم طغرل بك على

سرير نيسابور بخراسان،واستمر الحظ مؤآتياً لهم حتى أزاحوا البويهيين عن بغداد . وكان عصرهم الذهبي ايام ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) . فقد حظي هذا السلطان ، فضلا عن بسطة الملك ، بوزير يتمتع بقسط وافر من التدبير، واعني به نظام الملك ،فعني باعمار السلطنة . ولا تزال المدرسة النظامية التي أنشأها ، ومكتبتها القيمة،تذكران باطراء كلما ذكرت حضارة العرب . قال سدّيو :« لقد توصل الفرس بواسطـــة الارصاد التي أقيمت عهد السلطان ملكشاه الى تصحيح روزنامتهم حتى صارت اوفر صحة من روزنامة الروم الغريغورية ، grègorie ، ويرجع الفضل في ذلك الى عمر الخيام ،وعبد الرحمن امام التقويم في عصره . »

ولكن عصر ملكشاه كان بين سائر ايام السلجوقيين كواحـة في صحراء : فان امماً كثيرة طمعت، خلال أفول نجم سلطنتهم وأثناء تنازعهم، ببلاد الاسلام، وانقضت عليها من كل صوب . وكانت حروب وفتن افضت الى سحق معالم التمدن العربي في آسيا. على إن تلك الفتن والحروب لم تقتصر على صرف المسلمين عن الثقافة فحسب ، وإنما نكبتهم في اجتذاذ أصولها ؛ وذلك بملاشاة بيوت العلم وأوقافها ، وانقراض العلماء وآثارهم .

فقد كانت مكتبة سابور ببغداد من اقيم المكتبات ، فاحترقت،فيما احترق، حين دخل السلطان ارطغرل بك عاصمـــة العباسيين ، وكان في مرو بخراسان عشر مكتبات غنيات ،فذهبت ضحية احدى الحملات المغولية .

ولقد حاول بعض ملوك الدويلات التركية، التي قامت على انقاض السجلوقيين، أن يظهروا عطفهم على العلوم والاداب ، اكتساباً للرأي العام ، يخصّ منهم بالذكر نفراً من آل بوري حكام الشام (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م)، وآل زنكي اصحاب الشام والجزيرة (٥٢١ - ٦٤٨ هـ = ١١٢٧ - ١٢٥٠ م)، وآل ارتق في ديار بكر وماردين (٤٩٥ - ٧١٢ هـ = ١١٠١ - ١٣١٢ م) .

ولكن عبثاً ما كانوا يحاولون ؛ فقد كان مصير التمدن العربي قد تقرر ، وكانوا كأنهم ينفخون في رماد ، لا سيما وقد كانت الحروب الصليبية المشتعلة تصرف الجمهور عن كل شيء آخر عدا مكافحة الخطر الاجنبي .

غير ان الشعر ، وهو ابن العاطفة ، قد استمر على جزالته ورصانته ؛ على انه استمدّ من المعارك لونهـــا الناري ، فكثر عصرئذ الشعر الحماسي ، وجاراه الشعر الوصفي . ومن أشهر شعراء العصر صفي الدين الحلي ؛ وكان شاعر الدولة الارتقية.

حضارة العرب عهد المغول : لما ضعف الترك بما أصاب السلجوقيين من الانحـــلال في فرعيهم : بفارس وخراسان ، سنحت الفرصة للعرب في الشرق الاوسط لأن يستردوا نفوذهم السياسي . ذلك أن الخلفاء العباسيين كانوا قد استرجعوا شيئاً من سلطتهم مذ دخلت بغداد تحت سيطرة آل سلجوق . ويرجع ذلك إلى أن هؤلاء السلاطين عمدوا لاتخاذ عاصمتهم الخاصة بعيداً عن دار السلام ، خلافاً لسنّة المسيطرين السابقين ، ولانصرافهم بالتالي إلى معالجة مشاكلهم المستمرة . ثم أزداد الخلفاء نفوذاً عقب اضمحلال شأن السلجوقيين ، وزوال دولتهم بفارس (٥٨٩ هـ = ١١٩٥ م). ولكن كارثة أدهى وأمر نزلت بالعرب وسائر مسلمي الشرق ، فكانت القاضية على خلافة بغداد ، وعلى البقية الباقية من ثقافتها ، وأعني بها حملات المغول.

وحكاية هؤلاء انهم رأوا في جلاء بعض عشائر الترك إلى العـــالم العربي فرصة سانحة لهم ، فتقدموا من سيبريا إلى الصين ، وشرعوا يظاهرون الاسر المتقاتلة فيهـا بعضاً على بعض . وقد أتاحت الظروف لاحدهم جنكيزخان ، في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، أن يتغلب على المغول والترك في تلك الديار . ثم أستهوته بلاد الاسلام مكتسباً فرصة الخصام فيها بين الخليفة وسلطان خوارزم ، فأمعن فيهـــا فتحاً وفتكاً وتخريباً . وما مات جنكيزخان حتى كانت حـــدود أمبرطوريته تنبسط من الصين الى إيران ، فاطراف قسطنطينية .

وكان من حسن طالع خلفائه ان صارت خلافة بغـداد إلى المعتصم ، وحسبه تعريفاً انه كان إذا نبه الى ما ينبغي ان يفعله ازاء المغول يقول : « أنا بغـــداد تكفيني ، ولا يستكثرونها عليّ اذا نزلت لهم عن باقي البلاد » . فاذا بهولاكو يكتسح بغداد ، ثم هو لا يستكثرها على المعتصم فحسب ، بل يضنّ عليه بالحيـــاة ، فيقتله (٦٥٦ هـ = ١٢٥٧م) ؛ واذا بثمار أفكار العرب ، التي نضجت خلال أجيال وأجيال ، تدوسها سنابك الخيل ، وتقذفها الأيدي الأثيمة الى مجاري المياه ، وألسنة النيران.

فظائع انزلها هولاكو ببغداد قررت في الاذهان ان كلمة مغول ترادف البرابرة. والواقع ان المغول مذ اختلطوا ببلاد الاسلام اعربوا عن استعدادهم لقبول ثقافته. وكأني بجنكيز خان اراد أن يضع لقومه أساساً علمياً ، بعد ان رآهم محرومين من لغة مدونة وشريعة قومية ؛ فجمع عقلاءهم وامرهم أن يضعوا له خطاً وقلماً يكونان لهم علماً وعملا ، وان يؤلفوا شريعة بلسانهم . وتنص دائرة المعارف للبستاني على أن بعض الاحكام في آسيا لا تزال ترجع إلى كتاب جنكيز الذي أسماه السياسة

الكبيرة .

على ان محاولة جنكيز استبدال الحضارة العربية بغيرها قد ذهبت ادراج الرياح اسوة بالمحاولة التي قام بها بعض افراد الفرس من قبل ؛ فان لغة العرب كانت اذ ذاك لغة العلم التي لا غنى عنها ، ولغة الدين في العالم الراقي . وهذا هولاكو ، فاتح بغداد وناكبها مادة ومعنى ، والآمر بان تجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها ، لم يلبث ان خضع لنفوذ البيئة واستسلم لمدنية العرب . حتى قال كوستاف لوبون عنه : « اخذته الدهشة من عجائب مدنيتها الى حد انه لم يلبث أن تحول إلى حام لهذه المدنية . وقد أخذ المغول التمدن فيما بعد عن المدرسة العربية : واعتنقوا دين العرب ، فاصبحوا كغيرهم من الاعاجم حماة الفنون وخدمة العلم ، ثم لم نلبث ان الفيناهم بعد قليل يرفعون في الهند امبراطورية قوية يمكن أن يقال عنها انها كانت عربية اللسان والجوهر ؛ ذلك لان مدنية العرب هي التي أستأصلت هناك كل مدنية غيرها ، وهي التي ما تزال سائدة فيها حتى ايامنا هذه . » اه

اجل أن هولاكو ما كاد يستقر له الامر في بغداد حتى انتقلت اليه العدوى من خلفائها ، فتحكمت فيه طبيعتهم من حيث العناية بالثقافة . فاستعان بنصير الدين الطوسي في بناء المراصد ، وانشاء المكاتب ؛ وابتنى مرصداً في مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحة الارجاء إغناها بما نقل اليها من بغداد والشام والجزيرة من الكتب القيمة حتى اربا عددها على الاربعمائة الف مجلد . هذا الى أنه أخذ يجمع اليه الفلاسفة ، ويجري عليهم ،وعلى سائر العلماء،العطايا والاوقاف . وكذلك فعل بعده أخوه كوبلاي خان. فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقل اليها المؤلفات من بغداد والقاهرة . ثم انتشر الاسلام فيها عاجلاً بين شعبها وعواهلها ، فاذا بالماذن تتعالى بتركستان ؛ وروسيا ، كما بفارس والعراق،واذا بالمدارس تقوم الى جوانبها ؛كل ذلك على أسس الحضارة العربية ،ولا سيما في عهد غازان خان المتوفي سنة ٧١٤ هـ = ١٣١٤ م .

على أن لغة فارس قد شرعت تزاحم لغة العرب في عهد المغول ، ولكن تقديس لغة القرآن قد استمر على حاله بين سواد الشعب ؛ كما ان علماء الدين احتفظوا بهذه اللغة على وجه خاص . أما مركز الحضارة العربية ، فقد انتقل بعد سقوط بغداد الى القاهرة ، تبعاً لانتقال الخلافة اليها .

حضارة العرب عهد تيمورلنك وخلفائه : واخيراً اتاح الزمن للترك ان يثأروا من المغول مكتسحي ممالكهم في القرون الوسطى، وذلك بما تسنى لتيمورلنك التركي المسلم ان يتغلب على امبراطورية المغول وفروعها ؛ وهو قد جرى مجرى هولاكو في بغداد (١٤٠١ م) والعراق إذ نكبها، وفتك بالشام ، ولكنه نهى سلفاً عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ؛ كما نهى عن التعرض للمؤسسات الخيرية . ولم يقفل راجعاً ، من بعد ، الى اواسط آسيا حتى كان قد تشبع بفكرة وجوب الاخذ باسباب العمران ؛ « وقد نقل تيمورلنك صحبته ، - على رواية كلافيجو الذي كان سفيراً لاسبانيا في بلاطه - من الصناع ما ضاقت بهم منازل سمرقند ، حتى اصبح مضطراً لاسكان بعضهم البساتين والمغر حول المدينة » .

ويقول ليون كاهن Leon Cahun أن تيمورلنك أعتزم استبدال اللغة الفارسية باللغة التركية الجاكاطائية ، واتخذ هذه الاخيرة لغة الدولة .

وقد نبغ في عهده ، وعهد ابنه شاه رخ كثير من علماء الترك ، كالسيد علي الهمداني ، والخوجـــه بهاء الدين ، والشاعر النيسابوري ، واللغوي التفتازاني . والواقع ان حضارة العرب استمرت ، مع ذلك ، حضارة العصر في عهد الاسرة التيمورلنكية ، ولا أدل على هذا من المؤلفات الكثيرة التي أصدرها بالعربية علماء الفرس في تلك الحقبة ، فضلاً عن تقدير عواهل العصر الافذاذ لهؤلاء المؤلفين .

وهذا الفيروز ابادي الفارسي مؤلف القـــاموس العربي الكبير ، فقد كان تيمورلنك ، كما كان السلطان بايزيد العثماني ، في طليعـة الذين كافأوه على جهوده ، وقدّروه حق قدره ، وذلك لوضعه هذا القاموس العربي . هذا وان المؤرخ الفرنسي سدّيو يشير الى ان مدرسة بغداد ما زالت منارة العالم الاسلامي سبعة قرون منذ سنة ٧٥٠ الى سنة ١٤٥٠ م . ويقول انه كان من طلاب هذه المدرسة اولوغ بيك Oloug Beg حفيد تيمورلنك . وهو في علم الفلك كان آخر من يمثل مدرسة بغداد .

. . . . .

حضارة العرب عهد الايوبيين الاكراد ـــ دخلت مصر في حوزة الفاطميين منذ غرة القرن العاشر للميلاد ، فتسابق أهل الفضل والمواهب الى رحابهم لما اشتهر عنهم من الكرم في تعزيز الثقافة واهلها . وكانت بلاد الشام ، وما حولها التابعة لهم الى يومئذ ، ساحة نضال بين الشرق والغرب . ثم آل الأمر الى دخولهـــا في حـــوزة الصليبيين مدة طويلة ، مما اضطر اصحاب القلم من اهلها الى النزوح الى وادي النيل

حيث الفضاء ارحب لمواهبهم واحلامهم .

ولما خلف الملوك الايوبيون، واولهم صلاح الدين ، الفاطميين على مصر في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد ، انتفعوا ، كل النفع ، بارث الفاطميين الثقافي . ونهجوا نهجهم في صعيد تنشيط حضارة العرب . غير ان هؤلاء وامثالهم كانوا في رعايتهم للعلم واهله مقلدين لا يقصدون الا الى استكمال شروط الملك ، واكتساب عواطف الشعب ، وكانت رعايتهم هذه تكاد تقتصر على العلوم الشرعية ، والآداب اللسانية . على ان الناظمين والناثرين في عهدهم كانوا يعكفون على اختيار الالفاظ والمباني ، ويهملون سلامة الاسلوب وانتقاء المعاني . وكان اشهر شعرائهم بهاء الدين زهير ، وزير الملك الصالح ؛ واشهر ادبائهم القاضي الفاضل ، رئيس الانشاء لصلاح الدين الايوبي .

وقد قلدوا الخلفاء ايضاً في العناية بالمنافع العامة التي تفضي الى اكتساب عواطف الناس ؛ واهمها المارستان الناصري الذي اقامه السلطان صلاح الدين في القاهرة ؛ وقد وصفه ابن جبير في رحلته وصفاً يوهم القارىء انه انما يقرأ وصف مستشفى من أفضل مستشفيات العصر الحاضر .

. . . . .

حضارة العرب عهد مماليك مصر : لما كانت حملات المغول على العالم قد ملأت أسواق الشرق الادنى بالاسرى الذين كانوا يباعون بيع الرقيق ، فقد عنّ للملك الصالح ، من الايوبيين ، أن ينشيء منهم فرقة لحراسته ؛ فكانوا سبباً في زوال الملك عن أسرته . ذلك انه مات عن ولد صغير ، فاستضعفوه ، وأجمعوا أمرهم بينهم على تنصيب أحدهم معز الدين أيبك مكانه . ويعتبر معز الدين هذا مؤسس دولة المماليك التركية سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م . وهي المعروفة بالبحرية .

وقد اصابت هذه الدولة الحظ باستردادها سورية من المغول ، ودفع تيارهم . وبانتهاء الحروب الصليبية أتيح لها ايضاً أن تتمتع بحقبة من الزمن سليمة من غائلة الاجانب . غير أن تنافس المماليك ، فيما بينهم . هؤلاء الذين عرفوا بالبحرية ثم الآخرين الذين عرفوا بالبرجية ، كان قد صرفهم عن كل شيء آخر ، مما مهد السبيل للسلطان سليم العثماني لأن ينقضّ عليهم ، ويلحق بلادهم بامبراطوريته (٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م) ومع ذلك فان أسباباً عالمية تضافرت على بعث نهضة مدنية في عصر المماليك كانت بالنسبة للتمدن العربي بمثابة يقظة الاحتضار : فقد كانت بلاد فارس والعراق قد أصبحت في قبضة المغول بعد سقوط بغداد ، بينما أستولى الاسبان على الاندلس

فلجأ المسلمون فيها الى سيف البحر ، ثم أضطروا للهجـــرة إلى الشمال الأفريقي والشرق الأدنى ، وكانت ثالثة الاثافي حملة تيمورلنك ؛ وإزاء هذه الكوارث اخذ العرب يتساءلون عن مصيرهم ، وإلى أي البلاد يفرون .. ولا بدع أن تختار كثرتهم مصر إذ كان فيها أعظم دولة عربية الطابع ، وفيها أخصب تربة وأرغـــد عيش . مصر التي كانت قد انتقلت اليها الخلافة العباسية بعد ضياع بغداد . وكان مفروضاً أن يكون لتهافت العلماء والادباء على وادي النيل والشام في عصر المماليك مثـل الأثر الذي كان لهجرة علماء بيزنطة الى ايطاليـــا بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين (٨٥٧ هـ = ١٤٥٧ م) بيد ان الفارق بين الاثرين كان عظيما ؛ وربمـــا كان مرجع ذلك الى ان هجرة البيزنطيين الى ايطاليا قد حصلت اثناء تحفز اوروبا للنهضة ، بينما ان هجرة علماء العربية الى مصر حدثت خلال احتضار التمدن العربي ، فلم تستطع ان ترد الحياة اليه .

ولكن المماليك ، رغم شغفهم بالفروسية ، قد عملوا على مسايرة النهضة العلمية ، وتعزيز الاعمال الخيرية ، وتنشيط العمران ، والقيام بالمنافع العامة ، وخصوصاً عهد الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) . وكانوا ، الى جـــانب اقامتهم الملاجيء والبيمارستانات (واشهرها في القاهرة المارستان المنصوري ، والمارستان المؤيدي) وتوفيرهم المال الذي كانوا ينفقونه على نواحي الخير ، يتنافسون في انشاء المدارس العامة والمكتبات؛ وربما كانت كثرة المدارس والمدرسين ووفرة الطلاب والتآليف من مميزات عصرهم . على ان هـذه النهضة كانت عقيمة من حيث الابداع : لان المماليك انما كانوا يسايرونها مصانعة ، فضلاًعن انهم كانوا ، لتعصبهم الديني، يضيقون الخناق على حرية الافكار ؛ فلا غرو اذن ان نرى هذهالنهضة المصطنعة تنكمش، فلا تتعدى حدود مصر والشام ، ولا تخرج عن نطاق الموضوعات الدينيـة والادبية ، الا فيما ندر ، فضلاً عن انها كانت ضعيفة الاثر في آداب اللغة .

وممن اشتهر في عصرالمماليك جمال الدين بن نباتة ، والشاب الظريف في الشعر ، وابن خلكان ، والمقريزي ، والنويري ، وشهـاب الدين العمري ، وابن الوردي ، وابو الفداء ، في التاريخ والادب . وكان اشهرهم ابن خلدون ؛ وتعتبر مقدمة تاريخه خير تأليف عربي في علم الاجتماع .

على ان اثر جلاء اصحاب المواهب الى مصر خلال القرن الثالث عشر .م. وان لم يظهر جلياً فيالناحية الثقافية،الا انه قد وضح اكثر في الناحية العمرانية والفنية:

ولقد نوّه ابن خلدون بذلك في مقدمته . ويعتبر هو في عداد النازحين الى رحاب المماليك . وقد اشاد بصناعات مصر مصرحاً بانها بلغت في عهده حد الكمال . كما اشاد غيره بالفن المعماري الذي زهـا في عهد المماليك ، واشار الى ان القاهرة قد اصبحت في عهدهم من أجمل مدن العالم . ومن حسن الطالع ان نماذج من العمارات التي شيدوها ، في ذلك العصر ، قد ظلت قائمة الى عصرنا هـذا . وهي تعتبر من امتع المشاهدات التي يطيب للسياح وطلاب العلم رؤيتها كلما زاروا مصر ..

التمدن العربي في المغرب

لقد أعرب البربر خلال الفتح العربي عن حرص شديد على استقلالهم، فانتقضوا على الفاتحين احدى عشرة مرّة . ولكنهم مذ استساغوا دين محمد انقلبوا إلى أحتضانه وحمايته . واستسلموا إلى العروبة وحضارتها ،حتى لم يعد بينهم وبين سائر العرب أي فارق في طابعهم المدني. وهكذا نراهم وإن بذلوا جهوداً عظيمة ، أكثر من الفرس ، في سبيل المحافظة عـلى حريتهم ، ما لبثوا ان أخلصوا للعروبة لغـة الدين ؛ واندغموا باهلها ، خصوصاً مذ احدق الخطر الاوروبي بالمسلمين . وها هم لا يزالون يشاركون العرب في أمانيهم ، رغم ما يبذله الفرنسيون من الجهود في سبيل التفرقة بين العنصرين ، ويرفعون اصواتهم مطـالبين باستقلال شمال افريقيـة على اساس الوحدة العربية . أما الفرس فرغم انهم كانوا ارطب عوداً عند الفتح العربي ،فهم قد ظلوا يتحينون الفرص ،حتى اذا سنحت قاموا وأعلنوا قوميتهم واعتمدوا لغتهم .

هذا فضلاً عن ان البربر قد ظلوا دائماً يعترفون للعرب بالسيادة الروحية حتى بعد ان اتيـح لهم الاستقلال : فأن آل مـدرار بسجلماسة ، اصحاب المغرب الاقصى ، ظلوا يخطبون للعرب ، فتارة للعباسيين ، وطوراً للامويين بقرطبة . كما ان بني زيري بالقيروان ، اصحاب المغرب الاوسط ، استمروا يخطبون للامويـين . ومع ان دولة المرابطين قد بلغت من القـوة مبلغاً عظيما ، وجمعت بين الاندلس والمغرب ، الا انها اختارت ، مع ذلك ، ان يكون حكمها باسم العباسيين ، ومثلها دولة الموحدين . ولا ننكر ان ريح العصبية القومية قد عصفت خـلال حكم المرابطين والموحدين ، وكانت في جملة الاسباب لضياع الاندلس ، ولكن نعرة كهذه ليس من الغريب ان تثور بين كل امة تتألف من عدة عناصر . واما النزعة الاسلامية العامة فانها لم تمس بسوء عند البربر ، ومثلها اللغة العربية والحضارة العربية .

حضارة العرب عهد حكومات البربر : بسط اليونان والبيزنطيون حكمهم على شمال افريقيا زمناً يوازي مدة سيادة العرب على تلك الامصار ؛ ومع ذلك فما استطاع الاوروبيون ان ينشروا فيه مدنيتهم ، ولا ان يعمموا لغتهم ودينهم .

على ان العرب لم يوفقوا الى جعل دينهم دين الشمال الافريقي كله ، ولغتهم لغته فحسب ، بل لقد وفقوا ايضاً الى التأثير على اهله البربر تأثيراً بلغ منه انهم اثاروا عند هؤلاء الرغبة في التشبه بالعرب في سائر الوان حياتهم الاجتماعية : فقامت لهم دول عاصرت العباسيين وأمويي الاندلس والفاطميين ، وجارت بعض الحكومات العربيـــة في تونس ومراكش واخذت عنهم .. وقد سبق ان اشرنا الى النصيب الأوفى من الحضارة والعمران الذي تمتعت به دولتا بني الاغلب في القـــيروان ، والادارسة في فاس . ويقول أرثور بليكرين Arthur Pelligrin « ان وفداً من علماء القيروان هبطوا فاس سنة ٩١٩ م ، وانشأوا فيها الجامعة القيروانية التي كانت ينبوع الثقافة بالنسبة للمغرب الاقصى . وذكر انه كان يعاصر هاتين الدولتين العربيتين الدولة الرستمية بالجزائر ، ودولة آل مدرار في سجلماسة .

ولما كان عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية فارسياً مطبوعاً عـــلى الحضارة فقد طمع في ان ينافس جيرانه بني الاغلب في التمدن والعمران ، كما شاء آل مدرار ان يتشبهوا بجيرانهم الادارسة . ثم لما قامت دولة بني زيرى (٩٧٥ — ١١٥٩ م) مكان الفاطميين في شمال افريقية وجزر البحر المتوسط ، متخذين عاصمة بني الاغلب قاعدة لدولتهم ، ورثوا عنهم حب الحياة ، فاشادوا القصور ، واسترسلوا في اللهو والبذخ . وحاولوا ، بالاضافة الى ذلك ، ان يتشبهوا بهم في العناية بالثقافة . وقد جرى مجراهم بنو حمـــاد في طرابلس الغرب (٣٩٨ - ٥٤٧ هـ = ١٠٠٧ — ١١٥٢ م) ، وهم فرع من بني زيري ، فعنوا بالعمران والمعارف .

وفي الواقع لم توفق هذه الدويلات كثيراً في ما كانت تطمح اليه من تقليـــد الحكومات العربية اذ كانت ، فضلاً عن طابع البداوة الذي كان لا يزال مستحوذاً عليها ، بعيدة عن التمتع بحالة الاستقرار التي تساعد على نضوج الحضارة في رحابها .

ولكن دولتين بربريتين اعظم شأناً خلفاها فيما بعــــد ، وقد ساعدهما الزمن ، واسعفتها التطورات السياسية لان تتركا اثراً فعالاً في خـــدمة الحضارة العربية ؛ واعني بهما دولتي المرابطين والموحدين Almoravide. Almoahide اللتين وفقتا للجمع بين الاندلس والمغرب ، وعاصرتا التمدن الاندلسي في عنفوانه ، فتأثرتا به ؛ وكان

عصرهما، و كذلك عصر بني مرين Merinide بعدهما، عهد نضوج الثقافة العربية. وهكذا نجد ان يوسف بن تاشفين الملقب بأمير المسلمين، وهو الذي ضم إلى عاصمته مراكش كلاً من افريقية والاندلس، قد عني كثيراً بتنشيط النهضة والاخذ بأسبابها، لا سيما في ناحية العلوم الدينية ؛ ولكن دولته لم تقم طويلاً، وسرعان ما خلفتها دولة الموحدين، ففاقت هذه في عنايتها بالعمران، عناية المرابطين ؛ وبعد ان اتيح لأحـد ملوكها عبد المؤمن بن علي (٥٤١ ﻫ = ١١٤٦ م)، الملقب بأمير المؤمنين أيضاً، أن يجمع بين المغربين الأوسط والأقصى، وبين الأندلس عمد إلى مسح الأرض، وتحديد، المناطق الصالحة للزراعة، ثم عني بالعمران، فأنشأ في مراكش العاصمة بستان المسرة، وبنى جامع الكتبيين الشهير، وحلاّه بالزخرف وغريب الصنعة ؛ واهتمّ بالصناعات : فأدخل صناعـة الحرير لفاس ومراكش، والورق لسبتة وفاس، فضلاً عن صناعة الزجاج.

أما يعقوب بن يوسف فقد فاق سلفه في العناية بالعلم والعمران ؛ فالتف حوله النوابغ والمشاهير. نذكر منهم عالم المغرب القاضي عيّاض، والمؤرخ عبد الواحد المراكشي. فضلاً عمن التف حوله من مهاجري الأندلس كابن طفيل، وابن رُشد، وابن زهر، والأدريسي. وقد قامت في أيام هذا العاهل بعض المنشآت التي كانت من مفاخر المغرب : ومنها المنارات الثلاث المشتهرة بميزات فنها المعماري، وهي: منارة الكتبيين بمراكش، ومنارة حسّان برباط الفتح، ومنارة إشبيلية. وقد شيّد هذه الاخيرة بمناسبة ذكرى انتصاره على الاسبان في موقعة الأراك بالأندلس (٥٩١ ﻫ = ١١٩٥ م). ولقد كان هذا العاهل معروفاً بعنايته بالمنافع العامة. وهو صاحب ذلك المستشفى العظيم الذي أشاد في وصفه المؤرخون، والذي كان مجهزاً بخيرة الأطباء والصيادلة.

على ان هذه النهضة في شمال افريقية قد أصابهـا شيء من الذبول اثر زوال سلطان الموحـدين، والمرينيين. إلى أن جاءت موجـة اخرى من النشاط الثقافي والصناعيّ وافقت هجرة المسلمين من الأندلس، وشملت البلاد ولاسيما دولة آل حفص Hafsids في تونس : فمنذ غرة القرن الثالث عشر للميلاد شرع أهل الأندلس من المسلمين يغادرونها فراراً من ظلم الاسبان ؛ فنزلت وفود اللاجئين بعدوة المغرب، وكان بينهم جمهرة من العلماء أصاب مدن سبتة وبجاية وتلمسان خيراً كثيراً منهم. وصادف ان نشأت، خلال ذلك، السلطنة الحفصية في تونس (٦٠٣ - ٩٨١ ﻫ

١٢٠٦ – ١٥٧٣ م) وهي من البربر . ولقد عظم شأن العرش الحفصي لمّا اعتلاه أبو زكريا الأول (٦٢٥ – ٦٤٧ هـ = ١٢٢٨ – ١٢٤٩ م) ؛ وذلك من جراء تضائل العروش التي كانت حوله . ففضلاً عن الضربات الشديدة التي أصابت ملوك الطوائف في الأندلس ، كانت دولة الموحدين في المغرب الأقصى قد أمست فريسة الانقسام الداخلي والفتن .

ثم ازداد الحفصيون علواً على علو لما مضى أبو زكريا تاركاً عرش الحفصيين لابنه محمد المستنصر. فقد وافق انتقال العرش اليه تلك الفترة التي استفحل فيها أمر التتار ، وأفضت إلى انقراض الخلافة العباسية في بغداد . ولما ذهبت النفوس في الغرب والشرق كل مذهب باحثة عن طريق الخلاص توجهت انظار المسلمين، من كل صوب ، إلى العرش التونسي ، وكان المستنصر يطمح إلى الخلافة ، فبايعته بعض الأمصار ، ومنها مكة ، ولقب بأمير المؤمنين . ولكن ما نزل في تونس من بعد من هجمات صليبية ، وفتن داخلية ، حوّل اتجاه العالم الاسلامي عن آل حفص ؛ فخسروا بالتالي الزعامة الدينية .

ورافق هذه النهضة السياسية ، في صدر دولة الحفصيين ، نهضة مثلها ثقافية ، قامت على سواعد بعض العلماء المهاجرين من الأندلس. فقد التف حول أبي زكريا الشعراء ورجال الثقافة ، وعملوا على تعزيز مكتبة جامع الزيتونة ، فبلغ عدد كتبها يوم وفاته ستة وثلاثين الف مخطوطة . ثم كان عصر المستنصر عصر تونس الذهبي وعصرها القلمي أيضاً . وعلى رواية ارثور بلليكرين « فان الازدهار الأدبي ظلّ مستمراً حتى عهد اضمحلال الدولة ، وان الذين خلفوا المولى أبي فارس على العرش (١٣٩٣ – ١٤٣٤ م) وشهدوا ذلك العهد المضطرب ، كانوا هم أنفسهم فنانين وادباء » . هذا وإذا كان ابن خلدون يعتبر انموذجاً لكتّاب ذلك الجيل فانعم به من جيل بلغت فيه الغربية مستواها العالي .

ثم تلا ذلك انحدار أمصار شمال افريقية ، ولا سيما منذ أواخر القرن الخامس عشر ، من جراء فوضى السياسة ، فغمرتها موجة من الصوفية طبعتها بطابع جديد كانت من مظاهره تلك الزوايا المنتشرة في رحابها ، وتلك الطرق المستأثرة . على انه كان لهذه العناصر الصوفية كثير من المزايا الاخلاقية في ذلك العصر المظلم الذي توارى فيه نشاط النهضة الثقافية .

الفصل التاسع

عصر البدار في الغرب

تأثير الحضارة العربية في اوروبا

درج المؤرخون على اطلاق كلمة النهضة Renaissance على الحركة الادبية الفنية العلمية التي ظهرت في اوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . وهم يرجعون اسبابها الى هجرة علماء اليونان لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية بيد آل عثمان (١٤٥٣ م) . والواقع انه اذا جاز ان يكون هذا الحدث مبدأ النهضة فان مصدرها الاول يرجع الى الايام التي كانت فيها العربية لغة العلم في جامعات اوروبا ، وكان رجال العرب في طليعة اساتذتها ؛ ومنهم مشاهير اطباء العصر واخصاء الملوك .

كما وان زمن النضال الذي احتدم في تلك الايام بين الكنيسة وبين المتأثرين بروح الحضارة العربية هو ايضاً جدير بان يعتبر عهد مخاض لهذه النهضة .

ولا مجال هنا لتقدير فضل العرب على التمدن الحديث الا بالاشارة الى ما كانت عليه اوروبا خلال القرنين التاسع والعاشر من الجهالة والأمية ، والى ما لازمها طيلة القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الانحطاط في الناحية الثقافية .

فبينما كان الاندلسيون ينتقلون من مكتبة عامة الى اخرى ، وذلك بين السبعين مكتبة التي تنافس كل منها الثانية في محتوياتها ؛ وبينما كانت مكتبة قرطبة تضم ستين الف مخطوطة ، كان العثور في اوروبا على كتاب واحد خارج الاديرة يعتبر من الامور النادرة .

على انه مهما كان للاندلس من أثر في بعث هذا التمدن الحديث فمن الواجب ألا ننسى ما كان لكل من صقلية والشرق الادنى من تأثير بالغ في هذه الناحية .

. . . . .

اثر اسبانيا العربية في النهضة الاوربيه

قطعة من اوروبا اتيح لها ان تصبح منارة لحضارة جديدة ، فكان من الطبيعي ان يشع نورها فيما حولها ليستضيء به جيرانها . ويبدو لنا ان الغرب قطع مراحل ثلاثاً في التلمذة على الاندلس ماشت الازمان التالية : ١ – عهــد الفتح العربي ٢ – عهد النهضة الاندلسية ٣ – عهـد النضوج .وكان العهدالاخير اعظمها اثراً ؛ اذ ان الحضارة العربية كانت لا تزال تكتسح فيه الغرب ، رغم ان الغرب كان يكتسح الشرق في الناحية السياسية .

١ ــ *عهد الفتح العربي* : اجتاز العرب جبـال البيرانس Pyrènnés ، واسترسلوا في التقدم حتى اقتربوا من باريس . ولما وفق شارل مارتل في الوقوف بوجهم جلوا عن بورغونيا Borgogna وبرنيا Bernya وبروفنسا Provença الى جنوب فرنسا ، ثم لم يحاول عمال اموي الشام ان يعيـدوا الكرة على فرنسا للاحداث السياسية التي تناوبت في دمشق ، وتراجع صداها في اسبانيا .

ولما استقر الامر للدولة الاموية في قرطبة جنحت الى فتح جزر البحر المتوسط المقابلة للشواطيء الافرنسية ؛ وتحولت الى سواحل فرنسا تحتلها : فأسست مستعمرة فراكسينه Fraccinet ، فيما بين فينيس وطولون ، واتخذتها قاعدة للغزو . وبقيت هذه في حكم العرب من ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م الى أواخر القرن العاشر . وخلال ذلك وطأت اقدام الامويين اقليمي تارنتيزة Tarentaise ووالس بسويسرة، وانتهوا الى بسط نفوذهم ،بعد بضع سنين،على فريجوى، وطولون وسائر الساحل، كما انتهوا الى فتح ايالات ضفاف الرون .

هذا وقبل عامين من وفاة عبد الرحمن الاول في قرطبة كان قد بويع في بغداد هارون الرشيد ، فبلغت الحركة العلمية في ايامه ، وأيام ابنه المـأمون ، درجة عالية أدهشت العالم .

وقد أثار ازدهار العراق نشاطاً عظيما في اسبانيا العربية انتهى بهـــا الى الفوز باعجاب العالم ايضاً ، وكان الحافز لهذا النشاط تلك المنافسة التي استحكمت بين خلفاء بغداد وخلفاء قرطبة .

وصادف أن شهدهذه المناظرة ملك عظيم من ملوك اوروبا أوتي بسطة في الملك ؛

واعني به الامبراطور شارلمان ، فأثرت عليه ايضاً ؛ وتمثلا بالعرب،قرب اليه الشعراء والعلماء ، والف تحت رياسته مجمعـــاً علمياً ، كما انشأ مدرسة ملكية في قصره عهد بادارتها إلى شماس انكليزي اسمه الكوين Alcuin . واقام مدارس اخرى عمومية في جوار الكنائس والاديرة . ولكن البيئة الاوروبية لم تكن قد تأهبت لقبول هذه النهضة المبكرة ، فما ان قضى شارلمان نحبه الا واندرست معالم جهوده الادبية .

غير ان عناصر النهضة الاوروبية شرعت من ثم تتفاعل وتتكاثر بطريقة طبيعية دون تصميم : فقد تسنى للامصار ، التي دخلت في حوزة العرب ، ان تتلقح سريعاً بجراثيم الحياة، وذلك بالاختلاط والتزاوج،فضلاً عن مفعول تشبه الضعيف بالقوي ؛ وكان اسبقهم الى ذلك اهل الجنوب الذين كانوا أشد الاوروبيين تماساً بالعرب ، وهم الوزيقوط الاسبان ، والافرنسيون .

٢ ــ *عهد النهضة* : اعتبر الفرنجة العرب في اسبانيا دخلاء مغتصبين ، فما فتئوا ينقضون عليهم عند كل فرصة تسنح . غير ان الاعتراف بالامر الواقع كان ، من جهة أخرى ، لا مفرّ منه : فوحدة المصالح وعلاقات الجوار كانت كلها تؤدي حتماً الى التواصل بين الفريقين ، ولا سيا في الناحية الاقتصادية . كما ان ازدهار الاندلس الثقافي وعمرانها كانا يشوقان الطلاب والمستشفين والسياح الى زيارتهـا ، وقد ذكر سدّيو في معرض الاستشهاد بوفاء العرب مجيء عدد كثــير من ملوك قشتالة ونواره Navare إلى قرطبة للاستشفاء ولاستشارة اطبائهـا الشهيرين ، فضلا عن وفود الملوك الذين كانوا يؤمّون الاندلس للشؤون السياسية .وعلق على ذلك بقوله «فهذا الاختلاط الثقافي والاقتصادي والسياسي بين العرب وبين اوروبا، جعل الحضارة العربية تتعدى اسبانيا، وتنساب الى اعماق العالم المسيحي. وبلغ من نفوذ هذه الحضارة ان الاسبان ، ولا سيا الذين كانوا تحت الحكم الاسلامي ،اختاروا الجنسية العربية ، ولغتها، وساهموا في الآداب العربية ، وتوافدوا الى جامعاتها الكبرى » .

وفضلاً عن ذلك فان الآداب الاسبانية نفسها تأثرت كثيراً بالآداب العربية . كما ان أهل جنوب فرنسا تأثروا بالمتخلفين من العرب في بلادهم والمجاورين،فقلدوهم في الفروسية وأخلاقها ، وبتلحين الاغاني ، وانشاء الشعر ، وأخذوا عنهم آداب النظم والنثر والقوافي ورقة الغزل .ونقلوا عنهم القصص والنوادر،وضروب الامثال والحكم .

وقد قال مؤلفا كتاب الكون jonanin&vangaver; L'univers, Turquie T. 4.

« وعدا الملامح العربية ، والاسماء العربية فقد بلغ من نفوذ الاندلس عليهم ان اساقفة ثغر ماكولون Maguelone وحكامه ضربوا نقداً خط بالكوفي على احد وجهيه « لا إله الا الله محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر رسم الحاكم واسمه ».

وقد ادركت الكنيسة الخطر عليها من رواج ثقافة العرب ، وانتشار مبادئهم، وكان المقام البابوي أصبح منذ عهد شارلمان صاحب حق مكتسب في التدخل بالسياسة ، فبادرت الى مكافحته دون هوادة. وقد اتهم شارلمان الثاني ، في القرن التاسع للميلاد ، بالكفر لأن جون أريجان رئيس المدرسة الملكية نقل عن العربية وسواها بعض المبادىء الفلسفية ، ونشر افكاراً حرة . وقضى كوتشالك العالم الالماني نحبه فيغيابة السجن (٨٦٧ م) لانه أخذ برأي الاسلام في القضاء والقدر، وجاهر في الاعتقاد بهما .

ولما قفل جربرت الافرنسي ،عائداً من مدارس الاندلس ، حسبه الناس ساحراً واتهموه بانه باع روحه من الجن . ولكنه وفق ، رغم ذلك ، وبمساعدة اوتون الثالث امبرطور المانيا ، الى تسنم كرسي البابوية (٣٩٠ هـ = ٩٩٩ م) تحت اسم سلفسترو الثاني ؛ فاظهر تسامحاً نحو الحرية الفكرية ، وعطفاً على العلوم الرياضية ، مما اثار ثائرة الاكليروس عليه ؛ فما زالو يكيدون له حتى قتل . وما فتئوا يترصدون كل مفكر حر غيره . فلما شرح برانجه دوتور Beranger de tours الافرنسي رأي سكوت آريجان Scot Érigène في خلود المادة حرم من ثلاثة مجامع ، فاضطر تحت ضغط التهديد لاعلان تراجعه .

ولما انكر بطرس ابيلار الافرنسي (١٠٧٩ ١١٤٢ م) خريج الاندلس عقيدة التثليث، والايمان بان الدين فوق العقل ، مني بالحرمان ، ومات مضطهداً . هذا فضلاً عن حملة البابا اينوسان الثالث على شيعة الالبيين Albigeois ، في جنوب فرنسا حيث انتشرت مبادىء المدنية العربية أشد من اي قطر آخر، تلك الحملة التي خربت البلاد ، وكانت سبباً في ايجاد مجلس التفتيش .

هذا وقد استمر تلامذة العرب ومريدوهم من الاحرار قيد الاضطهاد حتى جاءت الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٢٧٠ م) ، وافضت بالنتيجة الى تأييد افكارهم .

٣ — **عهد النضوج الاندلسي** — يعتبر عصر الأمويين في اسبانيا عصر البعث، وأما الثقافة العالية فيها فقد نضجت خلال جلاء العرب عن عواصمها، أي منذ سنة ١٠٨٥ م ، حين سقطت طليطلة ، الى سنتي ١٢٣٨ و ١٢٤٨ م عامي الجلاء عن

قرطبة فاشبيلية . وكان من نتيجة ازدهار العلوم عندهم ، عهد انكماش الحدود ، ان العلماء اختاروا النزوح عن بلاد اصبحت فريسة للحروب ، الى مواطن ينعمون فيها بالاستقرار ؛ فاختار فريق منهم ، وفي طليعتهم اليهود، النزول في رحاب المجددين من عواهل أوروبا ؛ واستقرب آخرون جنوب فرنسا ، فرحلوا اليه واستوطنوه .

وقد اشار درابر Drapper الى هذه الهجرة ، وكيف صار السَّواد الاعظم من اطباء اوروبا واساتذتها ، منذ غرة القرن الحادي عشر ، من اليهود المستعربين ومن سائر العرب . ذلك ان احتكاك اوروبا بالعرب كان قد بث في روعها حب النهضة والتنور ، فاقبل علماؤها على ترجمة مؤلفات المسلمين ، ونشط عواهلها الى اقامة المعاهد العلمية ، حتى اذا كانت هجرة علماء العرب اليهم والمستعربين غلت مراجل النهضة ، وعجلت في انضاجها .

ويعود الفضل الأول في الاقدام على ترجمة كتب العرب الى البابا سيلفستر الثاني المشار اليه ، وهو اول من وصل الينا خبره من المترجمين ، ثم جاء بعده هرمان المقفع المتوفي سنة ١٠٥٤ م ، ثم قسطنطين الافريقي وغيرهم . على ان عناية الاسبان بالترجمة خرجت عن حد العمل الفردي الى انشاء كلية المترجمين في مدينة طليطلة تحت رعاية المطران رايموند Raymond de Tolède (١١٣٠ م) ؛ وقامت هذه الكلية بترجمة أشهر المؤلفات العربية ، والكتب التي كان العرب ترجموها عن اللاتينية ، فاصبحت بذلك طليطلة ، عاصمة ملوك قشتالة ، منذ القرن الثاني عشر ، المورد العذب لرواد الثقافة العربية من أقصى اوروبا . فزارها من بريطانيا العظمى اديلارد ، وترجم الزيج الفلكي الذي وضعه المجريطي ، ثم نزل بها روبرت اوف تشستر ، وقام بالترجمة الاولى لما كتبه الخوارزمي في علم الجبر الى الانكليزية ، ثم جاءها ميكائيل سكوت الاسكتلندي ، وارتحل من بالرمو بصقلية الى طليطلة ، ووضع فيها كتابه خلاصة فلسفة ابن سينا . وروي روجر بيكن ان هذا المستشرق نقل معه الى اكسفورد فلسفة ارسطو عن العربية .

والى هذا فقد استعان عواهل اوروبا بعلماء العربية من المسلمين واليهود على تعزيز مدارسهم وتوجيهها : فقامت مدرسة سالرن الطبية ، في القرن الثامن عشر ، على سواعد العرب وتلاميذهم ، وبلغت بهم الذروة في عهد صديقهم ، فردريك الثاني واصبحت كلية من الكليات ؛ كما اصبحت اللغة العربية في عداد اللغات التي تدرس فيها .

وكان الفرنسيون انشأوا مدرسة طبية في مونبلييه (١٢٢٠ م) قوامها بعض المهاجرين من علماء الاندلس ، فاصبحت جامعة (١٢٩٢ م) . ويروي درابر ان اللغة العربية كانت تدرس فيها ،وإلى جانبها العبرية ، وكذلك كان شأن اللغة العربية في مدارس تارنت وباري في ايطاليا ، وناربون في فرنسا .

على ان الدراسات العربية ظلت جزءاً من مناهج جامعات كثيرة ، ومنها جامعتا اكسفورد وباريس،خلال القرن الرابع عشر . واستمر الاوربيون كذلك يعنون الى عهد قريب ، باصدار نفائس الكتب العربية . وقد ذكر الشيخ احمد بن محمد الخالدي (لبنان عهد الامير فخر الدين ص ٢١٢) « ان الامير فخر الدين المعني الثاني رأى الايطاليين في القرن السابع عشر يعنون ، كل العناية،بنشر الكتب العربية رغم انهم كانوا حديثي العهد بالطباعة ؛ وانهم كانوا يبيعون هذه الكتب باثمان قليلة ، حتى ان كتاب قانون ابن سينا في الطب كان يباع بسبعة او بثمانية قروش . »

وقد افضى كل ذلك الى ان العلم الذي كان محصوراً في طبقة رجال الدين ، ومطوقاً بجدران الاديرة ، وهو لا يكاد يتعدى نطاق الابحاث الدينية ؛ قد اصبح مشاعاً للناس ، وطليقاً ؛ تغذيه موضوعات الحضاره العربية ، ويروّيه ما نقله العرب عن المدنيات السابقة . وقد رافق تلك النزعة في اوروبا تطلع ايضاً الى المؤلفات اليونانية مباشرة والرومانية .

ولا ريب ان المولفات التي صدرت في اوروبا خلال القرنين الثالث عشر، والرابع عشر كانت تتأثر بالحضارة العربية : فآراء دانتي في الآخرة مثلاً قد لا تكون مستقاة مباشرة من مصدر عربي ، ولكنها في الواقع ، شرقية المادة ، ولعلها مستمدة من ادب اوروبا المعاصر لذلك العهد .

وهذا ما حمل الخوري تاري لأن يؤكد في الكتاب الحديث الذي اصدره واسماه « طليطلة مدينة نهضة العصور الوسطى » بان الثقافة ، وخصوصاً فلسفة أرسطو ،«لم تنقل بطريق : اثينا – روما – باريس، وانما جاءت من الشرق الادنى العربي ، وذلك بطريق : الاسكندرية – القيروان – قرطبة ».

. . . . .

تأثير صقلية في النهضة الاوروبية : احتل العرب هذه الجزيرة في منتصف القرن التاسع للميلاد ، وظلوا يحكمونها حتى اواخر القرن الحادي عشر . وهذه المدة ، التي تبلغ ثلاثة اجيال ونيفاً ، كانت كافية للعرب لأن يعطوا فيها لونهم ،

فتنطبع صقلية بطابعهم الاجتماعي ، خصوصاً وان الفاتحين كانوا قد اكتسبوا قلوب اهليها بحسن المعاملة .

وقد قال المؤرخ الايطالي آماري في كتابه « المسلمون في صقليــــة » : « ان الرعايا المغلوبين كانوا يتمتعون في حكم امراء المسلمين ببحبوحة من الراحـــة ؛ ولا نغالي اذا قلنا انهم كانوا خيراً من الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت سلطـــة اللنجوريين والفرنجة » .

ولما دخلت صقلية نهائيـــاً في حوزة النورمان سرعان ما اظهر روجر الاول (١٠٣١ – ١١٠١ م) عناية شديدة بالثقافة العربية . ودرج على سنته خلفـــاؤه ، فقربوا العرب اليهم ، وعولوا عليهم في التدريس والفنون ؛ كما اعتمدوا عليهم في الادارة والجندية ، ومنحوهم ثقتهم حتى كانوا يوجهونهم في بعض الوفود السياسية .

وهذا ما حمل الشريف الادريسي على ان يختار الحياة في كنف روجير الثاني ، ويفضلها على مراكش . وقد وضع هناك الرسوم والاصول في الجغرافية التي استند اليها ، من بعد ، المغامرون مكتشفو اميركا وطريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك استنادهم الى نظرية كل من البتاني وابن رسته قبله في كروية الارض .

وكما استمر التعليم في صقلية باللغة العربية ، وظل اهلها يتخاطبون بها ، وخصوصاً الطبقة المثقفة : فان روجر الثاني المشار اليه ارتدى الملابس العربيـــة حتى اطلق عليه ناقدوه « الملك النصف وثني » . وقد زار الرحالة ابن جبير هذه الجزيرة سنة (١١٨٧م) عهد الملك غليوم الثاني ، ولما استعرض الامثلة في رسالته « رحلة في صقلية » على ثقة هذا العاهل بالمسلمين قال : « أما فتيانه الذين هم عيون دولته ، واهل عمالته في ملكه ، فانهم مسلمون » . هذا وفضلاً عن حرسه والناظرين في مطبخه الذين كانوا من المسلمين ، فقد كان « يتشبه بملوك المسلمين في الانغماس بنعيم الملك وترتيب قوانينه ، واظهار زينته ، ويقرأ العربية ويكتبها » هذا الى ان ابن جبير روى انه شاهـــد النصرانيات في مدينة بالرمة Balerme خارجات في زي المسلمات .

ولما انتهى الملك الى فردريك الثاني (١١٩٤ – ١٢٥٠ م) الذي اصبـــح امبراطوراً على كل من المانيا وصقلية ؛ استند الى العرب في برنامجه الاصلاحي ، ولا سيما في التدريس ، وفي الشؤون الحربية والسياسة . وكان في جملة حاشيته العربية ولدا ابن رشد . وقد اعدّ ميخائيل اسكوت للامبراطور المشار اليه ، عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية ، موجزاً تضمن خلاصة مؤلفات ارسطو مع شرح ابن سينا . ولما

اسس فريدريك جامعة نابل (١٢٢٤ م) ، وهي الجامعة الاولى التي تأسست في اوروبا بمقتضى براءة رسمية ، عني بترجمة المؤلفات العربية الكثيرة ، وفرض تدريسها في هذه الجامعة . هذا الى ان هذا الامبراطور الذي كان عربياً في ثقافته ، كان عربياً في حياته الشخصية ، مفتوناً بالاقتباس عن العرب مذ اتصل بهم في الحروب الصليبية . وعدا انه اتخذ داراً خاصة بالحريم ، مليئة بالفاتنات الشهيرات في الجمال ، او في الفنون والآداب ، فقد احضر من الشام رجالاً اخصائيين في ترويض البزاة ، ومن مصر آخرين لاجراء التجارب في بعض النعام ؛ وكان شديد الاهتمام بالموسيقى والرقص اهتمامه بالغناء العربي .

ويقول الدكتور لويجي رينالدي في محاضرة القاها بالقاهرة ، ونشرتها مجلة المقتطف في مجلدها ٥٩ ما نصه : « ولا تزال الى الآن موجودة براءات ملوك النورمان مكتوبة باللغات العربية واللاتينية واليونانية . كذلك كانت اللغة العربية احدى اللغات التي تضرب بها نقودهم ، وعليها شارتا الاسلام والمسيحية . ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل كانت الشهادة « لا اله الا الله محمد رسول الله » تنقش على تلك النقود . واستمر الامراء الذين خلفوا النورمان ، يضربون نقودهم في اللغة العربية . »

ولما كان ملوك النورمان وخلفاؤهم في صقلية ، هم اصحاب ايطالية الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم ان تكون بالنسبة للثقافة العربية رقبة جسر تجتازه الى اواسط اوروبا ، وهكذا فمنذ منتصف القرن العاشر بدأت اثار العلوم العربية وآدابها تظهر واضحة في جبال الالب .

ولكن الزمن لم يصفُ الى النهاية لمسلمي صقلية : فقد خلف عواهلها المتسامحين خلف جروا مجرى الاسبان في اكراه المسلمين على التنصر ، وأجلوهم عنوة عن صقلية وايطاليا وسائر جزر البحر المتوسط . على ان آثارهم قد ظلت مع ذلك خالدة : وعدا الاماكن ، التي لا تزال تحمل اسماءها العربية ، فان بعض التقاليد العربية ما فتئت سائدة في الجزيرة وغيرها ، فضلا عن المخلفات العربية الاخرى في الناحية الثقافيــــة .

تأثير الحروب الصليبية : ترجع المناظرة بين الشرق والغرب الى زمن بعيد ، غير انها قد ازدادت شدة منذ اصطدم الاسلام بالنصرانية .

ومن شأن المتخاصمين ان يحمل كل على الآخر حملات عنيفة غايتها تجسيم صغائر

العيوب ، وتصغير كبائر المحاسن ؛ وعلى ذلك فان المقام البابوي ، الذي اعتزم الدعوة لانقاذ فلسطين، ما فتىء يملأ قلوب العالم المسيحي حقداً على المسلمين ، ويحشي افكارهم اوهاماً حتى حسب هؤلاء ان المسلمين وثنيون يؤلهون محمداً .

ولكن سرعان ما كان رد الفعل كبيراً منذ تم الاتصال بين الصليبيين والمسلمين: فقد انقلبت افكارهم ، وتعدلت عواطفهم ، ثم انتهى امرهم ،فيما بعد، إلى الاعجاب بتقاليد المسلمين وحضارتهم ، واخذوا بها . وبالغ كبارهم في التشبه بهم حتى خلعوا اللباس الاوروبي،واختاروا الازياءالعربية، كما اختاروا البيوت والاطعمةالشرقية. هذا فضلاً عن اعجاب المثقفين منهم بعلوم العرب وآدابهم وفنونهم ، فتسابقوا اليها يقتبسونها ، وخصوصاً ما كان منها في فن القتال ومعداته ، وفي الفروسية وسائر الاعمال الرياضية .

قال المؤلفان الافرنسيان بلانشه Blanchet وتوتاني Toutany : « ان باكورة منظوماتنا الحماسية ظهرت خلال الحروب الصليبية ، وكذلك اول تاريخ اصدره افرنسي من غير الاكليروس. هذا الى ان الناظمين الأولين فيلهاردون Vilhardon وجوانفيل Jouanville كانا في جملة الصليبيين ايضاً » .

على ان الاتصال بين الشرق والغرب بالحروب الصليبية بدأ اثره ايضاً في الاوساط الاكليركية والملكية : فقد فشت ، على اثر ذلك ، الافكار الحرة حتى بين أخلص الرهبنات للكنيسة ؛ فاتهم الفرنسيسكان والدومنيك بالهرطقة . ولما عادت اخوية الهيكليين من فلسطين أعلن بعض افرادها ان محمداً ليس زنديقاً ، وانما هو صاحب دين يدعو للتوحيد ، ودافع بعضهم عن السلطان صلاح الدين ؛ فكان جزاؤهم الاعدام .

وجرؤ الامبراطور فردريك الثاني ، بعد عودته الى المانيا ، على ان يقوم بتجديد المجتمع تجديداً مداره التمدن العربي ، فحرمته الكنيسة مرات ثم شهرت عليه حرباً صليبية لم يطقها ، فقضى نحبه في ايطاليا يائساً .

وكانت الكنيسة ، خلال الحماس الديني الشديد ، الذي رافق الحملات الصليبية الاولى ،قد اكتسبت نفوذاً سياسياً ساعدها على التدخل في شؤون الدول ،وعلى الاسراف في جمع الاموال. كل ذلك قد اهاب بفليب ملك فرنسا ، الملقب بالعادل ،لان يقول، على رواية درابر : « لا ريب ان صلاح الدين يتمتع بالسعادة ، إذ لا بابا فوقه ؛ واني لاتمنى ان اكون مسلماً . » Drapper Hist. int. de l'Europe

غير ان انباء فشل الحروب الصليبية ، ما ان انتشرت ، الا واستوى الراعي والرعية في الحملة على مثيريها الذين استثمروها ؛ فأفضى كل ذلك الى الانشقاق الذي اصاب الكنيسة مرتين واضعف نفوذها .

وبذلك افسح المجال للافكار الحرة ، والمبادىء التي حمل مشعلها فردريك الثاني ، واعتنقها التلامذة الذين نشأوا في حكمه لأن تشق الطريق لها ، وخصوصاً في الجيل التالي . فكان في طليعة حماة هذه المبادىء ويكلف الانكليزي (١٣٢٤ – ١٣٨٤م) — ، وحنا هوس البوهيمي (١٣٧٣ – ١٤١٥ م) ، وجروم دوبراك البوهمي (١٣٧٨– ١٤١٦ م) وغيرهم .

هذا الى انه كان من فوائد الحروب الصليبية في صعيد خدمة النهضة الاوروبية ان نقلت ، فيما نقلت عن الشرق العربي ، مبادىء الديمقراطية ، وتحرير طبقة الزراع العامة ، وتحرير الصناع ، مما فسح المجال لان تصبح الثقافة مشاعاً بين الناس .

وما يدرينا ان يكون علماء بيزنطة ، الذين عاصروا التمدن العربي نيفاً وثمانية قرون ، والذين اشتركت امبراطوريتهم بعض الشيء في الحروب الصليبية ؛ مايدرينا ان يكونوا قد حملوا معهم الى اواسط اوروبا ، عند مغادرتهم قسطنطينية فراراً من الترك ، في جملة ما حملوه ، من العلوم ثقافة العرب التي كانت تعتبر ثقافة العصر .

وعلى كل فان نهاية الحروب الصليبية كانت بداية عهد جديد لكل من الشرق والغرب . وقد وصف رينان هذا العهد بقوله : « حدث بعد الحملة الثامنة (٦٦٩ هـ = ١٢٧٩ م) وهي آخر الحملات الصليبية ، حركتان مختلفتان : الاولى تشعر بانحطاط العالم الاسلامي ، والاخرى تنوّه بنهوض العالم المسيحي : ذلك لأن جراثيم حياة العلوم الاسلامية كانت انحلت بعد ان لقحت جراثيم الحياة في البلاد الاوروبية . ومنذ ذلك الحين اخذ العالمان يتجهان وجهتين مختلفتين : علواً وهبوطاً . »



مخلفات العرب في التمدن الحديث

قال ليبري Libri : « ارفعوا العرب من التاريخ تتأخر النهضة الادبية في اوروبا قروناً عدة » . وهذا يشبه ان يكون رأي جميع المؤرخين المنصفين . والذي نراه ان تأثير العرب لم يقتصر على العلم والادب والفن ، بل تعداها الى الناحيتين الاخلاقية والدينية .

(**التأثير الثقافي**) — قال كوستاف لوبون : « على ترجمات الكتب العربية ، ولا سيما العلمية منها ، كانت جامعات اوروبا تقصر اعتمادها ، خلال خمسمائة او ستمائة عام . ويصح القول ان نفوذ العرب ، في بعض الفروع العلمية ، قد امتد الى أيامنا الحاضرة : ففي الطب مثلاً ، ظل الاوروبيون ، حتى اواخر القرن الماضي ، يعلقون في جامعة مونبليه الحواشي على مؤلفات ابن سينا . وفي الفلسفة فان ابن رشد أصبح ، منذ غرة القرن الثالث عشر ، صاحب التأثير الاول في الجامعات الاوروبية . ولما عني لويس الحادي عشر (١٤٧٣ م) بتنظيم التعليم أمر بدراسة فلسفة العرب وارسطو . وكان للعرب مثل هذا النفوذ في جامعات ايطاليا وخاصة في بادو . »

وحتى القرن الخامس عشر كان ، على رواية لوبون ، لا يرد اسم مؤلف يخرج عمله عن حد النسخ عن العرب . ويقول مستشهداً برينان : « ان البير الكبير مديون بكل شيء لابن سينا ، كما ان القديس توما مديون كفيلسوف بكل شيء لابن رشد . » والواقع ان المؤلفين في اللغة العربية الذين نقل عنهم الافرنج هم اكثر من ان يحصوا . وقد أعلن السر رونالد ستورس رأيه في هذا الموضوع بحديث القاه من محطة الاذاعة في لندن مساء ٢٥ / ١١ / ١٩٣٨ وقال : « لا اخالني مغالياً اذا قلت ان ما نقل عن المؤلفات العربية الى الانكليزية ، وما علق عليه منها ، لأكثر عدداً وأدق ترجمة مما نقل عن الانكليزية الى العربية . »

هذا ومراعاة لخطة الاختصار نكتفي بايراد اسماء أشهر من نقل عنهم الافرنج من مؤلفي العربية :

في الفلسفة — الكندي ، وقسطا بن لوقا ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وما شاء الله ، وابن جبريل ، وحنين بن اسحاق ، والسرخسي .

في الرياضيات والنجوم ـــ ثابت بن قرة ، واولاد موسى ، والخوارزمي ، وابن الهيثم ، والفرغـــاني ، والبستاني ، وابن افلح ، والبتروجي ، وابن الصفار ، والقبيصي والزرقاني .

في الطب والجراحة ـــ ابن سينا ، وسرابيون الكبير والصغير ، وماسويه الكبير والصغير ، والرازي ، وابن الجزار ، والزهراوي ، وعلي بن عبـــاس ، وعيسى بن علي ، والميموني ، وابن زهر ، وابن جزلة . هذا وقد اوصل الدكتور لوكلارك Leclerc في مؤلفه تاريخ الطب ، عدد الكتب الطبية التي ترجمت عن العربية الى اللاتينية وحدها الى نحو ثلاثمائة كتاب .

ومن المفيد الاشارة هنا الى ان تلك العلوم التي اقتبسها الاوربيون عن العرب ، منها ما هو مأخوذ في الاصل عن اليونان والفرس والهنود ، وزاده التمدن العربي اتقاناً ، ومنها ما يعتبر من موضوعات العرب انفسهم . على ان اشهر ما منحه العرب في مختلف انواع الثقافة لاوروبا ما يلي :

في العلوم الرياضية والفلسفة ـــ الاعداد البسيطة المعروفـــة بالارقام العربية ، والجبر ، ولا يزال اسم الجبر عربياً في اللغات الاجنبية .

في علم الفلك ـــ مصطلحات وضعت بالعربية ، ولا تزال كذلك ، فضلاً عن اربعمائة اسم ونيف للنجوم كلها عربية .

في الطب ـــ المرقد (البنج) والكاويات في الجراحة ، وعلاجات اليرقان . والحصبة ، والجدري . ومما يسرنا الاشارة اليه ان الجمعية الملكية الطبية في بريطانيا العظمى نوهت في رسالتها التي وجهتها إلى المؤتمر الطبي العربي الذي انعقد في بيروت عام ١٩٤٤ « بانها ظلت طوال المائة والاربعين عاماً التي سلختها تعترف بان العلماء العرب قاموا بدور جيد في نقل تراث اليونان الطبي وتنميته ، واسدوا معونـــة جليلة في سبيل تقديمه للعالم ونشره » .

في الجراحة ـــ طريقة خلع الكتف برد المقاومة ، وقدح العين ، وتفتيت الحصاة .

في الكيمياء ـــ استحضار العقاقير بالتقطير والترشيح ، وفن الصيدلة ، وكثير من المستحضرات الكيماوية .

والى هذا كله فان الافرنج بنوا اكثر ابحاثهم في علم النبات على كتب العرب ،

واخذوا عنهم المعاجم التاريخية والجغرافية ، كما اخذوا عنهم موسوعات العلوم (الانسكلوبيديا) ؛ إذ كانوا هم اول من وضع هذه المعاجم والموسوعات.

ولعل هذا الفيض في علوم العرب وادابهم المترجمة هو الذي اوحى للمستشرق الانكليزي المعاصر أ.ج.أربري قوله في مقال نقلته مجلةالأديب (تموز ١٩٤٤)مايلي: « فيندر ان نجد شاعراً عظيما ، او كاتباً ، او نافداً ، او روائياً ، إلا وقد اعترف بانه مدين للتفكير العربي بالالهام ، وليس فقط في الالفاظ ، بل فيما يتناوله ايضاً من الموضوعات العربية في انشاءاته الادبية » .

وبعد فلا تزال الادلة على نفوذ العرب الثقافي حية بالكلمات والاسماء العربية ، المتداولة ، في اللغات الاجنبية . وقد بلغ من كثرة هذه الكلمات في اللغة الاسبانية ان دوزى Dózy وانجلمن Engelman تمكنا من ان يؤلفا قاموساً كاملًا يرجع الكلمات الاسبانية إلى أصلها العربي . على ان انتشار الكلمات العربية والاسماء لا يقتصر على اللغة الاسبانية فحسب ، بل هو يشمل ايضاً اللغات كافة ؛ فقد أخذ بعضها عن بعض هذه الكلمات حتى أصبحت فيها كالاصيلة . وقد جمع باسكوال مئات من الكلم الافرنجية وأرجعها إلى أصلها العربي ، وكثيرمنها في علمي الفلك والكيمياء . وأشار سدّيو إلى ان لغة الباتوا Patois في جنوب فرنسا مزجاة بالكلمات العربية ، وان اسماء الاعلام هناك ليست سوى رجع صدى لاسماء عربية . وفي مجلة الجنان (١٨٧٠) مقال للمسز فريجير الانكليزي عنوانه : « فضل اللغة العربية على الانكليزية » ادرج فيه كثيراً من الكلمات والاصطلاحات العربية التي يتداولها اللسان الانكليزي .

(التأثير الفني والادبي) — وعدا اسبانيا التي يكاد يصبح فيها القول انها تعربت ، فقد بلغ من نفوذ العرب الأدبي على جنوب فرنسا انهم كثيراً ما كانوا يعدلون عن الشعراللاتيني إلى اشعار العرب وازجالهم ، ينشدها شعراؤهم في بيوت الامراء ، ويرتلها فقراؤهم للاستجداء . وكان للموسيقىالعربية والرقص مثل هذا الرواج . ولا يزال الطابع العربييسيطر على هذه الفنون الجميلة في صقلية واسبانيا،لا سيما في بعض الولايات كلشبيلية، كما لا تفتأ الممالك، التي تتكلم اللغة الاسبانية في اميركا ، تحتفظ بشيء من الطابع العربي . وقد نوهنا اخيراً في خطاب القيناه في الكنسرفتوار اللبناني بتصريح للعالم النمسوي كيوستر يقول فيه : « أن العرب هم أول من استعمل علامة السيكاه الطبيعية ، ومنها يشتق

الديوان الكبير اساس الموسيقى الافرنجية » . وأشرنا إلى ما جاء في مقال لأوجين بوربل رئيس الجمعية الموزيكولوجية الافرنسية من « ان الموسيقى العربية استمرت قروناً عديدة مورداً عذباً للموسيقى الغربية ، وغذاء لها ساعدها على النمو . »

على ان أظهر مابقي من آثار العرب في الفنون مخلفاتهم في الهندسة والفن المعماري. وذهب جوانان Jouannin وفان كوفر Van gover الى ان « الهندسة ، التي تسمى بغير حق قوطية ، انما هي عربية تطورت بمقتضى ما يتناسق مع مناخ بلادهم.» وجاراهما في هذا القول علماء آخرون . على ان الذين دحضوا هـذا الرأي ؛ ومنهم باتيسيه Batissier وبونورمان Penormant ، لم يستطيعوا ، مع ذلك ، ان ينكروا أهمية ما اقتبسه الغرب عن الشرق ؛ بل اتوا بالامثلة على ما في بعض صروح القرن الحادي عشر ، والثـــاني عشر من الفن والزخرف العربيين ، كما انهم اعترفوا بان الاوروبيين كثيراً ما استعانوا بمهندسي العرب .

وجاء في تاريخ باريس لديلور De laure : « ان مهندسين من العرب ساهموا في تشييد كاتدرائية نتردام دو باري في باريس » هذا وقد ظل الصناع المسلمون والفنانون يشار اليهم بالبنان في صقلية ، وفي جنوب ايطاليا ، لأمد طويل بعد تقلص الحكم العربي عنهما . وما النقوش والفسيفساء التي تزدان بها كنيسة البلاتين Palatine إلا تحفة من آثارهم .

هذا ولقد لفت نظري التباين في هندسة البناء في الولايات المتحدة بين الامصار الجنوبية والشمالية ممـــا جعلني اتبين مدى النفوذ الذي بقي للعرب وراء البحار ، وخاصة في البلاد التي تتكلم الاسبانية . فان آثارهم هناك لم تقتصر على ما اقامـــه بعض المثريين من قصور عربية الهندسة والزخرف ، كما في هافانا كوبا ، وفي الطوربون بالمكسيك ، بل شملت الابنية الشعبية العامة ايضاً . فبدت مسحة الفن العربي على دورها بصورة عامة .

ويسرنا ان نختم هذا البحث بكلمة قالها بلانشه وتوتاني : « ان الغرب مدين كثيراً في الفنون الجميلة لليونان بوجه عام ، وللعرب بوجه خاص : إذ اكتسب من هؤلاء ما لا يحصى من مظاهر الزينة ، كالنقش العربي Arabesque واليوناني ، والفسيفساء والرسوم التي تزدان بها الجدران ، فضلا عن صناعة الطنافس والخزف . »

. . . . .

التأثير في الحياة الاقتصادية والحياة العامة : كان العرب ، في الاقتصـاد ،

شأنهم في الثقافة ، ناقلين وواضعين : فقد اقتبسوا صناعة السكر عن الهند ،وانشأوا لها المعامل ، وتفننوا فيها ؛ واخذوا عن الصين صناعة البارود ، والورق والحرير ، وأدخلوا عليها بعض التحسين . ثم انهم ادخلوا الى بلادهم كثيراً من الاشجار والنباتات والإزهار الغريبة . ونقلوا إلى اسبانيا وصقلية كثيراً منها مما لم يكن موجوداً فيهما ؛ كالارز والقطن وقصب السكر وتوت الحرير والنخيل والفستق والموز ، ومثلها طائفة من الازاهير الجميلة . وعلى العموم فان حياتهم الاقتصادية قد ارتقت ارتقاء يتناسق مع نهضتهم الثقافية والسياسية .

وعندما عكف الغرب على اقتفاء آثارهم في المدنية اخذ عنهم، في جملة ما اخذ ، انواع الصنائع، واساليب الزراعة والتعدين. ونقل الغربيون الى بلادهم اصنافاً منها لم يكن لهم عهد بها . ولا سيما ابان الحروب الصليبية؛ ولا تزال أسماء بعضها عربية. كما لا تزال بعض الصناعات الاوروبية تحمل اسماء مشتقة من اسماء مدن عربية اشتهرت بها : فأقمشة الموصلين منسوبة للموصل ، والدامسكو لدمشق ، والمروكان لمراكش ؛ كما ان التحلية بالذهب والفضة المعروفة بالفرنسية بالدامسكيناج Damasquinage منحوت اسمها من دمشق ؛ وصناعة الجلد والاحذية ، التي يطلقون عليها Cordonnerie تأخذ اسمها من قرطبة . هذا فضلاً عن ان النقوش المسماة بـ Arabesque تنسب صراحة للعرب .

على انما خلفه العرب في اوروبا لم يقف عند هذا الحد، بل تخلل الشؤون العامة ايضاً . وقد أتى سديّو ، الذي أطلق على العرب أسياد البحر المتوسط منذ القرن الثامن ، على امثلة كثيرة من العبارات البحرية ، والمصطلحات الجندية والادارية المشتقة من اللغة العربية. هذا ومثلما يعود الفضل للعرب في فكرة انشاء الحمامات العامة، ومنظمات البريد والجنائن العامة ، وحدائق الحيوانات ، كذلك تعود اليهم فكرة انشاء دور المعالجة الطبية ، والبيمارستانات ؛ واهمها تلك التي تعنى بالجزام والبرص .

التأثير الاخلاقي : لما فتح العرب الاندلس وصقلية كانت الافكار في اوروبا محاطة بتقاليد وعادات واعتقادات تحميها السلطة الروحية . بيد ان اختلاط أهليها بالفاتحين أدى الى اختراق منطقة الحصار الفكرية هذه ، فاقتبس الاسبان والافرنسيون والايطاليون صفات جديدة ، أهمها حرية الفكر ، والقول ، مما كان يتخلق به العرب في صدر الاسلام ، وأخذوا عنهم مزايا الفروسية النبيلة .

ولما وقعت الحروب الصليبية ، واشترك فيها الغرب بجميع عناصره وأجزائه ،

ازداد الاحتكاك فالتفاهم بين الاوروبيين والمسلمين، وتهافت الصليبيون على اقتباس حضارة العرب، غثها وسمينها، سواء منها المادي والمعنوي.

وليس لنا ان نزيد شيئاً على ما أورده كوستاف لوبون في هذا السبيل، قال «حاول العرب ان يعلّموا اوروبا أثمن الفضائل البشرية، ألا وهي السماحة، فان رحابة الصدر التي كانوا يتحلون بها، ويعاملون بها الذميين، كانت رائعة الى حد بعيد.

وان السماح لمطارنة النصارى بان يعقدوا مجامع دينيـــة، حيث يقوم الحكم الاسلامي، لأفضل نموذج لهذه السماحة. كما ان مجمعي اشبيلية (٧٨٢م) وقرطبة (٨٥٢م) هما خليقان بان يكونا مثالا للحرية الدينيـــة التي كانوا يتمتعون بها عهد العرب. ان كثيرين من المسيحيين قد اعتنقوا الاسلام، ولكن لم يكن لهم في ذلك غير قليل من الجدوى؛ إذ ان المسيحي واليهودي كلاهمـا كان صنواً للمسلم في الحقوق؛ ولكل منهما حق الاستفادة مثله من مناصب الدولة.

ولم يتوافر عدد اليهود في اسبانيا العربية إلا لانها كانت الوحيدة بين ممالـــك أوروبا رعاية حقوقهم.

وإلى جانب هذه السماحة كان العرب يتحلون باخلاق فاضلة كثيرة من صفات الفروسية: ذلك ان انظمة الفروسية تقضي باحترام الضعفاء، والرحمة بالمغلوبين، والوفاء بالوعود والعهود، الى غير ذلك من المزايا الحميدة. وان هـذه التقاليد التي اطمأن اليها الاوروبيون فيما بعد، وانتهى بهم الامر للتأثر بعناصرها تأثراً اشد من تأثرهم بالديانة نفسها، هي من مما ادخله العرب معهم الى اوروبا.» اهـ

وقد ضرب كوستاف لوبون مثالا على ذلك بحادثة وقعت لحاكم قرطبة حينما كان يضيق الحصار على طليطلة سنة ١١٣٩م، وقال: «فان هذا العربي لم يكد يتلقى رسول الملكة بيرانجير Bérengère المحصورة في المدينة، ويصغي الى رسالتها التي تقول فيها: انه لا يليق بفارس شجاع يزدان باللطف والكرم ان يسدد حملته الى امرأة، حتى أمر جيشه بفك الحصار عن المدينة، مكتفياً بان يحظى فقط بتحية الملكة».

وتأييداً لاقواله استشهد لوبون بمؤلف آخر وصفـــه بشدة التدين: هو بارتلمي سان هيلر Barthalmy St. Hiler، وروى ما دونه هذا المتدين في كتابه عن القرآن حيث قال: «ان اشراف القرون الوسطى قد تمكنوا، بواسطة التجارة مع العرب، وبالتشبه بهم، من بلوغ غاية عالية إذ دمثت هذه العلاقات اخلاقهم الفظة. كما تعرف رجال الفروسية في الغرب الى عواطف أشد رقة مما عندهم، واكتسبوا من العرب نبلا وانسانية دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم. ومن المشكوك فيه ان تكون المسيحية،

وهي على ما هي عليه من تشجيع العمل الطيب، قد تفرّدت في احياء هذه الفضائل».

على ان تقليدهم العرب قد تجاوز هذا الحد، وكما تشبه ملوكهم بسلاطين المسلمين وأقام بعضهم قصور الحريم بجواريها وخصيانها ، ومنهم فردريك الثاني امبراطور المانيا ، كذلك تشبه بهم العامة ، وراجت بينهم عادة تعدد الزوجات . على رواية درابر : فضلاً عن عوائد أخرى .

التأثير الديني : لم يوفق العرب في نشر دينهم باوروبا، كما وفقوا في كل مكان آخر وطأته اقدامهم بغية التجارة أو الفتح .غير ان اوروبا لم تسلم ، مع ذلك ، من مبادئهم الدينية ؛ ولم تستطع منع عقائدهم من التسرب الى صميم ممالكها . وآية ذلك ما حدث عقب انتشار المدنية العربية في اوروبا من انقلاب فكري عام شمل بعض المنظمات الروحيــة ، وأفضى الى انشقاق الكنيسة . ولما قاومت الكنيسة هذا الانقـلاب على اعتباره كفراً وهرطقة ، أدى الى خروج السلطات المدنية عليها ، ثم انتهى الى تقلص سيطرتها .

ولا ريب في ان هـذا الانقلاب الاجتماعي ، وما تخلله من حركة اصلاحية دينية يرجع مصدره الى الاصطـدام بين الاسلام وبين اوروبي القرون الوسطى . ولعل السواد الاعظم من الاصلاحيين، افراداً كانوا أم شيعاً ، هم ممن أتيح لهم التتلمذ على العرب ، سواء أكان ذلك في المدارس ، ام بواسطة المؤلفات .

ولا أدل على هذا من استعراض المبادىء التي بشر بها بعض رجال الاصلاح في فجر النهضة : فان الراهب الالمـــاني كوتشالك (٨٠٨ – ٨٦٧ م) آمن بالقضاء والقـدر ، وسكوت اريجان الانكليزي (٨٣٣ – ٨٨٠ م) اعتقد بخلود المادة ، منكراً امكانيــة تحول عنصري الخبز والخمر الى جسم المسيح ودمه . وبرانجه دوتور الافرنسي (٩٩٨ – ١٠٨٨ م) أقرّ اريجان على افكاره، ونوه بها . وبطرس ابيلار الافرنسي (١٠٧٩– ١١٤٢م)، الذي طلب العلم في الاندلس، أنكر، بعد عودته لبلاده، مبادىء التثليث صراحة. هذا فضلا عن المنظمات الدينية مثل اخوية الهيكليين، ورهبان الفرنسيسكان والدومنيك. الذين عدوا من الخوارج ، وكانوا قبل اختلاطهم بالمسلمين أشد الناس اخلاصاً للكنيسة . وما يدرينـــا بعد ان حركة مارتن لوثر الاصلاحية هي ايضاً وليدة ذلك الاصطدام بين الشريعتين . ونحن من الذين يرون في تحديد البروتستانت سلطة الاكليروس الدينية والزمنية ،وفي البساطة التي توخوها في العبادات والاعتقادات والمعابد شبهاً كثيراً بمبادىء الشريعة الاسلامية .

الفصل العاشر

عصر الانحطاط

العرب خلال سلطنة آل عثمان

كان قـــد أتى على عصر العرب الذهبي ثلاثة قرون حينما نشأت الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد: وهي قرون ثلاثة سجلت انحدار العرب في كل ناحية ، سواء في السياسة ، ام الثقافة ، او الشؤون الاقتصادية .

وخلفهم الاعاجم : المغول والترك والبربر ، فكانوا للاسلام من خيرة الاجناد ، ولكنهم لم يكونوا قط جديرين بمتابعة رسالة العرب الثقافيـــة . وقد امتد حكم آل عثمان نيفاً وستة قرون كان فيها القضاء المبرم على حضارة العرب .

تاريخ العرب السياسي في العهد العثماني

كان العرب، عند قيام آل عثمان، قد تخلوا للاعاجم عن زمام الاحكام، ولم تبق لهم دولة تتمتع بالاستقلال ، سوى امارات في جزيرة العرب ، والدولة الناصرية في غرناطة ، التي لفظت أنفاسها في نهاية القرن الخامس عشر . واما الخلافة فكانت قد أمست بعد انتقالها الى مصر اسماً بلا جسم .

على انه قد عاصر السلطنة العثمانية ،في عهد نشأتها، دول أخرى مستقلة،عربية في لغتها ، وعربية في حضارتها ، ولكنا لم نجار المؤلفين في ايرادها بين الدول العربية ؛ ذلك لان هذا الكتاب انما أردناه ان يكون مؤلفاًقومياً صرفاً؛يتكلم على الدول التي كانت عربية في حكومتها وشعبها فحسب. وأما المماليك في مصر ، وآل حفص في تونس ، وبنو زيان في المغرب الاوسط ، وبنو مرين في المغرب الاقصى ، الذين عاصروا العثمانيين مدة من الزمن ، فان حكوماتهم ، وان كانت مستعربة ، فالاولى ان تحصى بين الدول الاسلامية لا العربية . إذ ما الذي يمنع الترك من اعتبار دولتي

المماليك بمصر في جملة الدول التركية ، كما يعتبر البربر آل حفص وبني زيان وبني مرين في عداد دولهم الخاصة .

هـذا ولم يقع أي اتصال بين العرب وآل عثمان في صدر دولتهم ؛ ذلك لان دولة العثمانيين ، التي قامت على انقاض السلطنة السلجوقية في الاناضول ، كانت قد ورثت عن هؤلاء التوجيه السياسي القـائم على فكرة الجهاد؛ فولت وجهها شطر البيزنطيين تصليهم ناراً حامية ؛ وهي تتوخى بذلك ان تتقـدم لنشر راية الاسلام في البلاد الاجنبية . وقد أدرك مؤسسوها ما أرادوا وبلغت راياتهم اواسط اوروبا.

ولما تبوأ السلطان سليم الاول العرش (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) كان اول سلطان منهم حوّل وجهه نحو الشرق . ومع ذلك فان هذا التحول لم يخل من حافز طائفي: اذ كان قد كبر على السلطان قيام الفرس ، وهم من الشيعة بذبح السنة في بغداد ، وحسب حساباً لأصابع الشاه اسماعيل، ملك ايران، التي كانت تلعب من وراء ستار، فتحول إلى لقائه . وقـد أتيح للسلطان سليم الانتصار على الشاه (١٥١٤ م) ، وظلت الحروب مستعرة بين الدولتين حتى كان الظفر الناجز من نصيب ولده السلطان سليمان القانوني الذي دخل تبريز عاصمـة الفرس (١٥٣٣ م) واتمّ فتح العراق . وكان آل عثمان يؤاخذون المماليك الجراكسة ، اصحاب مصر ، على مـا أظهروه من الشماتـة حين نكبهم تيمورلنك ؛ وازدادوا اغبراراً عليهم بسبب انحيازهم إلى الشاه اسماعيل . لذلك فما ان تغلب السلطان سليم الاول على خصمه هذا حتى زحف يريد القاهرة . على انه لا يستبعد ان يكون في جملة ما حمل السلطان على غزو مصر الطمع في الخلافة . والدليل على ذلك انه ما تمّ له الانتصار على الغوري عاهل مصر والشام (١٥١٧م) إلاّ ونقل الخليفة العباسي إلى دار السلطنة، ثم حمله على التنازل له عن الخلافة . وقد أقام السلطان قبـل مغادرته مصر وسورية حكومتين فيهما منفصلتين احداهما عن الأخرى ، ومرتبطتين مباشرة بالعاصمة . وبذلك لم يقم آل عثمان مقام العرب في دست الخلافة فحسب ، بل ضموا إلى سلطنتهم بلاد العرب في آسية الوسطى ، واحتلوا عواصم الامويين والعباسيين والفاطميين .

وكان الحظ حليفاً لهم فخدمهم ايضـاً في بسط سلطانهم على شمال افريقية . ذلك ان القرصان اوروج ، الذي كان قد استولى على الجزائر وتلمسان وقتئذ ، لجأ ، من جراء ضغط الاسبان عليه ، الى السلطان، ونال منه براءة رسمية بتوليته على

ما يحكم . ولما خلفه خير الدين الملقب بـ « باربارُوس » (اي ذي اللحية الشهباء) تقدم من عاهل استامبول وعرض عليه احتلال المغرب باسمه، فأمده السلطان بقوة، ومنحه لقب « بكلر بك »، افريقية ،ثم نصبه « قبودان باشا »على الاسطول العثماني. وكان باربارُوس مخيفاً، وقد تمكن، كما تمكن من بعده كل من طورغود، واولوج علي اللذان خلفاه في هذا المنصب ، من بسط سيطرة آل عثمان على شمال افريقية ، رغم معارضة اسبانيا التي وقفت دونهم وقفة الجبابرة . وفي سنة ١٥٨٧ م ، عمد السلطان مراد الثالث إلى تقسيم ايالة افريقية إلى ثلاثة بشالق : الجزائر وتونس وطرابلس؛ ونصب على كل منها متولياً . وكان المغرب الاقصى قد دخل ايضاً تحت السيادة العثمانية على اثر انشقاق وقع بين حكامه الأشراف السعديين ، وآذن بتدخل السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤ م) فيما بينهم . وبذلك أصبح علم العثمانيين خفاقاً على سائر الامصار العربية حول البحر المتوسط .

وأما جزيرة العرب فلم تتردد في موالاة السلاطين الفاتحين من آل عثمان ، لان هؤلاء ما برحوا ، منذ عظم شأنهم ، يظهرون عطفهم على الحرمين الشريفين واهليهما بالمال والهدايا. ولما تقدم السلطان ياوز سليم الى قتال مماليك مصر انحاز اليه العرب في الشام ومصر ؛ وما ان تم له النصر حتى سارع شريف مكة الى ايفاد بعثة اليه للتهنئة، حاملة مفتاح الكعبة رمز الخضوع .وبذلك اضاف هذا الفاتح ، الذي كان يلقب بياوز أي القاطع ، وشاه ، وخليفة ، الى القابه لقباً جديداً وهو « خادم الحرمين الشريفين » . وأما في اليمن وسائر اطراف الجزيرة فكانت سلطة آل عثمان بين مدّ وجزر ، وهي على كل حال اسمية، اكثر منها فعلية .

وفي الجملة فقد كان ارتباط الامصار العربية بالسلطنة يتفاوت بنسبة بعد كل منها وقربه عن عاصمتها ، وكلما كان احدها اقرب كان ارتباطه بها أشد وأوثق. وهكذا فبينما كانت جزيرة العرب تخضع لآل عثمان خضوعاً اسمياً ، ومثلها المغرب الاقصى ، وكانت الايالات الثلاث : تونس والجزائر وطرابلس الغرب جعلت السلاطين يقنعون منها بالخطبة لهم،وبالمرتب المفروض، وبالبراءات التي يوجهونها للمتولين عليها، كان العثمانيون يحاولون ان يظل حكمهم مباشراً في مصر والعراق والشام . ففي مصر كان السلطان ياوز سليم اقام على ادارتها ثلاث هيئات : الباشا ، وهو المتولي من قبله ، والوجاقات ، وهي الجهاز العسكري، والمماليك، وهم بقايا مماليك

مصر . وكان الخطأ في الابقاء على هؤلاء المماليك فادحاً لانهم لم يلبثوا ان القوا القبض على أزمة السلطة ، وجعلوا مندوب السلطنة رمزاً للسيادة فقط ، لا حول له ولا طول .

وأما في العراق فقد نصب السلطان سليمان القانوني متولياً على بغداد ، وأقرّ اصحاب الاقطاعات على اقطاعاتهم ، ووزع المناصب والاراضي على قادة الجند الذين استبسلوا في تلك الوقائع . وقد اصدمت السلطنة في بلاد الرافدين بمصاعب لم تستطع تذليها ، خصوصاً لبعد المسافة بينهما . ولحفول تلك البلاد الشاسعة بالقبائل البدوية . هذا فضلاً عن كونها مجاورة لفارس التي كانت لا تفتأ تضرم فيها نيران الفتن ، مستعينة بما في تلك الديار من كثرة تتمذهب بمذهبها . ومن جراء ذلك ، وبسبب اشتغال السلطنة بالحروب الخارجية تغلبت فئة المماليك على بغداد ايضاً ، كما استبدت بالقاهرة ، ولم يحفظوا للسلاطين سوى السيادة الاسمية فحسب .

وأما بلاد الشام فكان السلطان ياوز سليم أقرّ جان بردى غزالي على الولاية بدمشق ، وأقام له عمالا في المدن الكبرى . ثم قسمت سورية الى ثلاث ايالات : دمشق وحلب وطرابلس ، واصبحت اربعاً من بعد انشاء ايالة صيدا ، وكانت فلسطين جزءاً من سوريا مقسمة بين ايالتي دمشق وصيدا . كما كان لبنان مقسماً بين ايالتي طرابلس وصيدا ، فما كان منه في الجنوب كان يدعى لبنان صيدا ، وما كان منه في الشمال كان يدعى لبنان طرابلس . وكانت «المعاملتين» ، وهو مكان بين بيروت وطرابلس ، الحد الفاصل بينهما . وربما كانت بلاد الشام أشد الامصار العربية خضوعاً للباب العالي ، لقربها من دار السلطنة .

هذا ، وقد حفلت ايالة صيدا في القرن السابع عشر ، وما بعده بأحداث جسام اهمها حركة الامير فخر الدين المعني الثاني ، وظاهر العمر ، وزحف المملوك علي بك الكبير ، فضلاً عن حملة نابليون الاول . ومرد ذلك لاتصالها بالبحر المتوسط الذي اصبح ميدان عراك بين الدول الاوربية المستعمرة . وفي هذه الظروف الحرجة برز احمد باشا الجزار ، فكان لآل عثمان ، في ساحل الشام ، بمثابة الحجاج الثقفي لبني أمية في العراق : وطد لهم السلطان ، واخضع كل محاولة فيها جنوح إلى العصيان .

وفي جملة الاحداث التي وقعت في هذه الايالة ايضاً تلك الحملة المصرية عليها التي قادها ابراهيم باشا ، وتقدمت فاتحة شطر عاصمة العثمانيين ، وما عقبها من الفتن الطائفية التي انتهت بقيام متصرفية لبنان الممتازة .

وأما شكل الادارة، الذي خضعت له البلاد العربية في العهد العثماني فقـــد تطور بتطور الظروف والايام؛ فكانت الدولة، باديء ذي بدء، على رواية جودت باشا، تدير شؤون مملكتها بالاضافة إلى الامور العسكرية.

وفي اثناء الحرب يصبح امراء «السناجق» – والسنجق في اصطلاحهم هو المتصرفية – بمثابة الضباط الآسرين، ويقوم امراء الامراء بمهمة رؤساء الفرق.

ولكن السلطنة لم تلبث ان عدلت عن هـــذا الاسلوب، معتمدة على طريق (الضمان). وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني. فكانت تضمن اجزاء المملكة بالمزاد، وتجري على ذلك ايضا في استثمار مواردها الأخرى، ما سبب لها اضراراً فادحة. ذلك ان «الملتزمين» كانوا كثيراً ما يشاركون الوزراء بما (يضمنون)، ويلجأون ألى مصارف غلطة في استنبول للاستدانة بربا فاحش، حتى إذا بلغوا اقطاعاتهم تفننوا في اتخاذ الاساليب لجمع الاموال؛ مطمئنين إلى شركائهم الوزراء الذين يحمون ظهورهم. ثم انهم يزدادون ظلماً في جمع الاموال كلما قرب أجل انتهاء (ضمانهم) معتبرين ان كل ما يمكن تحصيله وقتئذ هو ربح أضافي لا يعوض إذا أهمل.

وشاء السلطان مصطفى الثالث (١٦٩٥ – ١٧٠٣م) اصلاح طريقة (الضمان)، فاصدر مرسوماً يقضي بجعله على مدى العمر ايضاً؛ وهو يحسب ان (الملتزم) على هذا الوجه سيعني ببلاد اصبحت مستقراً له عناية المالك. بيد ان السلطان اساء ايضاً من حيث اراد الاصلاح، إذ عمل بذلك على زيادة نفوذ «الملتزمين» وعلى استفحال استبدادهم، فضلاً عن كونه مهّد لهم سبل التمرد على الدولة، فالاستقلال عنها.

وفي الجملة فان البلاد العربية عانت خلال حكم آل عثمان الشدائد: فارهقها الحكم العسكري في صدر الدولة، كما نكل بها عهد «الملتزمين» فيما بعد، وخصوصاً ايالة صيدا: فان عهدي الجزار فيهـــا وعبدالله باشا الخزندار كانا عهدي عسف وارهاق. وكان وجاق الانكشارية قد امسى مصدر المظالم بدلاً من ان يكون حامي زمار العدل، فمنيت البلاد العربيـــة به، وبفرق عسكرية أخرى باشد الكوارث، وعانت ايالة دمشق خاصة الكثير من عسف هؤلاء، ولا سيما اثناء الفتن التي كانت لا تنقطع بين الدالاتية والسباهية والعنانيية وقبقول والانكشارية.

ولعل التقتير على الجنود ازاء اسراف الولاة في الانفاق على تأمين شهواتهم هو الذي كان مصدر هذه الفتن.

حقاً ان التشكيلات الادارية التي وضعتها السلطة كانت تقضي بقيـــام مجلس

من اعيان كل مقاطعة . . يساهم مع المتسلم في ادارة شؤونها ، الا ان الرعب من « الملتزم » كان وحده كافياً لقطع السنة هؤلاء الوجهاء ، وجعلهم يتنـافسون في سبيل ارضائه تنافساً يحولهم الى اداة تخريب لبلادهم بدلا من ان يكونوا اداة اصلاح .

وما اكثر الفرص التي اصبحت تسنح من بعد لهؤلاء الملتزمين للتمادي في طغيانهم ، بل لطموحهم الى الاستقلال : فقد قدر على تلك السلطنة التي استطاعت فيما مضى ان تلقي الحصار على فيّنا ثلاث مرات ، اجل قدر عليها ان تدخل في دور الجمود فالانحطاط منذ اوائل القرن السابع عشر . ويعتبر بدء هـــذا التدهور مذ اتيح لاساطيل الدول المتحدة ان تبيد الاسطول العثماني في واقعة ليبانت Lipant (١٥٧١م)

وبسبب الانكسارات المتوالية التي منيت بها من بعد في حرب « الاتحاد المقدس » الذي شنته عليها كل من النمسا وروسيا والبندقية ، تحولت السلطنه عن خطة الهجوم الى خطة الدفاع ؛ ولكنها ، مع ذلك ، لم تعد لتنجح تجاه روسيا التي اخـذت على عاتقها اجلاء المسلمين عن اوروبا . ومن جراء ذلك أصبحت السلطنة العثمانية متفككة الاجزاء ، ثم لم يبق لها في الامصار العربية ، فيما عدا بلاد الشام ، سوى سيادة محدودة .

على ان قسما كبيراً من بلاد الشام كان يخضع للحكم الاقطاعي ؛ فيؤدي حاكمه المرتب عن اقطاعه لعامل السلطان في الاياله ، ثم هو يستبد في التحصيل ، ويستأثر في الاحكام . وكان عمال السلطان كثيراً ما يتمردون على اوامره ، ويشهرون القتال ، بعضهم على البعض الاخر ، ويسخرون ، في اثناء ذلك ، اصحاب الاقطاعات لمطامعهم الذاتية . وفي الجملة فقد اصبحت السلطنة عهـــد السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ — ١٨٣٩ م) « أشبه شيء بامارت متفققة ، اكثر منها بمملكة موحـــدة » كما وصفها به لامارتين الفرنسي . ولكن محاولة جديدة بدأت منذ عهد السلطان المشار اليه كانت ترمي الى جمع شتات السلطنة ، وتوثيق الروابط بين اجزائها وبين العاصمة . خصوصاً بعد أن وفق السلطان محمود ، لاكثر مما وفق اليه غيره ، أي لابادة وجاق الانكشارية ، وتنظيم الجند على الاسلوب الحديث ؛ فكان ذلك بدء عهد الاصلاح .

ولكن الوقت كان قـــد فات وذلك بتفاقم الوعي القومي بين العناصر في الامبراطورية ابان ما اخذت الايدي الاجنبية تلعب من وراء هذا الوعي للتعجيل على الرجل المريض قصـــد توزيع تركته ، كل ذلك قضى ان لا يبقى متسع من الوقت لتركيا كي تنفذ مشاريع الاصلاح .

اما الامة العربية ، فانها لم تبق خلال ذلك ، مكتوفة الايدي ، بل ان التنافس

السياسي بين لندن وباريس على بلادها اخرجها الى ميدان النضال: فساهمت كغيرها في المساعي الاستقلالية. ونشط الوهابيون بدورهم لقتال الترك تحت اللواء الديني حباً بالاستقلال، وكانوا يعتبرون آل عثمان خلفاء لبيزنطـــة، ويعدونهم روماً مثلهم، ويستثقلون ظلمهم على العرب والمسلمين.

وقد نجح الوهابيون في حركتهم حتى تمكنوا من احتلال الحجاز ومكة، وبلغوا اطراف الشام. واذا بمحمد علي باشا الكبير، والي مصر، الذي كان قد اخذ على عاتقه كفاح الوهابيين ينقلب على السلطنة، ويتبنى مطامعهم. واذا به يطمح بانشاء دولة عربية تجمع بين مصر والشام وجزيرة العرب التي انقـــذها من الوهابيين. وكانت سياسة فرنسا مؤاتية له، فقاد سليمان باشا، وهو افرنسي، الحملة المصرية على بلاد الشام سنة ١٨٣٩، ثم نشطته الانتصارات التي احرزها هناك لأن يطارد الجيش العثماني آملا دخول دار السلطنة. غير ان فكرة بقاء الشرق العربي ضعيفاً لا يقوى على الصمود في وجه المستعمرين كانت لاتزال راجحة في الاندية الاوروبية، فتغلبت، من جراء ذلك، وجهة نظر انكلترة على سياسة فرنسا التي كانت تؤيد علي باشا، وخصوصاً في المؤتمر الدولي الذي عقد لحل هذه الازمة. فاوعزت الدول المتحدة الى ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا، الذي كان على رأس هذه الحملة، ان يتراجع الى وادي النيل.

وكانت الدول كثيراً ماتناشد تركيا اجراء الاصلاحات في مملكتها، وهي انما تستر مطامعها بالتظاهر برغبتها في اصلاح شروط الحياة للعناصر المسيحية في الشرق، فلما انقذت هذه الدول السلطنة من مخالب «النسر المصري» أضطر الباب العالي لان يباشر «الاصلاحات» حباً في استرضائها: فاصدر السلطان عبد المجيـد، بعد أشهر من ارتقائـــه العرش (١٢٣٩، م) خط كلخانة، وعهد الى لجنة صارت تدعى من بعد «مجلس التنظيمات» ترجمة القوانين الدولية. وقـد سنّ هذا المجلس قانوناً للتجنيد، وآخر لتنظيم المعارف، وآخر للقضاء. وفي سنة ١٨٥٢ م أصدر السلطان، إلمشار اليه، نظام تشكيل الولايات؛ ولكن هذه الاصلاحات ظلت، مع ذلك، تسير ببطء إلى أن عززها السلطان عبد العزيز، وجدّ في تنفيذها.

وكانت التنظيمات الجديدة قد افضت، في الواقع، الى توثيق الروابط بين البلاد العربية والسلطنة، حتى ان السلاطين اخذوا، من بعد، يحاولون ربط شمال افريقية وجزيرة العرب بهم برابطة احكم من ذي قبل وأشد.

ولكن المطامع الاوروبية بتركيا، وان كان يحـد من عنفوانها التوازن

الاوروبي ، الا انها كانت تستفيد احياناً من بعض فرص تؤمن لها اقتطاع اطراف هذه السلطنة تباعا ، سواء أقامت بتنفيذ الاصلاحات، أم لم تقم .

وانتهى الامر بان اصبحت البلاد العربية فريسة هذه المطامع : فاحتلت فرنسا الجزائر (١٨٣٠ م) وتونس (١٨٨١ م) ومراكش (١٩١٢) ؛ كما احتل الانكليز، خلال القرن التاسع عشر، بعض الثغور والامارات حول جزيرة العرب. ثم بسطوا حمايتهم على وادي النيل (١٨٨٢). وإلى هذا فقد فتحت اسبانيا الريف المراكشي، ثم اكتسحت ايطاليا ليبيا (١٩١١). هذا وكانت اوروبا ما تزال تحرض العناصر غير التركية في المملكة العثمانية على العصيان حتى اذا ثارت امسكت بيدها ، وساعدتها على تأمين استقلالها. وجرياً على هذه السياسة اثارت ايضاً الفتن الطائفية في جبل لبنان، واشهرها فتنة (١٨٦٠) التي افضت إلى قيام المتصرفية الممتازة فيه تحت حمايتها .

هذا وقد لمس السلطان عبد الحميد الثاني في موقف اوروبا ذي الوجهين، الذي تقفه حيال مملكته، روحاً صليبية تركت له المجال للتلويح إلى المسلمين عامة، والعرب خاصة، بالخطر المسيحي على دولة الخلافة. فاستطاع بذلك تحويل المشاعر في الاوساط العربية عن القومية ، إلى الجامعة الاسلامية . وهو إلى ذلك كان يهتم كل الاهتمام بقمع كل حركة قومية تظهر في جزيرة العرب ، ويعمل على بذر الخصام بين آل الرشيد : اصحاب حائل و آل سعود ، اصحاب الرياض، مظاهراً الأولين على الآخرين .وكان يسوق الحملة اثر الحملة على اليمن ، بينما يغدق العطايا على اشراف مكة ، موغراً قلوبهم على أئمة صنعاء . وإذا آنس من أحدهم تحمساً بالقومية استقدمه إلى دار السلطنة ، وارغمه على الاقامة الدائمة فيها محفوفاً بالاكرام ، هذا فضلاً عن مراقبة جلالته حركات فرنسا في بلاد الشام ، وحرصه على الاّ يتفق المسلمون والنصارى فيها ؛ لا سيما في ولاية بيروت .

ولكن الخطر العربي ، الذي كان السلطان يعمل على اتقائه طيلة حياته لم يلبث ان تسرب إلى الامبراطورية العثمانية بواسطة الترك أنفسهم . ذلك ان جمعية الاتحاد والترقي ما ان غلبت السلطان (١٩٠٨) واستأثرت دونه بالحكم الا وعدلت عن سياسته الاسلامية إلى النزعة القومية الطورانية . فاثارت ثائرة الاقوام الآخرين في المملكة ؛ وكان العرب في طليعة المطالبين بحقوقهم من على منبر المجلس النيابي وغيره ؛ ثم افضى الاحتكاك بينهم وبين الترك الى العمل جدياً على المطالبة بالاستقلال على اساس القومية .

وقد اتاحت الفرصة للاتحاديين في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ان ينتقموا من زعماء العرب : فشنقوا بعضهم ، ونفوا البعض الآخر ، وافتعلوا المجاعة في لبنان ، كما اعلنوا (١٩١٦م) الغاء امتيازاته الخاصة ، واقاموا فيه لجنة ادارية تصرف شؤونه . ولكن اعمال العنف هذه افضت الى اشتداد توتر العلاقات بين الترك والعرب اشتداداً حمل الشريف حسين ، شريف مكة ، على اعلان الحرب على آل عثمان بالاتفاق مع الحلفاء ، تلك الحرب التي انتهت بفصل مقدرات العرب نهائياً عن الترك .

تاريخ العرب الاقتصادي في العهد العثماني

من الصعب الكلام في مقال واحد على اقتصاديات البلاد العربية خلال العهد العثماني . ولكنا برغم ذلك مضطرون ، التزاماً للاختصار ، ان نأتي على ذكر الخطوط الكبرى ، في بحثنا هذا الموضوع :

. . . . .

التجارة في بلاد العرب : حوّل إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ م) التجارة العالمية عن البحر المتوسط ، فالحق بالامصار العربية ، التي كانت تعتمد على تجارة هذا البحر ، أضراراً جسيمة .

ويروى أحد علماء الانكليز « أن المحيط الهندي ظل بحيرة عربية من القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر ، وان احمد بن مجيد الذي كان اشهر بحار خواض في ذلك المحيط ، كان الدليل المفيد لفاسكودي كاما البرتغالي في بلوغه الهند عن طريق جنوبي افريقية » — ويضيف هذا العالم الى ذلك قوله — « إن البرتغاليين ، الذين يوجهون الثناء العاطر الى احمد بن مجيد ، يصرحون بان ده كاما وجد لديه خريطة بحرية على غاية الدقة ، وأدوات للملاحة ، لم تكن معروفة ، ومنها البوصلة التي اقتبسها العرب عن الصين سنة ١٢٠٠ م تقريباً : »

هذا ، وقد رافق قيام الامبراطورية العثمانية انكماش جديد في تجارة البحر المتوسط من جراء إستفحال شأن القرصنة فيه ، ولاستمرار الحروب بين اساطيلها وأساطيل أوروبا التي اتحدت عليها . ولذلك اتجهت التجارة في الشرق شطر التبادل بين البلاد الاسلامية ، بعضها مع البعض الآخر ، مستعينة على ذلك بالقوافل ؛ وظلت على وجه عام ، غير مزدهرة بسبب الفوضى التي كانت تغمر البلاد العثمانية .

على انه لما تقررت الغلبة لتركيا ، في صدر أيامها ، على أوروبا كانت جمهورية

البندقية أسبق الدول للمفاوضة معها لوضع اتفاقات اقتصادية ترمي لتسهيل شؤون التجارة . ثم جرت مجراها بقية الامارات الايطالية ، وغيرها .

وكان للامير فخر الدين المعني الثاني الايادي البيضاء في وضع الاسس التي افضت إلى ازدهار التبادل التجاري بين بلاد الشام وايطاليا ، وذلك غرة القرن السابع عشر . ولكن الاحوال السياسية لم تحقق آماله ، بل ان الاحداث التي توالت على بلاد الشام ، من بعد ، وخصوصاً خلال القرن الثامن عشر ، جعلت تجارتها في بوار مستمر ؛ كما ان فتح قناة السويس قد أثر تأثيراً سيئاً عليها : لانه حول عنها طرق التجارة التي كانت تخترقها براً إلى العراق ، فأواسط الشرق .

وظلت تجارة سوريا على هذه الحالة الى ان كان الازدهار العالمي في الناحية الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر فانتعشت بالخطوط الحديدية والاسلاك البرقية التي مدت في بعض انحائها ، فضلا عن المرافىء والمحاجر الصحية . ومنذ اواسط هذا القرن شرع ثغر بيروت يستقبل عهداً زاهراً اخرجه ، بعد قليل ، من حال الى حال . هذا الى ان الخط الحجازي جعل بلاد الشام بمثابة باب الديار المقدسة حقيقة ، فكانت لها فيه منافع كثيرة ، لا سيما في مواسم الحج .

وأما في مصر ، فقد انحط مستوى التجارة عهد المماليك البكوات (١٧٠٧ — ١٧٧٥ م) وظل وادي النيل أبان حملة نابليون يتعثر في سيره الاقتصادي من جراء اصطدام الحملة بثورات داخلية ، وبسبب ارهاق الفرنسيين الشعب بالضرائب .

ولم تتنفس مصر الصعداء الا حين قامت الأسرة المحمدية العلوية . وخاصة في عهدي محمد علي باشا واسماعيل باشا . ثم كان ذلك الاستقرار السياسي الذي تمتعت به مصر فيما بعد حافزاً لنشاط الحياة الاقتصادية سنة بعد سنة .

وأما في العراق فقد احتفظت بغداد والموصل بحركتها التجارية رغم فوضى الاحكام وبعد المواصلات بعداً جعل بلاد الرافدين في عزلة عن العالم .

كما ان البصرة ظلت على ازدهارها ، يساعدها على ذلك ما وقع بين الامم الاوروبية من التزاحم في المحيط الهندي في سبيل التفوق التجاري .

ولقد لفتت العراق انتباه العالم ، بصورة خاصة اثر ظهور الزيت فيها ، وعقب امتداد اصابع المانيا اليها ، لا سيما بعد ان منح السلطان عبد الحميد الثاني صديقه الامبراطور غليوم امتياز خط بغداد الحديدي .

وأما شمال افريقية ، فقد تأخرت تجارتها حتى كادت تنحصر في نطاق العالم العربي ، وذلك لانتشار القرصنة في البحر المتوسط . ولكن ما أن قضت اوروبا

على خصومها في هذا البحر ، وامنت فيه مسالك التجارة ، حتى تقدمت من دول مراكش وتونس وآل عثمان وعقدت معها جميعاً اتفاقات اقتصادية حولت خطوط تجارة افريقية نحو الممالك الاوروبية ؛ ودخلت الجزائر خلال ذلك في حوزة فرنسا ، فكانت بمثابة قاعدة للنفوذ الاوروبي ينثال منها الى سائر افريقية .

وبينما كان العالم العربي يستفيد اقتصادياً من الوثبة العالمية العامة في الشؤون الاقتصادية كانت جزيرة العرب ، ما عدا بعض الثغور ، والامارات الساحلية ، لا تزال تشكو العزلة .

ذلك ان جزيرة العرب كانت تعتبر منذ الآف السنين صلة الوصل ، بقوافلها ومراكبها الشراعية بين المشرق والمغرب ، كما كانت تعتبر مستودعاً لسلعها المختلفة . غير ان اكتشاف القوة البخارية قضى على القوافل وذوات الشراع وأدى بالتالي الى ركود التجارة فيها . هذا فضلاً عن ان ارتقاء الصناعات افضى الى استغناء التمدن الحديث عن اصناف الجزيرة العربية بما هو ارفع وافضل . فكان ذلك كله مدعاة لعزلة الجزيرة ، ولانتشار الفقر فيها .

والخلاصة ان تجارة الأمصار العربية اصيبت على وجه عام بالشلل عهد آل عثمان ، ثم كانت نهضة العالم الحديث ، بما فيه من اختراعات واكتشافات حافزاً لها الى التطور ، فنشطت وتقدمت بعض التقدم .

. . . . .

الزراعة في بلاد العرب : منيت الزراعة في الامصار العربية عهد آل عثمان بانحطاط أشد مما منيت به التجارة ؛ وذلك لان الزراعة احوج من غيرها لاستتباب الامن والاستقرار . وقد اشرنا الى ان آل عثمان عوّلوا ، في صدر دولتهم ، على قادة الجند في ادارة البلاد ؛ وكان من جراء ذلك ان رأى هؤلاء انفسهم أحق من غيرهم وأولى في وضع اليد على الاراضي الزراعية ، فتوزعوها بينهم . وكان منها ما يعرف « بزعامت » ، ومنها ما يعرف « بتيمار ». وما كان لاراض أن تعمر وقد عمل على استثمارها الاجناد .

ثم تحولت السلطنة من بعد الى طريقة « التلزيم » لتحصيل اموالها الاميرية . ولكن من كان يضمن أن يلزم هؤلاء «الملتزمون» جانب الرحمة والعدل ، في تحصيل الاموال ، وهم كانوا دائماً من محمي الزعماء ، أو كبار الموظفين ؟

لنستمع إلى الصدر الاعظم جودت باشا يجاوب في تاريخه على مثل هذا السؤال قال : « ولما أبى اصحاب الدين والانصاف التقدم للمزايدة على هذه الضمانات احتكرها حثالة الناس واوغادهم ، فافضى الامر الى خراب القرى والمزارع . »

بل كان من مغبة ذلك ان الاراضي الزراعية تحولت تدريجياً إلى اصحاب النفوذ ، إما طوعاً ، بان يهب الفلاح قسماً منها لأحدهم على امل أن يحميه من « الملتزم » وغيره ، أو كرها بطريقة الاغتصاب .

ولما تكتلت الاراضي الزراعية ، في ايدي المتنفذين ، ولم يحسن هؤلاء استثمارها ، أما لانصرافهم عنها ، وأما لاتساعها ، بارت ورحل عنها ساكنوها . وقد قيل انه كان في غوطة دمشق في أواخر عهد المماليك ثلاثمائة وخمسون قرية ، ولما غادر العثمانيون البلاد لم يكن فيها سوى ستين قرية فقط . وقيل ايضاً انه كان في حلب ، قبل الفتح العثماني ، ثلاثة آلاف ومئتا قرية ، فهبط عددها الى نحو اربعمائة قرية .

ولسنا ننكر ان السلطنة العثمانية حاولت منذ القرن التاسع عشر ، فيما حاولته من اسباب الاصلاح ، أن تقوم ببعض المشاريع الزراعية ، وان بعض ولاتها قاموا في هذا السبيل ، بخدمات تذكر وتشكر ، ولكن اعمالا فردية كهذه لم تكن ، كافية لاملاء الفراغ .

ولا يزال العراق يذكر بالثناء الجميل والي بغداد محمد رشيد باشا الملقب بكوزلكي ، ومدحت باشا ؛ كما ان بلاد الشام تثني ايضاً اطيب الثناء على مساعي مدحت باشا الاصلاحية فيها . ولكن العمل المثمر هو ذلك الذي يستكمله الخلف بعد السلف ، كما حصل مثلاً في وادي النيل : فقد واصل خلفاء الاسرة الخديوية ، قدر المستطاع ، الجهود التي بدأها جدهم الاعلى : وبذلك سجلوا تقدماً محسوساً في الناحية الزراعية ، ومثلهم بعض بايات تونس .

الصناعة في بلاد العرب : كانت الصناعات في البلاد العربية ، عند قيام الدولة العثمانية ، لا تزال على شيء كثير من الازدهار بفعل قوة الاستمرار . وظلت كذلك اجيالاً في بعض الأمصار العربية . وقد روى ر . ب . سارجنت في مقال له (مجلة الادب والفن ج – ١ – ١٩٤٤) انه اطلع في سجلات النفقات البيتية لملوك اسكتلندة سنة ١٣٣١ م على شراء قطع من الحرير من انطاكية ، وطرابلس الشام .

ثم شرعت الصناعات تنهار تدريجياً تبعاً لانحطاط المستوى الاجتماعي ، وتناقص الثروة العامة . وكان من الطبيعي ان يبدأ ظلها بالتقلص في ناحية الكماليات . ثم يشمل الضروريات .

واذا بالتمدن الحديث يكتسح الصناعات الوطنية بذوقه الخاص ، وبمعامله

الميكانيكية المنتجة ، فيغمرها بموجة أخرى من البوار ؛ خصوصاً وان الناس كانوا قد تحولوا الى الأرخص الذي يأتيهم من اوروبا ؛ وهو أشد انسجاماً مع الذوق العالمي الحديث .

وقد حاولت بعض الامصار العربية في المملكة العثمانية ان تعتمد على المعامل الميكانيكية في الصناعات ، فلم ينجح منها سوى المعامل التي كانت تحميها الحالة الطبيعية ، كمعامل حل الحرير . أما المعامل التي تقوم على الصناعات الاخرى المحتاجة لسياسة جمركية تحميها ،فلم يقدر لها النجاح من جراء ضغط المزاحمة الأوروبية بينما لم تكن الدولة العثمانية حرة في زيادة الضرائب الجمركية على ما يرد الى بلادها . ولهذا فان معامل الورق والقرميد والزجاج وغيرها ،التي قامت في ايامنا ببلاد الشام خلال العهد العثماني،باءت جميعها بالفشل ،وانتهى بها الامر الى الخراب.ويمكن القول بان النجاح الميكانيكي الصناعي قد اقتصر على ما كان متصلاً بالمآ كل كالمطاحن والمعاصر وامثالها ، من انواع الصناعات الزراعية .

تلك كانت حالة اقتصاديات البلاد العربية ، وهي صورة عن حياتها الاجتماعية عهد الامبراطورية العثمانية .

تاريخ العرب الثقافي في العهد العثماني

بينما كانت جراثيم الحياة المنبثقة عن حضارة العرب تتفاعل متكاثرة في الأوساط الاوروبية عند تأسيس السلطنة العثمانية ، إذا هي تتضاءل تدريجياً في العالم العربي . وما ان قضي على دولة المماليك في مصر ، ودولة بني الاحمر في غرناطة ، وهما اللتان كانتا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، معقل الحضارة العربية ، حتى اندكت معالم هذه الحضارة سراعاً ، واصبحت كأنها لم تكن .

وقد كان قيام السلطنة العثمانية في العصر الذي كانت الحضارة العربية فيه قد بدأت تلفظ انفاسها الطاهرة . ومع ذلك فان الزهو العربي ، لا سيما في الاندلس ، كان لا يزال على شيء كثير من النشاط بفعل قوة الاستمرار . ومن آيات هذا النشاط الروحي قيام عهد الموشحات في ذلك الزمن . وأشهر أصحابها في الاندلس ابن الخطيب ، وابو عبدالله بن زمرك ، واحمد اللخمي الغرناطي. وفي الشرق الادنى صفي الدين الحلبي ، وصلاح الدين الصفدي ، وابن نباتة ، وابن حجة الحموي .

على ان تلك الحقبة كانت خصبة أيضاً على وجه خاص ، بانتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية والقصصية ؛ هذا فضلاً عن انه كان ، قد بقي للعرب ، بعد

منتصف القرن الثالث عشر ، الملم غير قليل بالطب وبالرياضيات ، وبعض الشهرة في طب العيون . ومن ألمع اطباء هذه الحقبة ابن النفيس، مكتشف الدورة الدموية المتوفي بدمشق (١٢٨٩ م). كما انهم لم يحرموا في ذلك الزمن من بعض الموهوبين في النواحي الاخرى، كابن الخطيب المشار اليه المتوفي (١٣٧٤م.) وهو فضلا عن شهرته في في الموشحات فقد كانت له شهرة بالسياسة ؛ وكابن خلدون المتوفي سنة ١٤٠٦م.

على ان السلاطين العثمانيين الفاتحين قلدوا سائر عواهل الاعاجم في ناحية تحصيل العلوم والآداب ، وتقريب رجال الثقافة ، والعطف عليهم . بيد ان الدنيا لم تلبث ان صرفتهم عن الناحية الثقافية ، وخاصة بعد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) وألهتهم بامورها الجسام . ولولا قيام الازهر في مصر ، والزيتونة في تونس ، والاموي في دمشق ، ومدارس النجف وغيرها من المعاهد العلمية والدينية ،وخصوصاً في دار السلطنة ، لولا ذلك لانقرضت ايضاً البقية الباقية من الثقافة العربية ، وأعني بها العلوم اللسانية والدينية .

وظل العرب ، خلال هذه الفترة ، في ظلام ، اسوة بسائر العثمانيين ، حتى أتيح احتكاك الشرق بالغرب احتكاكاً فعالا ،لا سيما خلال القرن التاسع عشر،فاهتزت اليقظة في بلادهم وربت ، وكان اسبقها الى ذلك ادناها من الغرب ، والصقها به ، وعلى رأسها لبنان . ثم استحالت هذه اليقظة إلى نهضة وثابة للاسباب الآتية :

١ ـ **المؤثرات الدينية** : بواسطة تنافس البعثات والمعاهد العلمية .

٢ ـ **المؤثرات السياسية** : فقد وضعت البعثات العلمية،التي رافقت نابليون الاول الى مصر، مشاريع كثيرة جاءت كاركان للنهضة والاصلاح . على ان الحملة الفرنسية وان لم تستفد منها الا انها كانت لمحمد علي باشا الكبير بمثابة الخطوط الكبرى التي اعتمد عليها في برنامجه الاصلاحي . ذلك عدا ما صار لاوروبا ، منذ عهد السلطان عبدالمجيد الاول ، من التدخل الفعلي في حمل الباب العالي على القيام بتنفيذ الاصلاحات ولا سيا في النظم والثقافة .

٣ ـ **المؤثرات الاقتصادية** : وأخصها انتشار الاوروبيين في الامصار العربية لترويج مصنوعات بلادهم ، والارتزاق ؛ والى جانب ذلك تحفز العربي لتعلم اللغات الاجنبية للاستعانه بها على الاتجار مباشرة مع الغرب . هذا فضلا عن اقبال ابناء العرب على الهجرة طلباً للثروة فيما وراء البحار .

٤ ــ **المؤثرات النفسية:** واعني بها استشراق التمدن الحديث في نفوس العرب حباً بالعلم والتطور نحو الاصلح ؛ وقصد الاستفادة من العلم استفادة شخصية واعتباره اداة صالحة للتفوق على الاقران .

فان هذه العوامل متحدة ومنفردة قد قلبت الشرق ، في قرن واحد ، رأساً على عقب وجعلته ذا لون مزيج من الماضي والحاضر ؛ كما جعلت طابعه الشرقي مزيجاً من تراث الشرق ومكتسب الغرب .

ولقد زار الرحالة الانكليزي فولني Volney القطر المصري ، في اواخر القرن الثامن عشر ، فاعرب عن استغرابه لتفشي الجهالة فيه . ولكن لو اتيح له ان يعود اليه بعد نصف جيل لارتاب فيما كتب .

أجل ان محمد علي باشا الكبير ، الذي سمت نفسه الى الاستقلال ، قد اخذ يعد العدة للنهضة متمشياً على غرار نابليون في مصر ، ومستغلا مشاريعه التي قام بها ، وخصوصاً ما كان متصلاً منها بالجندية . ولقد ساقه اهتمامه هذا الى العناية بالعلم والبعثات العلمية ، والى انشاء المعامل الحديثة التي تجهز الجيش ، وتعزيز الزراعة التي تغذيه بالمال .

وكانت السلطنة العثمانية ، بعد ان تم لها ما ارادت من ابادة الانكشارية ، قد سلكت ايضاً هذا المسلك الاصلاحي : فالى اهتمام السلطان محمود الثاني بتنظيم الجند ، اقام المدارس العالية في استامبول ، وعلى رأسها الطبية والحربية ، ثم الملكيـــة والحقوق ، والزراعة والهندسة .

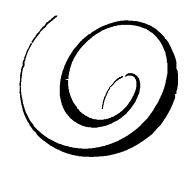
واخذت بعض الاسر العربية توفد ابناءها الى هذه المدارس استعـــداداً لنيل الوظائف الادارية والعسكرية . فاستفاد هؤلاء الافراد المتخرجون في هذه المدارس استفادة طيبة في الحقل الثقافي ، غير انهم ظلوا ضعفاء في لغتهم ، لان تلك المعاهد انما كانت تنشيء موظفين اتراكاً ، فضلاً عن ان لغة التعليم فيها كانت اللغة التركية .

ثم كان من مقتضيات الاصلاح الحقيقي ، عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١ م) ، انشاء المدارس المعروفة بالرشدية والاعدادية في امهات المدن ؛ وهي وان كانت مدارس ابتدائية وثانوية ، إلا ان القصد منها كان ، في الاصل ، اخراج موظفين متعلمين . ومع ذلك فقد عملت على نشر الثقافة ، وعلى انهاض مستوى العلوم في البلاد العربية .

وعاصر اسماعيل باشا خديو مصر السلطان عبد العزيز فتنافسا في ميدان البذل لتنشيط العمران ، وتأييد النهضة العلمية ، فكانا من أهم العناصر لتقريب الابعاد بين

وجهتي الشرق والغرب .

ثم اصبح الزمن مؤاتياً بعدهم لانتشار الثقافة الاوروبية ، عن دافع نفسي شمل افراد الرأي العام في الشرق العربي؛ فاذا بهذا الشرق يثب وثوباً الى العلم مستفيداً من تلك المعاهد الاميركية والانكليزية والفرنسية وغيرها التي انتشرت في رحابه ، وهي وان كانت وليدة دعايات اخرى لا تمت للعلم بصلة ، الا انها كانت مع ذلك ، من اهم العوامل التي ساعدت على نهضة الشرق وتمدنه الحديث .



الفصل الحادي عشر

عصر الاستعمار والحماية

في البلاد العربية

مثلما يخلق تقدم الصناعات اسماء لمسميات حديثة ، كذلك تضع السياسة القابا للاستعمار تتناسق مع كل ظرف من الظروف : وقبل الاهتداء إلى صيغة الانتدابات اطلق المستعمرون كلمة « الحماية » على الامصار التي دخلت في حوزتهم ، وكانت تتمتع ، من قبل ، بكيان سياسي مستقل ، أو شبه مستقل . والواقع ان هذه النعوت كلها ليس لها سوى مدلول واحد هو « الاستعمار » .

وهذا الجزء يعني باخبار الامصار العربية ، مستعمرة كانت أو محمية . ويلم باحوالها خلال الحكم الاجنبي . وقد روعي في ترتيبه تاريخ دخولها في هذا الحكم ، ثم هو يتناول مصر في نهايته . ومصر وان كانت قد منيت بالاستعمار قبل مراكش وطرابلس ، غير ان الحماية عليها لم تعلن إلا سنة ١٩١٤ .

الجزائر

الفتح الافرنسي : علل كيات Guillet اسباب فتح الجزائر بما يلي : « بغية الاقتصاص من قرصان المسلمين ، ومجازاة داي الجزائر على جرأته ووقاحته ؛ وقصد القيام بناحية من نواحي الحروب الصليبية ، واكساء الملكية المجددة في فرنسا ثوباً تتلألأ عليه ابهة النصر . من اجل كل ذلك ساقت حكومة شارل العاشر جيشاً الى الشواطيء الجزائرية احتل مدينة الجزائر (١٢٤٦ هـ = ١٨٣٠ م) . »

غير ان شارل العاشر الذي اطلق عليه كرانجر E. Granger لقب ملك الكهنة

والمهاجرين، لم يهنأ باحتلال الجزائر، بل فوجىء بثورة نشبت في بلاده الجأته للفرار. ثم اتيح لحكومة لويس فيليب، من بعده ، الاستيلاء على الجزائر، وعهدت بالقيادة والحكومة الى الجنرال بورمون . وقد تظاهر الجيش الفاتح ، في اول الامر ، بانه على وفاق مع سلطان آل عثمان ، وبانه جاء لتأديب الداي حسين جزاء اهانته قنصل فرنسا؛غير ان هذه المناورةلم تلبث أن فشلت منذ التحم الفرنسيون بقتالمع الجنود العثمانيين حامية القطر . وقد اتحد الاهلون ، عرباً وبربر ، عليهم ، وجدّوا في مقاومتهم . ثم ان هذه المقاومة اتخذت شكلاً أعم وأعظم من جراء القسوة البالغة التي لجأ اليها الليوتنان جنرال سافاري منذ صار اليه الحكم في الجزائر سنة ١٨٣١ . وهنا برز الامير عبد القادر الى الميدان ،وحمل لواء الجهاد باسم الجزائر المتحدة التيظلت تناضل ، في الدفاع عنحوزتها ،حتى سنة١٨٤٧م. على ان استسلام هذا الامير الخطير في هذا العام ،وان كان يعتبر بداية الاستقرار بالنسبة للافرنسيين في الجزائر، الا ان الثورات الموضعية لم تهدأ ، في الواقع ، وظل بعضها يأخذ برقاب بعض الى سنة ١٨٦٧ م . ولا سيا في جبال الاطلس الكبير ،والواحات .

ولما حول لويس بونابرت الجهورية الى ملكية ، ولقب بنابليون الثالث ، وجه الىحاكم الجزائر (شباط ١٨٥٦ م) رسالة يعلن فيها ان هذه البلاد ليستمستعمرة ؛ بل هي مملكة عربية ، وأوصى خيراً باهليها . ثم زار هذا العاهل الجزائر (١٨٦٥م) وصرح امام الشعب بمثل مضمون هذه الرسالة ، فاستطاع ان يهدىء بذلك الحالة في تلك البلاد ويخمد الفتن .

غير ان سياسة التجارب التي لجأ اليها الفرنسيون ، بالاضافة الى سياسة الاستعمار ومظالمها ، اثارت نقمة الشعب : فما بلغهم نبأ اندحار فرنسا في موقعة سيدان ، وخبر خلع نابليون الثالث ، الذي كان قد اكتسب بعض ثقتهم ، حتى دب دبيب الثورة في افئدتهم . وقد خرج على السلطة بالفعل اهل ولايتي قسنطينة ووهران ، وساهمت معهم فيها بعض القبائل المراكشية . ولكن الجنرال دوريو الذي خلف مكماهون ، استطاع اخيراً ان يحول دون امتداد الثورة ؛ ثم انتهى الامر بان اصبحت الجزائر منذ سنة١٨٧٥ م في حالة خضوع ؛ بفضل سياسة النار والحديد التي لجأ اليها المستعمرون .

الادارة الفرنسية : افتتحت فرنسا حكمها المباشر في الجزائر باقامة حكومة عسكرية مفوضة . وفي سنة ١٨٤٥ م نصبت مديراً عاماً مدنياً ينوب عن الجنرال الحاكم اثناء غيابه . وجعلت على رئاسة الوطنيين زعيماً ، بلقب آغا ، يترأس ادارة شعبية تكون بمثابة الوسيط بين السلطة والرعية . ثم تقرر خلال حكم الجمهورية الثانية (١٨٤٨) اعتبار الجزائر جزءاً من فرنسا ؛ فالغيت ادارتا الشؤون المدنية والعربية ، واصبح كود نابليون اساساً للقضاء في الجزائر .

وقد قابل الجزائريون هذا التطور بالضجيج ، لانه فضلاً عن قضائه على مظهر الاستقلال الاداري ،فانه يقضي بقيام شريعة غير شريعتهم . كما ان عمال السلطة لم يحسنوا تطبيق تلك المقررات ، فخيف من تفاقم الفتنة وشمولها ، مما حدا بنابليون الثالث ،المشار اليه، إلى ان يكتب ويصرح بما كتب وصرح،والى القيام باصلاحات جزئية ، عززها بايفاد لجنة عليا (١٨٦٩ م) عهد اليها درس اصلح الطرق لادارة الجزائر ، وربطها بباريس .غير ان الحرب الالمانية التي داهمت فرنسا وقتئذ جعلت مشروع اللجنة هذه عديم الجدوى .

وتوالت، بعد ذلك، سياسة التجارب،إلى ان صدرت شريعة ١٨٩٦ ،وهي تقضي بان يحكم الجزائر حاكم عام له الرئاسة على القوتين المدنية والعسكرية، يقوم إلى جانبه مجلس اداري (Conseille Générale) يتولى انتخابه افرنسيو الجزائر ، سواء منهم المولودون افرنسيين ، او الحائزون على الجنسية الافرنسية . وأما الوطنيون ، الذين ابوا ان يبدلوا جنسيتهم ، فلهم ادارة خاصة على رأسها آغا ، وهو مع القادة والشيوخ مكلفون بادارة الشؤون الوطنية الاسلامية ؛ كما هم مكلفون بالخلافات المحلية ، وبالمحافظه على الامن العام .

على ان التجارب أكدت لفرنسا اخيراً ان سياسة ضم الجزائر اليها هي سياسة شاقة وصعبة ، فتحولت عنها الى الطريقة اللامركزية . وقد نصت شريعة ١٩٠٠ م على انفصال الجزائر عن باريس بميزانيتها وادارتها المدنية . ثم صدرت شريعة أخرى سنة ١٩٠٢ ، قوامها طريقة«فرق تسد» ، فصلت بمقتضاها ادارة منطقة الصحراء عن الجزائر.هذا وقد عمدت فرنسا الى التجنيد الاجباري منذ سنة ١٩١٢م ،ولكنها مع ذلك لم تترك المجال لابناء الجزائر لبلوغ المراتب العسكرية العليا . وشاءت حكومة باريس، فيما بعد، ان تجعل الجزائر قطعة من فرنسا،فاصدرت بالاضافة لقانون ١٨٦٥ قانوناً آخر (١٩١٩) أدخلت به أهل الجزائر في الجنسية الفرنسية . فامسى ابناء

الجزائر ، بمقتضى هذا القانون، مجندين في الجيش الافرنسي ، يسوقونهم كالقطعان الى الحروب ، ولكن بئس ما كافأوا به الجزائريين الشجعان عقب الحربين العالميين : الاولى والثانية اللتين أبلوا فيهما البلاء الحسن لمصلحة فرنسا .

. . . . .

الاستعمار : حينما وطأت قدما المارشال بوجو Bugeaud (١٧٨٤ – ١٨٤٩) ارض الجزائر قادماً لمزاولة الحكم فيها فاجأ اهلها بتصريح جاء فيه : « يعتبر الفتح عقيماً اذا لم يرافقه الاستعمار . لذلك فسأكون مستعمراً مضطرماً ، أنا الذي اعلق على الانتصار في القتال فخراً ، هو في نظري دون اي فخر يحصل عن ايجاد منفعة مستمرة لفرنسا . »

وكان المارشال يقصد بالشيء الجدي لفرنسا استملاك الاراضي والمرافق ، وفرنسة الاهلين. ولم يكن، في الواقع، تحقيق هذا الهدف من الامور السهلة اذ كانت اراضي الجزائر مملوكة ، وكلمة الامم متفقة على تقديس الملكية في شرائعها الدينية ، وقوانينها الدنيوية على السواء . بالاضافة إلى ان ثغر الجزائر لم يفتح ابوابه للفرنسيين الا بعد ان عاهد هؤلاء أهله على احترام التملك والديانة . ولكن اعتبارات معنوية كهذه ما كانت لتحول دون ارادة القوة : وبينما كان الافرنسيون يبشرون بمبادىء الثورة ، التي شعارها الحرية والاخاء والمساواة ، كانت حكومة الجزائر تصادر املاك الداي وحكومته ، وتبسط يدها على الاوقاف الاسلامية ، وتستأثر بمواردها الموقوفة على المساجد واعمال الخير ، مسترسلة مع عواطفها اذ اتخذت من حق الفتح حقاً للتملك والتصرف ، وتوسعت في الاجتهاد الى حد انها اعتبرت ارض بعض القبائل حكومية ، ووضعت يدها عليها ، بحجة ان تلك القبائل لم تتملكها من الترك الا بدل خدمات عسكرية. وهي تستند بذلك الى مراسيم قراقوشية أباحت لنفسها فيها مثل هذه التصرفات الشاذة . واستمرت حكومة الجزائر تمعن في نزع ملكية الاراضي عنوة لتوزعها على المهاجرين الافرنسيين ، وهذا ما حمل نابليون الثالث لاصداره قانوناً نص على قدسية التمليك ،وذلك حينما اراد كسب الاهلين .

ولكن دخول الالزاس واللورين في حكم المانيا اثر انتصارها على فرنسا في حرب ١٨٧٠ م أوحى للجمهورية الثالثة فكرة اسكان النازحين عنهما في الجزائر . فبادرت الى وقف قانون نابليون المشار اليه ، واستبداله بقانون جديد (١٨٧٣ م) اساغت لنفسها فيه تملك اراضي الشعب لتحويلها الى المهاجرين الجدد . وقد بلغت

مساحة هذه الاراضي المصادرة منذ ١٨٧٨ م ٤٧٥،٠٠٠ هكتاراً .

على ان فرنسا شعرت ، اثر اكتفائها من مصادرة الأملاك ، بالحاجة الى تعديل هذا القانون الجائر ، وهي وان عدلته فعلاً ، إلا ان عمالها ظلوا ، على حالهم ، أعواناً لكل فرنسي ينوي الاقامة في الجزائر ، وللشركات الافرنسية ، حتى اصبحت تلك البلاد ، وخصوصاً ، حيث الخصب والمعادن ، ملكاً لهم دون الاهالي.

واراد المستعمرون ايضاً استملاك معنويات الشعب كما استملكوا مادياته ، وكان رائدهم في ذلك ادخال الجزائريين في الجنسية الفرنسية ، والقضاء على كل نزعة وطنية ، واقامة لغة فيكتور هوكو على انقاض لغة المتنبي . وقد عبر عن هـــذه الاماني كلها كاتبان معروفان : هما اوغسطين برنارد Augustin Bernard واوناسيم ركلو Onésime Reclus ؛ اذ قال الاول : « سنتوصل الى جعل افريقيا الشمالية ارضاً فرنسية الى الابد » . وقال الثـــاني : « نريد ان ننشىء من افريقيّينا ، أياً كان عنصرهم ، شعباً لغتنا لغته العامة . »

الاستثمار : بينما كانت فرنسا تجهد لتأمين الاستقرار لها ولشعبها في الجزائر ، كان عمالها فيها يسعون للاستثمار . فانشأوا عدة آبار ارتوازية في الصحراء منـذ سنة ١٨٥٦ م ؛ ومنحوا سنة ١٨٦٠ م ترخيصاً لشركة افرنسية لمد خطوط حـديدية في مناطق كثيرة . وكانت باكورة اعمال هذه الشركة ان مدت خطاً يصل قسنطينة بالبحر. ثم بلغ امتداد الخطوط الحديدية في الجزائر سنة ١٩١٤ م ٣٣٣٧ كيلومتراً؛ كما بلغ امتداد الطرق المعبدة في ذلك العام ٤١٦٣ كيلومتراً . وفي جملتهـــا خط من قابس وتونس شرقاً الى القضاء الابيض غرباً Casa-Blanca . هذا الى انهـــا ربطت الجزائر بفرنسا (١٨٧٠) بالاسلاك البرقية ، فضلاً عن المرافىء التي اهتمت بانشائها ، واهمها مرافيء الجزائر ووهران وبونه وفيليبفيل وبوجي .

على ان كل ذلك ، وان كانت الغاية منه تأمين الانتقالات العسكرية ومؤنها ، وتوفير اسباب الراحة للمستعمرين من ابنائها ، سواء اكانوا من المهاجرين للجزائر ، او من المتخلفين في الوطن الام ، الا انه قد أفضى بالتالي الى تحسين الحالتين الأقتصادية والعمرانية . وقد عني المستعمرون ايضاً بالري ، ولا سيما في منطقة التل حيث بلغت الاراضي الزراعية نحواً من مايتي الف هكتار ؛ كما عنوا بالمعادن ، واهمهـــا الحديد والرصاص والزنك والمواد الكيماوية . فعملوا بذلك على توسيع نطاق تجارتهم ، ولا

سيما بين الجزائر وفرنسا . وهذا بالاضافة الى الاصلاحات الصحية والثقافية ، افضى الى مضاعفة السكان . وبمقتضى الاحصاءات الافرنسية كان عدد الجزائريين الخاضعين للحكومة ابان الاحتلال الفرنسي ٢،٦٦٠،٦٦٧ ، فبلغ بعد مضي مئـة عام نحواً من ٥،٥٦٤،٠٠٠ نسمة .

والواقع ان كل ازدهار حصل فعلاً كانت فوائده تعود على الاكثر للمستعمرين، سواء كان ذلك في الناحية العمرانية العامة ، او في زيادة عدد السكان . ولا ادل على ذلك من ان نحواً من ٩٠ ٪ من سكان الجزائر يعملون هناك في خدمـة مصالح العصبة الرأسمالية الاستعمارية .

شكوى الجزائريين : ان الجزائريين الذين وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي وقوف الابطال ، وناضلوا من أجل استقلالهم مدة هي وان كانت تقدر بست عشرة سنة تحت قيادة الامير عبد القادر ، ألا إنها تبلغ في الواقع ٣٧ عاماً من بدايتها حتى استقرار الحكم للفرنسيين ، ان هؤلاء الجزائريين الكرام انما يشكون قبل كل شيء من تسلط قوم عليهم دون حق ، اللهم الا حق القوة.

وهم يترقبون من عالم يعلن ، في الوقت الحاضر ، تجنده للدفاع عن هــذه المبادىء ، وعن حقوق الشعوب ، ان يمدهم بالمعونة لاسترداد حريتهم المغصوبــة، واستقلالهم السليب . وإذ يستعرضون مظالم الاستعمار ، ويشيرون الى الامور التي ارتكبها الفرنسيون ولا يجيزهــا قانون ، ولا شرع ، يذكرون بمرارة اغتصاب الفرنسيين املاك الشعب واوقافه لتقديمها منحاً الى اخصائهم .

على أن بعض الفرنسيين من اصحاب الوجدان ما وسعهم الا أن يشاركوا الجزائريين في وجهة نظرهم هذه ؛ ومن هؤلاء كييات Guillet الذي يقول صراحــة عن قومه ما يلي : « ارتكبوا اعمالاً تدل على عدم الدربة ، خصوصاً في استيلائهم على الاوقاف دون بدل ، ونزعهم للملكية بخشونة ، دون ما تعويض بحجة فتح الطرق » وقد استشهد كييات هذا بالسياسي بوردو Burdeau حيث « حمل على المراسيم التي وضعت تبريراً لهذه الاعمال ونعتها ، في تقرير مشهور رفعه للحكومة ، بانها تشكل شريعــة سلب وغصب .

ويشكو الجزائريون بصورة خاصة ،من تعرض المستعمرين لدينهم ولغتهم ،وذلك بقيامهم باساليب تفضي ، بطريق مباشر ، او غــير مباشر ، الى اضعافها .

كتب احد الكتاب سنة ١٩٣٣ في مجلة الامة العربية Nation Arabe، التي كانت تصدر في جنيف « ان فرنسا بعد ان منعت التدريس في المساجد ، قد اصدرت امرها باقفال الكتاتيب الاسلامية » . كما ان جريدة « تونس الفتاة » نشرت في احد اعدادها الممتازة عن الجزائر ما يلي : « ان من ينشر اللغة العربية يعتبر عدواً لفرنسا » .

هذا الى ان المستعمرين كانوا ، في الوقت الذي يضيقون فيه على التعليم الوطني، يجرون معظم مخصصات المعارف على مدارس المبشرين والفرنسيين ، وفي جملتهم اليهود : ظهراء الاستعمار . ومن جراء هذه السياسة تأخرت المعارف ، وذبلت عقب الاحتلال بعد ان كانت زاهية زاهرة سنة ١٨٣٠ . والجزائريون يستشهدون على ذلك بان ٢٢٢ مدرسة كانت موجودة في مدينة الجزائر وحدها قبل الفرنسيين اغلقت بفضل رسالة الحضارة والتمدين !

والواقع ان المستعمرين في الجزائر قد ادركوا امنيتهم في هـذا السبيل اذ انشأوا ناشئة استسهلت لغتهم ، وفضلتها على لغة الوطن ، واستخفت بالدين ، كما انهم بلغوا قصدهم باستبقاء الجزائريين ، على وجه عام ، في الجهالة والفقر .

ولعل أشد ما حز في نفس الجزائري ، المطبوع على الانفة ، ان يرى شذاذ الآفاق ، وقد اصبحوا بعد حيازة « المواطن الافرنسي » يتصرفون في بلاد الجزائر تصرف السادة ، حتى لكأنهم فوق القانون .

والى هـذا يعلن الجزائريون استغرابهم لجمود سياسة فرنسا الاستعمارية ، رغم تبدل الازمان ، وتطور السياسة العالمية : فان الجمهورية الرابعة ، فضلا عن اعلانها ان الجزائر قطعة من فرنسا، لم تمنح اهلها المساواة في الانتخابات ؛ ودليلهم على ذلك انه لم يحدد للملايين من الجزائريين سوى خمسة عشر ممثلا، بينما ترك للثمانمائة الف افرنسي ومتفرنس ، المقيمين فى الجزائر ، النسبة العددية التي يستحقونها ، كما لو كانوا في فرنسا ، فكان لهم خمسة عشر ممثلا .

والى ذلك فرغم ان ابنـاء الجزائر الابطال هم الذين انقذوا فرنسا في الحرب العالمية الاولى ، وكذا في الثانية ، لا يسمح للمتجندين منهم ادراك حقوقهم في المراتب العالية ، اذ لم يكن يتجاوز احدهم ، هذا اذا خدمه الحظ ، اعلى من رتبة الكابتن .

الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية : منذ توترت العلاقات السياسية بين الدول عام ١٩٣٨، وامست تنذر بحرب شعواء ، شرعت فرنسا تستعرض في ذاكرتها ما قدمته لها الجزائر ، ابان الحرب العالمية الاولى ، من خدمات وضحايا ، فخفت الى سلوك سياسة التملق والتحبب ازاء هذا القطر العربي الشجاع . وعملا بهذه السياسة باشرت منذ غرة عام ١٩٣٨ القيام ببعض المشاريع الاقتصادية والاجتماعية ، في الجزائر : فعملت على تنشيط الصادرات ، وخصوصاً الى فرنسا؛ وعلى تحسين المواصلات ، ومنح المزارعين مساعدات مالية ؛ ولا سيما زارعي القطن ؛ فضلا عن مساعيها في صعيد الاسعاف الطبي ،ورصدها ثلاثة ملايين فرنك لانشاء المستشفيات،وتخصيصها اربعة ملايين فرنك لانشاء المدارس .

والى ذلك فقد نشطت الجمعية الاسلامية في باريس للقيام بمشاريع ترمي الى تقوية الصداقة بين فرنسا وشمال افريقيا . ولما شكلت حكومة باريس لجنة عليا لشؤون البحر المتوسط دعت الجزائر لارسال ممثلين لها في هذه اللجنة .

وقد نشبت الحرب فعلا وسرعان ما اصبحت فرنسا منطقة احتلال لالمانيا ، فحاولت ، في محنتها هذه الاحتفاظ بسلطانها على الجزائر،وسائر الشمال الافريقي . وما كان امامها الا ان تسلك سبيل المداهنة والمواعيد ؛ وكان اول ما قام به الجنرال ويغان ، الذي نصبته حكومة فيشي مندوباً سامياً على شمال افريقية ، ان وجه نداء ليل ٣ شباط ١٩٤١ الى اهالي تلك الامصار منوهاً لهم فيه بالمشاريع الكثيرة الاقتصادية التي اعتزمت حكومة التجديد القيام بها .

هذا ، وقد عين المارشال بتان اربعة اعضاء من مسلمي الجزائر في المجلس الوطني ، وذلك في الشهر التالي من نداء الجنرال ويغان ؛ والفت لجنة باسم لجنة التنظيم الاسلامية كان يرئسها امين سر الحكومة الجزائرية ، لاستماع مقترحات الاحزاب الوطنية .

هذا وكان ميدان الحرب بين الحلفاء وبين المحور مقتصراً حتى شهر تشرين الثاني ١٩٤٢ على ليبيا ، مما جعل عاليها سافلها ؛ ولكن نطاق هذا الميدان اتسع في شمال افريقيا ، من بعد ، حتى شمل المناطق الفرنسية ، فكانت مدار حركات الطائرات . ثم في ٨ تشرين الثاني بدأ الاحتلال الانكليزي الاميركي لهذه المناطق . وانضم اليها الجنرال جيرو الافرنسي ؛ وكانت قد اتت به غواصة انكليزية ، فلم يسع الاميرال

دارلان، بمثل فيشي هناك ، الا اصدارالامر بوقف كل مقاومة ضد الحلفاء . وهكذا اصبحت افريقيا الشمالية تدار من قبل الهيئات العليا العسكرية والمدنيـــة بادارة الجنرال جيرو في الجزائر . على ان سلطته كانت خاضعـة لبعض صلاحيات ظلت القيادة العليا للحلفاء تحتفظ بها ، وفاقاً لتسويات عقدتها مع السلطات الفرنسية المحتلة على اثر نزول الجيوش الى البر .

وبعد مفاوضات بين الجنرال ديغول والجنرال جيرو هبط الاول الجزائر في شهر حزيران١٩٤٣ ،وما لبث ان اعلن اتفاقه مع الجنرال جيرو على توحيدالجبهات الفرنسية ، والفا لجنة وطنية تحت رئاستهما . وعين الجنرال ديغول الجنرال كاترو حاكماً للجزائر ، ومنسقاً للشؤون الاسلامية .

وقد عني الجنرال كاترو ، منذ عهداليه هذاالمنصب ، بالتمشي على سياسة اسلامية في ولايته ، خصوصاً وان فرنسا ، رغم تصريحات روزفلت الموالية لها بعـد احتلال جيوش الحلفاء لشمال افريقيا ، قد اصبحت قلقة على مصير هذه البـــلاد . وكانت تتألم من تصريحات هؤلاء المحتلين ، وتصرفاتهم التي تثير الشعور القومي في نفوس الاهلين ، وتقوي في نفوسهم نزعة التحرر .

وقد عمدت اذاعة فرنسا وقتئذ الى تنظيم اذاعة خاصة اطلقت عليها اسم « فرنسا المسلمة » وكان المقصود منها التأليف بين شمالي افريقيـــا وبين فرنسا التي كانت هذه الاذاعة تدعوها الوطن الام .

ولما حصلت حوادث تشرين (١٩٤٣) في لبنان، التي انهزمت فيها سياسة فرنسا، ونال فيها لبنان استقلاله ، خافت فرنسا ان يمتد تأثير هذه الحوادث الى افريقيـا ، فبادرت الى الوعود تكيلها للاهلين، والى البلاغات المطمئنة تدليها من آن لآخر . وكان في طليعة هذه البلاغات البلاغ التالي :

« في ١٤ كانون الاول سنة ١٩٤٣ اجتمعت لجنة التحرير الفرنسية برئاسة الجـــنرال ديغول واتخذت المقررات الآتية :

ان سياسة فرنسا تجاه الفرنسيين المسلمين في الجزائر يجب ان ترمي بصورة مستمرة الى رفع مستواهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمستوى الفرنسيين غير المسلمين ، وبناء على هذا رأت اللجنة من الضروري القيام بما يلي :

١ ــ مباحثة الشخصيات الاسلامية في شأن اكتساب الحقوق التي يتمتع بها المواطنون الفرنسيون .

٢ ــ زيادة عدد الممثلين المسلمين في المجالس الجزائرية ، وتوسيع حقوقهم في التصويت .

٣ ــ منح المسلمين عدداً اوفر من المناصب الادارية .

٤ ـ وضع وتحقيق برنامج كامل للرقي الاجتماعي ، والتقدم الاقتصادي ، بحيث يكون في صالح عامة الشعب الفرنسي . وتقدير وتوفير الموارد المالية الضرورية لتنفيذ هذا البرنامج .

٥ ـ يعهد لمفوض الدولة المكلف بالشؤون الاسلامية، حاكم الجزائر العام، بتقديم جميع المقترحات اللازمة لتنفيذ المقررات المذكورة معتمداً على الدراسات والتقارير التي تقدمها لجنة تؤلف لهذا الغرض ، وتكون تحت رئاسة مفوض الشؤون الاسلامية .

هذا وتمشياً على سياسة التخدير عمدت حكومة الجزائر ، بالاضافة الى ذلك، إلى مراعاة شعائر المسلمين الامر الذي لم تكن تأبه له من قبل . من ذلك انها اصدرت اوامرها ، لمناسبة شهر الصيام الاسلامي ، وعيدي الفطر والاضحى اللذين صادف وقوعهما في مطلع سنة ١٩٤٤ على الشكل الآتي :

١ ـ منع منعاً باتاً وضع الخمور ولحم الخنزير على موائد الثكنات التي فيها جنود مسلمون .

٢ ـ تتولى المدفعية الفرنسية اعطاء اشارات السحور والعشاء اثناء الصيام في رمضان .

٣ ـ لا يسمح لاي يهودي بالانخراط في الوحدات الاسلامية .

٤ ـ يعفى جميع الجنود المسلمين من الخدمة طيلة شهر رمضان .

٥ ـ يعطل نظام خنق الأنوار مرتين في كل ليلة من ليالي رمضان لانارة موائد الجنود المسلمين.

٦ ـ توضع في عيد الاضحى الاغنام اللازمة تحت تصرف هواة الشواء . الخ ...

٧ ـ وفي اعياد رأس السنة الهجرية ، و٢٧ رمضان ، والمولد تمنح المأذونيات التي تبيح خروج الجند من الثكنات ليلاً كيلا تصطدم مراسيم العبادة وزيارة الجوامع باية عقبة .

ولكن اهل الجزائر،الذين عرفوا قيمة وعود فرنسا منذ الحرب العالمية الاولى، والذين كانوا يتألمون لسوق شبابهم إلى المجازر ، ووضعهم في إلخطوط الاولى ابان الحرب، لم تكن لتؤثر عليهم تلك البيانات والبلاغات ، خصوصاً وانها لا تطفيء لهم أواراً في ناحية الاماني القومية ؛ وهم طلاب استقلال لا يرضيهم التمنن عليهم بالحاقهم في مصاف الافرنسيين .

أضف إلى ذلك ان اخوانهم ، في اوروبا ومصر وسائر البلاد العربية ، كانوا يثيرونها حملة شعواء على دولة الحماية ، ويفندون وعودها ومزاعمها ؛ كما كانت تصل اليهم اخبار جهاد العرب في سبيل الاستقلال ؛ فتذهب دعايات الفرنسيين في اوساطهم هباء منثوراً .



تونس عهد الحماية الفرنسيه

الاحتلال الفرنسي: « إني أحمل تونس في جيبي » هكذا قال مسيو وادنطون Waddington ،ممثل فرنسا في مؤتمر برلين ، اثر عودته لباريس. فقد عقد هـذا المؤتمر عقب انتصار روسيا على تركيالفض النزاع الدولي المتفاقم بسبب اشراف « الرجل المريض » على درجة الاحتضار . وقد حضر ممثلو الدول هـــذا المؤتمر ،وكل منهم يطمع بالارث . اما انكلترا فقد كانت تحرص عـلى ان لا يبلـــغ النهم بهم الى الحد الذي يفضي الى محق تركيا ، ويكون وسيلة لتضخم روسيا. وانتهت المفاوضات الى اعتناق كثرة الدول فكرتها .

ووقعت معاهدة برلين (١٨٧٨ م) دون ان يكون فيهـا ذكر لتونس يسيغ لممثل فرنسا ان يصرح بـــا صرح به . ولكن أروقة قصر المؤتمر كانت سوقاً للمساومات ؛ وفيهـــا أسرّ لورد سالسبوري الى مسيو وادنطون ، ان انكلترا لا تعارض في ان يكون لفرنسا بتونس مقام ممتاز اذا هي ماشتهـــا في المؤتمر . وفيها ايضاً اعلن بسمرك حياده . فكانت تلك المساومات كافيـة لاعتبار مندوب فرنسا ان تونس اصبحت في الجيب .

وحاولت ايطاليـــا ، بشتى الوسائل ، الحؤول دون مطمع فرنسا ، ولا سيا بتحذير باي تونس ووزرائه من الخطر الباريسي ،فـلم تفلح ، وذلك لان فرنسا كان قداصبح لها حق التدخل بشؤن تونس من جراء الديون التي صارت لها هناك ، وبسبب الامتيازات التي حصلت عليها .

وفي ٤ نيسان ١٨٨١م نال جول فرّي J. Ferry ، عضو لجنة الدفاع الوطني، اعتمادات كافية قررها البرلمان لاحتلال تونس ؛ فكانت بعض التعديات التي حدثت على حدود الجزائر مسوغاً كافياً لاعلان الحرب . وهكذا تم لها ما ارادت في اقل من عام ؛ اذ املت ارادتها على الباي محمد الصادق لتوقيع معاهدة قصر سعيد Bardo يوم ١٢ مايس ١٨٨١ ، معترفـــاً فيها بحماية فرنسا ، ومتخلياً لها عن الادارتين الاقتصادية والمالية .

وكما ينتفض العصفور وقت الاحتضار كذلك انتفضت وقتئذ تونس ؛ وكانت ثورة شديدة تولاها السيد علي بن خليفة باسم المهدي ، فاستولى على صفاكس ،وامعن

في رد المحتلين حتى بلغ ابواب تونس . غير انه لم يستطع الثبوت الى النهاية ، تجاه القوة المنظمة ، فتقهقر ، وبذلك اكتملت عناصر الاحتلال منذ كانون الاول ١٨٨١ .

وفي الجملة لم تصطدم فرنسا في تونس بمثل ما اصطدمت به في الجزائر من مقاومة طويلة منظمة .

. . . . .

الادارة عهد الاحتلال : لما احتلت فرنسا تونس تعهدت، بمقتضى معاهدة قصر سعيد، ان تحافظ على سيادة الحكومة الوطنية ،وان تنفذ معاهداتها الدولية . ولكنها منذ تمتعت بالاستقرار شرعت تعمل على تحديد سلطة الباي وحكومته ، وعلى جعل السياسة الداخلية خالصة لهم دون أي تدخل أجنبي .

وقد حصل تيودور روستان T,Raustan ، اول مقيم عام افرنسي ، على موافقة الباي على ان تستقل دولته بالشؤون الخارجية . وعمد خلفه بول كمبون P. Cambon الى الغاء الامتيازات الاجنبية ، والى عقد معاهدة اخرى (١٨٨٣) تعرف بمعاهدة المرسى Marsa بسطت يد فرنسا في الحكم مباشرة .وقدا كملت فرنسا هذه المعاهدة ، من بعد، باتفاقات استدركت فيها ما فاتها من تأييد حكمها المطلق.

وبمقتضى هذه الاتفاقات اصبح المقيم العام الفرنسي رئيساً اعلى للموظفين: الاوربيين منهم والتونسيين على السواء . وهو يشغل منصب وزير خارجية الايالة ؛ ويختار مستشاره الذي يرئس مجلس المديرين . واما الباي فيظل حاكماً بالارث على رأس حكومة هي ، في الواقع ، قاصرة ، وجند لا يتجاوز الحرس .وفضلاً عن ان تثبيت الباي،اصبح معلقاً على ارادة فرنسا ، ولا يستطيع ان يباشر الحكم الا تحت اشراف المقيم العام ، فقد تقلص حكمه الى ان صار لا يتعدى القضاء الشرعي ، ولا يتجاوز السلطة على القادة حكام المقاطعات ، والمشايخ رؤساء القبائل.وهم المسؤولون عن حفظ الامن والجباية .

ومنذ سنة ١٨٩٦ عهدت حكومة تونس الى مجلس استشاري منتخب درس الميزانية ؛ وكان هذا المجلس يقسم الى قسمين : احدهما خاص بالتونسيين ؛ والآخر بالفرنسيين ؛ وفي هذا منتهى الاحتقار لاهل البلاد .

هذا ،وقد استطاعت فرنسا قطع كل الصلات الاجنبية التي كانت لبعض الدول في تونس ؛ فألغت المجلس الدولي المالي ، وعطلت المحاكم القنصلية ، وتمكنت ، بعد مفاوضات استمرت الى سنة ١٨٩٦ ، من الغاء ادارات البريد الاجنبية .

الاستعمار : دخلت فرنسا تونس، وهي بالاضافة لما تتمتع به من تراث موفور من الحضارة العربية كانت تتأهب لاستقبال التمدن الحديث بكل نشاط ، وترحب بمشاريعه العمرانية . وكانت قبل الاحتلال منحت بعض الشركات الفرنسية والايطالية شيئاً من الامتيازات لمشاريع اقتصادية وعمرانية . فلما دخلت فرنسا البلاد عنيت بزيادة هذه المشاريع تمشياً مع روح العصر، وحباً في ان تكون خالصة للافرنسيين. فاتجه المقيم العام غوستاف ماسيكولت G.Massicult (١٨٨٦ - ١٨٩٢) للناحية الزراعية ،وانشأ لها ادارة خاصة ، وبستاناً للاختبار ، منشطاً زراعة الزيتون في قابس . وجرى مجراه المقيم العام ملت R.Millet ؛ كما انصرف المقيم شارل روفيه C.Rouvier لمرافق التجارة يؤيدها: فعني باصلاح المرافيء التونسية، ومد الخطوط الحديدية والطرق . وفي سنة ١٨٣٨ قامت حكومة تونس بمشروع السنوات الخمس، وتوخت فيه اصلاحاً جديداً في صعيد الزراعة .

وقد منح المستعمرون ايضاً ، منذ اواخر القرن التاسع عشر ، شركات افرنسية امتيازات للتعدين ؛ فاصبحت تونس تصدر ، ولا سيما الى فرنسا ، المعادن ، بالاضافة الى الحبوب والزيت والمواشي .

وفي الناحية الثقافية توخت دولة الاحتلال توجيه المعارف في البلاد ايضاً توجيهاً يفضي الى تأييد سياسة الاستعمار ؛ فنشطت الى نشر المدارس الفرنسية للذكور والاناث من ابتدائية وثانوية ، واقامت داراً للمعلمين، كما انها سهلت مهمات البعثات الفرنسية الثقافية من علمانية وكاثوليكية ؛ وشوقت اهل تونس الى استعذاب مواردها ، فاقبلوا عليها اقبالاً حسناً، يوماً بعد يوم،حتى اصبحت الثقافة الفرنسية، ولغتها منتشرتين انتشاراً وافراً لا سيما بين الطبقة العليا . ولكن ، رغم كل ذلك ، لم يستطع المحتلون ان يدركوا امنيتهم في صدد اضعاف اللغة العربية بتونس والشعور الوطني ، كما تسنى لهم في بعض اوساط الجزائر . وكان الفضل في ذلك للمؤسسات الدينية التي كانت تقوم فيها ، وعلى رأسها جامع الزيتونة ، وللمؤسسات الثقافية الحكومية والاهلية، التي تابعت اداء رسالتها ، وفي طليعتها الكلية الصادقية .

. . . . .

شكوى التونسيين : اول ما يشكو منه التونسيون هو تجاوز فرنسا حدود المعاهدات التي وقعت فيما بينها وبين الباي ،وتمثيلها، وراء ستار الحماية، افظع ادوار

الاستعمار . هذا عدا حصرها السلطة الفعلية في المقيم العام، وسائر موظفيها بتونس ؛ وتفضيلها الفرنسيين على الوطنيين الى حد ان شعبها، الذي يقيم في تونس، قد استحوذ على نيف وخمسة عشر الف وظيفة ، مع انه لا يتجاوز هناك الخمسين الف نسمة .

وفضلاً عن ذلك فقد ساقت فرنسا الجند التونسي الى القتال في حربي ١٩١٤ و ١٩٣٩ خلافاً لمنطوق معاهـــدة قصر سعيد Bardo ،كما ساقت الى معاملها عدداً كبيراً من العمال . الى انها اغرقت تونس بالديون متصرفة تصرفات غريبة في هـذا السبيل . فكانت تمنح الشركات الفرنسية امتيازات التعدين ، وتعقد معهـــا ، في نفس الوقت، قروضاً لمدّ الخطوط الحديدية تثقل كاهل الخزينة ، بيـنما كانت تلك الخطوط تمد لمصلحة الشركات . وفي سنة ١٩٣٨ بلغت ارقام النفقات في الميزانيـة ٧٠٤،٠٦١،٦٨٠ فرنكاً ، ثم ازدادت اضعافاً .

وعدا ذلك فقد وضعت قوانـــين جمركية حصرت بالافرنسيين وحدهم بعض نواحي الاستثمار في الشؤون التجارية ، فضلاً عن قوانين جمركية أخرى للاستملاك لم تستطع الاوقاف الاسلامية ان تسلم منها . وبمقتضى هـذه القوانين تحول ثلث الاراضي الزراعية الى الفرنسيين، على قلة عددهم؛ وكانت محاصيل هذا الثلث معفاة من المكوس ، الاّ عشر العشر عن بعض المزروعات ، بينما كانت اراضي التونسيين واغلالهم مرهقة بضرائب باهظة .

وأما المعارف فان السلطة قد استأثرت بها : فاذا هي تعمل على كبت اللغـة العربية بقدر ما تعمل على اطلاق لغتها وآدابها. واذا هي تجيز لنفسها في سبيل القضاء على القومية ، التدخل حتى في المدارس الخاصة : وقد سنت في توجيه التعليم الوطني، قانوناً لهذا الغرض بحجة منع السياسة في المدارس .

ويتألم التونسيون،فوق ذلك من معاملة المستعمر لهم، وهم اهل مدنية وعمران ، معاملة العبيد . من ذلك ان المجلس الاستشاري Conférence Consultation ، الذي قام قبيـل الحرب الاخيرة قصد الاشراف على ميزانية الولاية، قدقسم الى لجنتين : وطنية ولها في هذا التمثيل المظهر فحسب،وفرنسية ولها في هذا التمثيل كل شيء . وفوق ذلك لا يكون انتخاب اللجنة الوطنية الا تحت نفوذ السلطة ، بينما تترك للجنة الفرنسية حرية التصرف .

واخيراً يستغرب التونسيون ان تظل الجمهورية الرابعة بعد الحرب متمشية على سياسة فرنسا التقليدية الاستعمارية: فتحاول ان تجري في تونس على ما تجري عليه في

الجزائر، لا سيما من حيث جعلها جزءاً من فرنسا، ضاربة بعرض الحائط معاهـــدة الاطلانطيك والمواثيق الدولية، وروح العصر فضلاً عن المعاهدات الخاصة المتبادلة .

وقد عقد الاتحاد العام التونسي للعمل مؤتمراً في شهر كانون الثاني ١٩٤٧، وكان من جملة مقرراته ما يلي :

١ — عـــدم الاعتراف لاعضاء المجلس الكبير بحق تمثيل الشعب التونسي، والمطالبة بانشاء مجلس نيابي .

٢ — اعلان استنكاره لاستمرار الاحكام العرفيةالتي مضى على اعلانها ثماني سنوات، ومطالباً بارجاع الحريات العامة .

٣ — احتجاجه على وجود ادارة عسكرية في المناطق الجنوبية بتونس منذ احتل الفرنسيون .

. . . . .

تونس خلال الحرب العالمية الثانية : منذ غرة عام ١٩٣٨، عمدت فرنسا، تحت تأثير خطر حرب عالمية ثانيـــة الى سلوك سياسة المداراة في تونس . ففي كانون الثاني من ذلك العـام انتهز رئيس الجمهورية الفرنسية مناسبة الجفاف الذي احاق بالبلاد للتبرع بمائة وعشرين الف فرنك للمنكوبين . وفي شهر آذار اعتزمت حكومة تونس القيام بمشروع السنوات الخمس لتحسين موارد الزرع، ولتفجير المياه ؛ كما ان هذا العام، وما رافقـه من خطر، كانا حافزين للجمعية الفرنسية الاسلامية في باريس للاعراب عن نشاط جديد . فقد اقامت لنفسها، على مقربة من الجامع الاسلامي في باريس، مركزاً كان مدار حركة لبث الصداقـــة، وتعزيز التعاون بين فرنسا والعرب. وقد قام هذا المركز باعطاء دروس لعمال العرب من جالية شمال افريقيا، وبانشاء مكتبة، وقاعة عامة للقراءة والمحاضرات والسينما .

وفضلاً عن ذلك فان لجنة الصداقة الفرنسية الافريقية انشأت في مدينة ليون منتدى اسمته « دار العسكري »، وفتحت ابوابه للجنود العرب في الجيش الفرنسي. واهتمت فرنسا، الى ذلك، كل الاهتمام بتنسيق الادارات في شمال افريقيا، وربط المواصلات، استعداداً للحرب . وعقدت في ٢١ آذار ١٩٣٩ لجنـة البحر المتوسط جلساتها لهذه الغاية. هذا وقد تقرر تعيين الجنرال نوغيس Nogus قائداً عاماً لكل من مراكش والجزائر وتونس، مع بقاء التنظيم العسكري لكل قطر على حاله .

ثم وقعت الحرب العالمية الثانية، فاتخذت فرنسا التدابير الحربية المعتادة، مستعملة الحزم في السياسة المحلية. ولما حملت الولايات المتحدة، بالاتفاق مع بريطانيا العظمى، على شمال افريقيا، وانزلت القوات في ٨ تشرين الثـاني ١٩٤٢ في مراكز متعددة

تحت حماية الاسطول الانكليزي، وسلاح الطيران الملكي والاميركي، ذعرت المانيا من هذه المفاجأة ، وبادرت الى احتلال تونس في منتهى السرعة . وقد هبط اليها جنودها بالطائرات نظراً لاهمية مركزها الستراتيجي، واجبروا الجيوش الفرنسية، التي تمردت عليهم، على الجلاء للتجمع في ناحية القيروان . ثم لما خسرت المانيا ليبيا، وفقدت نهائياً طرابلس الغرب، في ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣، انسحب جيش الجنرال روومل الى تونس . ثم بعد مرور ستة أشهر على نزول الحلفاء في إفريقيا الشمالية احتل الجنرال أندرسون مدينة تونس ، (٧ مايس ١٩٤٣) مضطراً جيوش المحور للاستسلام بعد أيام قليلة . وكان أن تسلم الفرنسيون هذه الايالة ، وعينوا الجنرال ماسيت حاكماً عسكرياً عليها . وافتتحوا أعمالهم بتنحية الباي محمد المنصف عن عرش تونس في ١٧ مايس ، وإقاموا سيدي الامين باشا مكانه ، هذا فضلاً عن إعدام أنصار المحور ، وبينهم بعض الافرنسيين التابعين لحكومة فيشي في ذلك العهد .

وكان الاميرال دارلان صديق المحور قد انقلب عليه مذ خفت موازينه ، وتواطأ مع الحلفاء على احتلال شمال إفريقيا . وقد فر فعلاً من فرنسا الى تونس عقب الاحتلال الاميركي ، وأسمى نفسه رئيساً للدولة ، وقائداً أعلى للجيش ، وأقام من حوله مجلسين أحدهما : مدني ، والآخر عسكري . ولكنه لم يتمتع بالثقة ، فاغتيل بعد قليل.

وكان الجنرال جيرو قد رافق جيوش الحلفاء في احتلال الشمال الافريقي ، فانتخبه المجلس خلفاً للاميرال دارلان .

مراكش عهد الحماية الفرنسية

الاحتلال الفرنسي : انتهت المساومات الدولية سنة ١٩١١ باطلاق يد فرنسا في مراكش ؛ وكانت الفرصة سانحة لها لخلق الفتن الداخلية التي سهلت كثيراً مهمة السياسة الفرنسية . ولما هبط مولاي عبد الحفيظ باريس ، مستنجداً بفرنسا ، قدمت له معاهدة وقعها في ٣٠ آذار ١٩١٢ ، وفيها نص على قبوله بالحماية ، إزاء تعهدها فيها بالمحافظة على الدين ، وباحترام نفوذ جلالة السلطان ، وباعلامه عن المواقع التي ترى احتلالها يصون النظام . وهو بدوره يتعهد لها أيضاً بان لا يصدر الاوامر ، إلا بناء على اقتراح ممثليها ، وان يعهد إلى المقيم العام في العاصمة (رباط) التصديق على هذه الاوامر ، وتنفيذها ، بالاضافة إلى تعهد جلالته بانه لا يعقد ديناً ، ولا يمنح امتيازاً ، ولا يتولى عملاً له صبغة خارجية دون موافقة الحكومة الفرنسية . وأما الجيش فهو يتعهد بان يكون تحت

قيادة المقيم العام وحده. على أن الشعب المراكشي، الذي سعى خلال الف عام، لمنع الاجانب من الاقامة في داخل بلاده، قابل بألم دخول السلطة كلها في قبضة الاجنبي؛ وأعرب عن هذا الشعور السيء بثورات حامية، وخصوصاً في القسم الجنوبي من البلاد. وكان الرسولي، حتى وفاته سنة ١٩٢٤، أشدهم خطراً على فرنسا. ولما رأى الجنرال ليوتي Lyautey، المقيم العام، أن مولاي يوسف أخلص للدولة الحامية من أخيه السلطان مولاي عبد الحفيظ رفعه إلى العرش مكانه في ١٢ آب ١٩١٢. ومنذ ذلك الحين انصرفت جنوده لتأمين الاتصال بين مراكش والجزائر. كما أوكل إلى القبائل الشمالية، الموالية لفرنسا، أمر إخضاع القسم الجنوبي، وأمدها بالعدد والمال، وعززها ببعض الفرق الفرنسية. وقد قدر لهذه السياسة النجاح: إذ بلغت مساحة الاراضي المحتلة في مراكش لغاية سنة ١٩١٤، ما يقدر بـ ١٦٧٠٠٠ كيلومتر مربع من أصل ٨٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع هي مجموع مساحـــة القطر المراكشي. هذا فضلاً عـن تأمين خطوط الاتصال مع الجزائر. ثم حالت الحرب العامة الاولى دون الاسترسال في احتلال القسم الباقي. على أن انتصار فرنسا فيها قد أطلق يدها، من بعد، لاستكمال الفتح، والتصرف تصرف المستعمر.

ولما توفي السلطان يوسف عام ١٩٢٧ خلفه على العرش ولده السلطان الحالي مولاي محمد. ولم يكن لجلالته من العمر إلا ١٨ ربيعاً، فاستغل الفرنسيون صغر سنه مدة من الزمن، حتى إذا بلغ سن النضوج، خلال ما كان قد ارتفع صوت العرب في كل مكان مطالباً بالاستقلال والاتحاد، خف جلالته للعمل من أجل وطنه العزيز غير هياب ولا وجل.

. . . . .

الادارة عهد الحماية: إن الخلاصة التي أوردناها من المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والسلطان مولاي عبد الحفيظ تكفي لاعطائنا فكرة عن شكل الحكم في مراكش عهد الحماية: فقد كان هناك هيكل حكومي تصدر عنه أوامر ونواه باسم المراكشيين، وما هو في الواقع إلا كالبوق ينقل أصوات غيره. ومع ذلك فان هذه المعاهدة، وإن كانت أشد وطأة على الحكم الوطني من معاهدتي فرنسا وتونس المعروفـــة بقصر سعيد، إلا أن المراكشيين ظلوا فيها يتمتعون بسلطة عليهـا مسحة من الحرية تفوق حرية التونسيين. وأتيح لهم الحصول عـلى حصة أكبر لتجديد بناء سلطنة لا تفتأ تحتفظ بظهر الدول، وتتسم بسيمة الحكم الوطني.

ويتألف الهيكل الحكومي بمراكش من بعض وزارات تستمد السلطـــة من

السلطان ، ويحكم المقاطعات الباشوات والقادة : فالباشوات هم ولاة المقـاطعات ورؤساء البلديات ؛ والقادة هم عمد العشائر ، ورؤساء مجالسهم المسماة بالجماعـــات . ويشرف على الاحكام الفرنسيون ،وهم مفتشون مدنيون في المدن،وضباط استخبارات في العشائر . وقد اعتمدت السلطة مبدأ الانفصال بين الوطنيين والاوروبيـــين في المجالس المختلطة ،بحيث تكون لكل منها شعبة مستقلة عن الآخر. سواء أكان ذلك في الادارة ، أم في القضاء ، أم في التعليم .

. . . . .

الاستثمار : لم يتورع الجنرال ليوتي الذي كان مقيماً عاماً في مراكش عن التصريح برأيه بصدد الاستعمار فقال : « كل مشروع اقتصادي تحققـــه فرنسا في مراكش يوازي فيلقاً » وقد صدمت الحرب العامة الاولى برنامجه الاستعماري القائم على المشاريع الاقتصادية ،ولكنها لم توقف تطبيقه. بل إن الحاجة خلال الحرب لتأمين النقليات العسكرية حملت المقيم العـــام على مد الخطوط الحديدية ، وتعبيد الطرق وإصلاح المرافيء. فبينا كان العمال يؤمنون الطرق إلى طنجة ،كان هناك أربعة آلاف عامل غيرهم منهمكين باعداد مرفأ الدار البيضاء . وما وضعت الحرب أوزارها إلا وقد بلغ طول هذه الخطوط نحو الف كيلو متر ، هـذا فضلاً عن خطوط حديدية عسكرية ضيقة ، طولها ثمانمائة كيلو متر أيضاً .

وقد حولت هذه الخطوط بعد الحرب إلى الاعمال المدنية ، فأدت بالاضافة لعشرة آلاف ميل من الاسلاك التلغرافية ، أجلّ المنافع ، وخصوصاً في صعيد الزراعة . ففي سنة ١٩١٣ كانت تقدر قيمة الصادرات ب ٤٠،١٨٠،٠٠٠ فرنك ، فاذا هي تبلغ عام ١٩٢٣ ٢٦٦،٢٠٦،٠٠٠ فرنك .

وفي سنة ١٩١٣ كانت الواردات ١٨١،٤٢٦،٠٠٠ فرنك ، فاذا بها تبلغ عام ١٩٢٣ ٧٧٨،٩٢٠،٠٠٠ فرنك . وقد استثمر هـــذه الخطوط اصحاب المناجم ، وكلهم افرنسيون ، والمناجم هي اهم ثروة في مراكش بعد الزراعة ؛ كما ان اعظم مواردهـا من الفسفات الذي كان المستخرج منه سنة ١٩٢١ — ٨٠٠٠ طن ، فبلغ سنة ١٩٣٠ ١،٨٠٠،٠٠٠ من الاطنان .

على ان هذه الزيادات ،سواء أكانت في الصادرات أم في الواردات، كانت من نصيب الرعايا الافرنسيين. هذا فضلاً عن ان نسبة الصادرات القليلة من مراكش للواردات الكثيرة

التي تأتيها من الخارج كانت من شأنها ان تفضي الى افلاس مراكش، لولا نشاط الوطنيين من السكان، لا سيما في الحقل الزراعي .

ولم يكن اهتمام فرنسا في الشؤون الثقافية باقل منه في الشؤون الاقتصادية، ولكن هدفها في هذه الناحية كان يريش سهما مسموماً موجها إلى قلب القومية في مراكش، اذ كانت تستهدف نشر اللغة الفرنسية وثقافتها على انقاض لغة القرآن وحضارة العرب . قال اندره ليختنبرجر A . Lichtenberger : « لم يكن لنا سنة ١٩١٢ غير ٣٧ مدرسة، فيها ٣٠٠٠ تلميذ، فاذا بعددها يصبح سنة ١٩١٧ — ١٨٠ مدرسة ينتسب اليها ٢٠٠٠٠ تلميذ . وقد ظل عدد المدارس يتزايد، وعدد طلابها يتكاثر حتى احصى الذكور منهم سنة ١٩٣٨ بـ ٨٠٠٠٠ تلميذ . ولكن الصلابة، التي يشتهر بها أهل المغرب، حالت دون اماني الاستعمار في الناحية الثقافية حتى انه لم يكن بين الثمانين الف تلميذ المذكورين سوى عشرين الفاً من المسلمين . »

ومما يؤسف له ان سياسة فرنسا التقليدية في المغرب لم تتأثر كثيراً، حتى بعد الحرب العالمية الثانية، بالمؤثرات العامة التي خضعت لها الدول . وآية ذلك اننا، إذ نكتب هذا الفصل، تنقل الينا انباء مراكش ان المقيم العام السيد اريك لابون يتبع، منذ تعيينه، سياسة ترمي لنقل رؤوس اموال الفرنسيين الى مراكش لاستثمارها هناك، وانه تمّ فعلاً خلال سنة ١٩٤٦، نقل خمسة عشر مليار فرنك، مما دعا جلالة سلطان مراكش إلى اظهار استنكاره لهذه الهجرة المالية . وتقول الانباء ان السلطان مصر على عدم التصديق على قرارات ممثل فرنسا متهما مشاريعه جميعها بانها تحقق مصالح الفرنسيين وحدهم .

. . . . .

شكوى المراكشيين : رفع اعيان مراكش الى السلطان عريضة مؤرخة في ٢٨ ربيع الاول ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م تتلخص موادها بطلب ما يأتي :

١ — احترام نفوذ الشريف وجعله شاملا الشؤون الدينية والسياسية . ومرجعاً مباشراً للموظفين .

٢و٣ — اصدار ظهير يقضي بجعل الاسلام شريعة المسلمين كافة واصلاً للقضاء .

٤و٥ — توحيد برامج التعليم على ان يكون تحصيل اللغة والعلوم الدينية اجبارياً، والاعتماد على اللغة العربية في الاعمال الحكومية، مع اجتناب اللهجات البربرية التي اعتادت الدوائر استعمالها في المراسلات والصيغ .

٦و٧و٨ — وضع حد للمبشرين والعدول عن منح الحكومة المراكشية الاعانات لهم .

١٠و١١و١٢ — ازالة الصعوبات التي القتها السلطة بوجه المدرسين والفقهاء ورجال الطرق

واعادة الحرية لهم في الحل والترحال ، لتعليم المسلمين امور دينهم.
١٣ — العفو عن المسجونين والمنفيين بتهمة الاشتراك في الفتنة التي تلت الظهير البربري .

وهذه العريضة تعلن الشكاوي التي كان المراكشيون يشعرون بها بوجه عام ، بالاضافة الى آلامهم في النواحي الاقتصادية . وقد رفعت الى السلطات بمناسبة الظهير البربري والفتنة التي أثارها – فما هو اذن حقيقة هذا الظهير الذي اضطرب له العالم الاسلامي ؟

ان سكان مراكش يعدون تقريباً ثمانية ملايين نسمة كلهم عرب لغة ، ومسلمون ديناً ، الا نفر قليل منهم من اليهود . غير ان خمسة ملايين منهم يرجعون في الاصل الى البربر ، وقد اعتنقوا الاسلام حوالي عام ٦٨١ هـ = ١٢٨٣ م ثم أصبح دينهم الشامل منذ اواخر القرن الرابع عشر للميلاد . وقد رفعوا علمه عالياً واقتصروا على لغته . ولما همت فرنسا بمراكش تريد ان تدك معاقلها المعنوية توجهت الى هؤلاء البربر محاولة الفصل بينهم وبين العرب ، وذلك باحياء تقاليد لهؤلاء شاءت ان تجعلها شريعة لهم دون الاسلام ، واستفادت من تنصيب مولاي يوسف سلطاناً على مراكش فاستصدرت منه بالضغط ظهيرا جاء فيه :

« ان القبائل ذات التقاليد البربرية يجري عليها الحكم والادارة على شريعتها الخاصة وعاداتها . »

ثم حالت الحرب العامة دون استغلال هذا الظهير حتى اذا ولي لوسيان سان Lucien Saint مقيما عاما وجد في وفاة السلطان يوسف مجالا لاثارة موضوع الظهير : ذلك انه اختار ثالث انجال السلطان ، وعمره ثماني عشرة سنة ليخلف اباه ، وكان سهلا على ممثل فرنسا ان يأخذ توقيع السلطان الفتى (١٦ مايس ١٩٣٠) على ظهير جديد وضعه فوراً موضع التنفيذ ؛ وهو يقضي باغلاق محاكم الشرع الاسلامي بين البربر على ان ترجع امورهم الى هيئة منهم تعرف بالجماعة Djemaa ، مرتبطة مباشرة بالسلطة الفرنسية .

هذا الى انه نصب قضاة افرنسيين للبربر ، قيل ان الغاية منهم الاستعانة على تحليل تلك العوائد البربرية وتطبيق قانون الجزاء الفرنسي على البربر ايضاً . ولم يأبه المقيم العام للاحتجاجات الصاخبة ؛ بل عمد الى تدابير من شأنها تعزيز هذا الظهير ، فنشط الارساليات المسيحية للانتشار بين البربر بحجة انهم كانوا مسيحيين قبل ان يكونوا مسلمين ؛ كما وضع العراقيل والصعوبات للحيلولة دون اختلاط البربر بالعرب ، ومنع عليهما الأنتقال الا بجواز . وحظر على البربر ، من جهة اخرى ، اقتباس

التعاليم الاسلامية .

وظلت السلطة الفرنسية تسترسل في تأبيد الاستعمار ، وظل المراكشيون يقابلونها بالاحتجاجات ، حتى اذا تولى الوطنيون زمام حركة المعارضة تحولوا الى دعم احتجاجاتهم بالارقام . من ذلك انه لما رفعت لجنة العمل المراكشية عريضتها الى السلطات وحكومة فرنسا (كانون الاول ١٩٣٤) وانتقدت بشدة قانون الاستملاك الذي نقل الى المستعمرين جزءاً كبيراً من اراضي الفلاحين اضافت إلى ذلك انتقادات اخرى عززتها بجداول تستند الى ميزانيات الحكومة الشريفية . وهذه امثلة منها :

١ — ان ميزانيــة ١٩٣٣ بلغت ١٦٦٢٢١١٦٨٥ فرنكا اختصت منها المحاكم الفرنسية بمبلغ ٢٠٨٣٦١٤٥٠ . وهذه المحاكم انما تقضي بين جالية تبلغ نحوا من مايتي الف نسمة ، بينما ان وزارات المغرب جميعها، ومحاكمه الجزائية والحقوقية كافة حدد لها مبلغ لايتجاوز ٥٥٠٣٢٠٥٨ فرنكا فقط .

٢ — ومن هذا القبيل ما عينته الميزانية حصة للمعارف الخـاصة بالفرنسيين ومن يتبعهم من اليهود المتجنسين بالجنسية الفرنسية . وهي تبلغ ٥٥٦٦٢٢٣٥ فرنكا على حين انها لم تزد حصة المراكشيين على كثرتهم الساحقة عن ١٧٨٦٩١٧٥٠ فرنكا .

وهم إلى ذلك ، على رواية جريدة ارادة الشعب التي تصدر بفاس ، يشكون مما يأتي :

١ — حرمان المسلمين من المنح الطائفيــة، بينما ان اعتمادات القاصد الرسولي بلغت في ميزانية سنة ١٩٣٢ ٥٤٥٦٧٠ فرنكا .

٢ — توزيع قرض ٢٧ نيسان ١٩٣٢ على نسبة جائرة ،مع ان الغاية منه تنشيط الحالة العامة ؛ ومثله سائر السلف والاعانات .

بيد ان هذه الشكاوي كلها وإن كان نصيبها سلة المهملات، ولكن اماني اخواننا المراكشيين تعدت ، بعد الحرب العالميــة الثانية ، نطاق الشكوى ، وتمشت جنباً إلى جنب مع اماني العرب العامة في المطالبة بالحرية والاستقلال والاتحاد ؛ كما اصبحت تلك الأماني تتجه شطر مجلس الجامعة العربية متمنين الاجتماع باخوانهم الآخرين تحت قبة هذا المجلس قصد توحيد الاعمال في سبيل المثل الاعلى .

. . . . .

مراكش خلال الحرب العالمية الثانية : وعــلى طريقة المداراة واكتساب القلوب جرت فرنسا ايضاً في مراكش مذ كشر خطر الحرب عن انيابه الحمراء ، فهبط مسيو تيسان ، وكيل وزارة الخارجية الفرنسية ، مراكش في شباط ١٩٣٨ ، وقام بدورة تفتيشية في انحاء البلاد . وعلى اثر ذلك عمـد المقيم العام الفرنسي الى تعيين

ثلاثة مراكشيين لمعاونته، بينما كانت الدعايات تملاء البلاد بالوعود، وذلك بمناسبة اجتماع لجنة البحر المتوسط الفرنسية في الشهر التالي لدرس الشؤون الثقافيــة والاقتصادية والزراعية في الاقطار التابعة لفرنسا في افريقية .

وقد نشبت الحرب فعلا عام ١٩٣٩، فاذا بفرنسا سرعان ما تصبح فريسة للاحتلال الالماني، واذا بالاميرال دارلان، الذي كان يتولى دفة الادارة الفعلية في عهد المارشال بيتان بالاتفاق مـــع المانيا في السياسة الافريقية، ينصب الجنرال ويغان مفتشاً عامـــاً عـلى شمال افريقيا . فزار في مطلع عام ١٩٤١ مراكش وتشرف بمقابلة جلالة سلطانها مولاي محمد، وأشرف عن كثب على الازمة المالية التي كانت مستفحلة في تلك البلاد . وتنقل كثيراً ما بين فيشي وشمال افريقيا . وإذ لم يكن على تمام الاتفاق مع الاميرال دارلان تنحى، وقام مقامه الجنرال هتزنجر .

ثم لما احتل الحلفاء شمال افريقيا سنة ١٩٤٣ بقيــادة الجنرال كلارك الاميركي اصبحت مراكش تدار من قبـــل القيادة العليا العسكرية . وكان الجنرال جيرو، المقيم العام على الجزائر، يمثل فرنسا في مراكش ايضاً، على ان سلطته ظلت خاضعة لبعض صلاحيات احتفظت بها القيادة العليا للحلفاء وفقاً لاتفاق دارلان - كلارك .

هذا وكان المراكشيون، أنفسهم وعلى رأسهم جلالة السلطان، قد شرعوا، مذ اخذ العالم العربي في المشرق يثب لادراك امانيه الاستقلالية، ولتحقيق رغائبه الاتحادية، يساهمون فى الاعلان عن مثل هـذه الرغبات، تنشطهم الى ذلك تصريحات بعض المسؤولين في امريكا وبريطانيا .

اما الجنرال ديغول الذي كان يحرص على بقاء سلطة امته في شمال افريقيا كما هي فانه لم يستطع الا أن يلجـأ لسياسة المداراة: فاذا بنا نرى مسيو بيوّ، المفوض السامي الجديد في مراكش، يخف، اثر اجتماع تشرشل - ديغول في مطلع عـام ١٩٤٤ للتشرف بمقابلة السلطان، واطلاعه على نوايا فرانسا، مؤكداً له « انها ستبقى امينة على روح المهمة التي تضطلع بها حسب منطوق معاهداتها، كما ان التضحيات الجديدة ستبقى سائرة، بحيث يتسنى للمراكشيين الاشتراك، اكثر فاكثر في ادارة مصالح الدولة العامة، وفقاً لتصريحات الجنرال ديغول الاخيرة . »

ولكن ما أن استتب الحال لفرنسا في شمال افريقيا حتى ضربت بتلك الوعود عرض الحائط، وراحت تقابل احتجاجات الوطنيين، ومطاليبهم باللامبالاة حسب العادة.

الريف المراكشي وطنجة

يطلق اسم الريف على الادغال الجبلية الممتدة من جبل الاطلس الى سهول مراكش المنبسطة حتى البحر المتوسط. وما زالت هذه المنطقة، التي لا يتجاوز عدد سكانها نصف مليون نسمة، مطمع انظار اسبانيا المواجهة لها. وازدادت طمعاً فيها اثر احتلال فرنسا للجزائر. فقد كانت تحسب حساباً لصاحب البلاد سلطان مراكش، فلما آنست فيه الضعف على اثر فشله في محاولته نجدة الجزائر وحماية الامير عبدالقادر، حملت على الريف واحتلت تطوان.

ولكن انكلترة التي تحرص على ان لا تقوم قبالة جبل طارق دولة قوية، انتصبت تحتج على اسبانيا، فتوقفت هذه عند ثغر طنجة؛ بيد ان احتلال تطوان جعل الريف، وفي جملته سبتة ومليلة، منطقة نفوذ للاسبان؛ وذلك بمقتضى معاهدة مدراس سنة ١٨٦٠ م.

ولكن اسبانيا اصطدمت بمقاومات عنيفة عند كل خطوة باشرتها لاحتلال المنطقة المحددة لها بمقتضى معاهدة مناقط، ولم تعترف فرنسا لاسبانيا بالريف إلا سنة ١٩١٢ حينما اعتزمت باريس بسط حمايتها نهائياً على مراكش. واصبح الريف من بعد على قسمين:

(١) منطقه خليفة سلطان مراكش.

(٢) منطقة مليلة وسبتة وهي تحت الحكم الاسباني مباشرة.

واما ثغر طنجة فقد استمر، على استقلاله عن الريف، يتمتع بنظام خاص قائم على اتفاق سنة ١٩٢٤ الذي عقد بين كل من فرنسا وانكلترا واسبانيا. ويقضي هذا النظام، بعد تعديله سنة ١٩٢٨، بقيام ادارة دولية تحت سيادة سلطان مراكش؛ على ان يتولى السلطان الحكم بواسطة موظف كبير؛ هو المندوب الاسباني. والى هذا تقوم الى جانب المجلس التشريعي الدولي الذي يتولى الشؤون التشريعية والقانونية لجنة مراقبة مؤلفة من القناصل العامين لكل من بلجيكا وفرنسا واسبانيا وبريطانيا وايطاليا وهولندا والبرتغال. ثم هناك حاكم اداري ينفذ قرارات المجلس، ويدير شؤون المنطقة. أما شؤون الامن فيها فهي من اختصاص درك مؤلف من ٢٥٠ نفراً على رأسهم قائد اسباني. اضف الى ذلك ان الاجانب يتقاضون امام محكمة جميع قضاتها منهم.

ولكن اسبانيا، التي ظلت تطالب بطنجة ومنطقتها الدولية، اكتسبت فرصة

الحرب الاخيرة فاحتلتها سنة ١٩٤٠ ، معلنة ان هذا الاحتلال انما يقع باسم سلطان مراكش ، على ان يستمر عمل الدوائر الدولية كالسابق .

وما ان تم النصر للحلفاء حتى اثاروا قضية طنجة ،واعادوا ادارتها صيف ١٩٤٥ لممثلي الدول التي وقعت اتفـاق الجزيرة ، ودعيت للاشتراك في الادارة الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفياتي عـــلى ان تناط مهمة تعيين الموظفين بسلطان المغرب .

هذا وكانت قد قامت مشادة بين اهـل الريف واسبانيا ، في فجر العام الذي اشتعلت فيه الحرب العالمية الثانية كان مصدرها وعوداً عذبة اغدقت بها حكومـــة الجنرال فرنكو عليهم اثناء الثورة التي شنتها على الجمهورية وهي وعود لم يتحقق شيء منهـــا بعد النصر .

اما التصريحات التي افضى بها المندوب السامي الاسباني في المغرب الكولونيل بجبدر فقد خيبت الآمال : ذلك لان الاصلاحات ، التي وعد بها ، تعتبر في نظر اهل البلاد ثانوية ؛ ولا علاقة لها بالاماني القومية . وهم انما تقدموا إلى اهراق دمائهم في اسبانيا في صفوف الجنرال فرنكو طمعاً في ادراك استقلالهم الذي وعدوا به .

لذلك فقد تفاقمت الصعوبات في وجه اسبانيا بعد الحرب الاخيرة ، خصوصاً بعد أن اخذ اخواننا في الريف يشاهدون،عن كثب ،انفصام حلقات الاستعمار التي كانت تطوق العالم العربي واحدة بعد واحدة .

طرابلس الغرب وبرقة (ليبيا) عهد الاحتلال

١ ــ **العهد الايطالي** : لما افلتت تونس من يدالطليان توجهت مطامعهم إلى طرابلس ، واعتقدوا بان فيها تعويضاً لهم كافياً على اعتبار انها اقصر السبل للسودان والحبشة ، فشرعوا يمهدون الطرق الى احتلالهـا بتعزيز المشاريع الاقتصادية فيها ، وبوصلها بايطاليا بالخطوط البحرية التجارية . ثم اخذوا يلوحون بها خلال المساومات الدولية . ومنـذ سنة ١٩٠١ شاع بأن مسيو دلكاسيه Delcassé اعلن الى مسيو بنيتي Pinetti بان فرنسا لا ترى مانعاً من بسط ايطاليا نفوذها على طرابلس فيما اذا كانت تحيد عن طريقها الى مراكش .

وكانت سياسة عبد الحميد الثـاني حيال الدول ترتكز على قاعدة « فرق تسد »

احتفاظاً بسلطنته المتداعية فاستثمر مطامع المـانيا الاقتصادية لاغرائها بمراكش، ولدفعهـا للوقوف ، موقف المعارضة، في وجه ايطاليا بليبيا. اما روما فقد اعتزمت القيام بعمل حاسم بطرابلس مذ رأت اصبع برلين يمتد اليها ، فانتهزت فرصة الاتفاق الذي حصل بينها وبين انكلترة وفرنسا عقب المساومات المعلومة التي انتهت باقتسام مناطق النفوذ في كل من مصر ومراكش وليبيا، فيما بينهما، وساقت اليها حملة احتلت ثغر طرابلس في ٤ تشرين الاول ١٩١١ ، ثم طبرق ودرنه وبني غاري على الساحل .

ورغم ان هذه الحملة ما فتئت تتلقى النجدات تباعاً حتى بلغ عددها نحو مائة الف مقاتل فقد امتنع عليها الداخل . وكان الوطنيون قد تكتلوا حول الجيش العثماني ، الذي كان قليل العدد والعدة ، فاستمدوا من قلوبهم العامرة بالوطنية قوى ارتد عنها جحفل المكتسحين . اما سياسة التمليق والتفريق بين العرب والترك التي عمد اليها المحتلون فقد باءت بالفشل . وخشيت حكومة روما عاقبة الملل ، الذي استحوذ على نفوس شعبها من جراء هذا الفشل ، فلجأت الى طريقة اخرى كان لها فيها بعد التعويض . ذلك انها بعد ان قصفت ثغر بيروت الآمن بالنيران ، واطلقت قنابلها على بارجتين تركيتين حربيتين كانتا راسيتين في مرفئه ؛ احتلت بعض الجزر التركية في بحر ايجه . وهي خلال ذلك كانت تعمل على اثارة البلقان، فما ان شهرت دوله الحرب على العثمانيين الا وشعرت تركيا تحت هذا الضغط السياسي بالوهن، مما اضطرها الى عقد صلح، فيما بينها وبين ايطاليا في ١٥ تشرين الاول ١٩١٢، تعهدت فيه بان تسحب جيوشها من طرابلس؛ وان تسدي النصح الى الطرابلسيين للتفاهم مع ايطاليا .

ولكن انسحاب تركيا من طرابلس لم يبدل الموقف فيها ، بل استمر الوطنيون يجهدون في الدفاع عن وطنهم ، حتى اذا نشبت الحرب العامة الاولى كادوا يجلون ايطاليا عن الساحل الذي لم تتعداه . وقـد نظموا صفوفهم فاقاموا في كل قصبة شبه جمهورية يرجع مجموعها الى هيئة عليا مقرها في مدينـة مصراطه . واما برقة فكانت قد اصبحت مستقلة استناداً الى معاهدة عقدتها ايطاليا خلال الحرب المذكورة مع السنوسيين اعترفت فيها بامارة السيد ادريس السنوسي .

واستمر الحال في ليبيا على هذا المنوال حتى استتب الامر للفاشيست في ايطاليا ، فاعتزموا، من ثم، البت في قضيتها، وواظبوا على سوق الحملات تباعاً الى ليبيا مدة تسع سنوات متواليات الى ان اتيح لهم الاستيلاء على طرابلس سنة ١٩٢٩. وبعد عراك عنيف مدة سنتين اخريين تم لهم ايضاً الاستيلاء على برقة . وختمت فواجع القسوة،

التي تولى كبرها الجنرال غرازياني ، باعدام عمر المختار سنة ١٩٣١ ، قائد المجاهدين ببرقة . فكان لقتله رنة ألم في العالمين العربي والاسلامي . ولا غرو فالعفو عند المقدرة كان أجدر بحق شيخ كهذا تجاوز الثمانين من عمره ؛ وهو خصم شريف رفع السلاح عشرين عاماً في سبيل النضال عن استقلال وطنه .

وفي اواخر ١٩٣٨ قررت حكومة الدوتشي ضم ليبيا باسرها الى البلاد الايطالية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها، وبذلك فرضت الجنسية الايطالية فرضاً على الطرابلسيين والبرقاويين ، فاصبحوا ايطاليين رغماً عنهم . وإذ أصبح العالم في خطر من حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ تحولت ايطاليا الى تأليف القلوب فسمحت للمبعدين بالعودة الى بلادهم . اما هي فقد قدر عليها بالنتيجة الجلاء ، من جراء احتلال الحلفاء . ولعله يكون جلاء ابديا بعد ان بايع كل من اهالي طرابلس وبرقة صاحب السمو السيد محمد الادريسي في الامارة على ليبيا متحدة .

. . . . .

الادارة والاستثمار : اعلنت ايطاليا فتح ليبيا نهائياً سنة ١٩١٢، واعتبرتها مستعمرة ، فحكمتها حكماً مباشراً ؛ ثم اعلنت ضمها الى الوطن الايطالي ، وجندت اهلها وساقتهم الى الحروب ؛ ونشطت لاستثمارها اقتصادياً ، فتقدمت الاعمال التجارية في طرابلس تقدماً سريعاً ، خصوصاً مع ايطاليا ، حتى ان السلع المستوردة التي بلغت قيمتها وقتئذ اربعماية الف لير سنوياً ، كان نصفها من ايطاليا .

ونشرت صحافة روما برقية مؤرخة بـ ٢٨ شباط ١٩٣٥ صادرة عن بني غازي قاعدة ولاية برقة ، تفيد بان المارشال بالبو اعلن عفو ايطاليا عن المحكومين خلال الثورة ، وانها منحت اهل الزراعة سلفة يستعينون بها على تجديد الماشية ، بالاضافة لاعتزامها ترميم الآبار والصهاريج . واعدت مليون وخمسماية الف لير لهذه الغاية . فكان هذا التصريح بمثابة بلاغ عن انتهاء الثورة ببرقة ، واعتزام حكومة روما مباشرة سياسة زراعية فيها .

واهتمت الحكومة ايضاً بتعبيد الطرق والخطوط الحديدية ، وزيادة شبكة الاسلاك البرقية ، ومد الاسلاك الهاتفية . ورائدها الاول في ذلك تسهيل الحركات العسكرية ، فضلاً عن تسهيل الاستثمار لشعبها في ليبيا . وكان اعظم مشروع قامت به وصل حدود تونس بحدود مصر بطريق اجتازت ليبيا من الغرب الى الشرق .

وكأن حكومة الدوتشي ارادت ان تمحي الاثر السيء الذي خلفته سياسة

العنف خلال الفتح مستعبرة بما ورد في الاستعمار الفرنسي من اغلاط ، فانقلبت الى التظاهر بالحرص عـــلى شعور المسلمين ، وباشرت سياسة اسلامية دشنتها بترميم المساجد وتعميرها ، وتأسيس المدارس ، واجراء المرتبات على بعض رجال الدين . وهي الى ذلك كانت تغدق الرتب والاوسمة على الخاصة : بدأت بآل القرمنلي ، فمنحتهم الامارة. وراحت تجود على من دونهم بالقاب اخرى تتناسب مع مراتبهم حتى بلغت هذه الرتب من الكثرة بحيث لا نكاد نقرأ اسم احد منهم الا ويكون مشفوعاً بلقب . وراحت الحكومة تذيع عن مآتيها هذه ؛ فكانت تصلني جريدتان عربيتان تصدران عن طرابلس محشوتان بالثناء على الحكومة ، وبالتنوية بالايادي البيضاء التي لها على المسلمين.

هـــذا وقد شاء الدوتشي ان يكتسب فرصة المهرجان الذي اعدته حكومته لمناسبة تدشين الطريق المذكور آنفاً بين مصر وتونس (١٩٣٧) فاعلن انه حامي المسلمين . وكنت واحـــداً من الذين وجهت اليهم الدعوة الرسمية لحضور هذا المهرجان ، وذلك بواسطة القنصل العام في بيروت فاجبت معتذراً رغم الالحاح والاغراء. وهل كان بوسعي الا الاعتذار وذكريات مظالم الفاشيست في طرابلس وبرقـــة ما تزال ماثلة امام الانظار ؟

. . . . .

شكوى الطرابلسيين : لجأت ايطاليا الى سياسة الاذلال والقهر في معاملة الاهلين منذ سنة ١٩٢٢ لغاية سنة ١٩٣٢ . وجرى المارشال بالبو على سنة الجنرال غرازياني ، ولم يتورع ان يقول « اني اريد في ليبيا ايطاليين كاثوليكيين ، وايطاليين مسلمين متحدين تحت زعامـــة الامبراطورية الفاشستية ، ولا اريد ايطاليين وعرب فحسب » .

وعلى هذا الاساس حاولت حكومة الدوتشي علناً أن تستبدل بالعنف بالطابع الروماني طابع طرابلس وبرقة العربي الصافي ؛ كما انهـــا حاولت جعلها جزءاً من ايطاليا . فاغلقت المدارس العربية ، واقامت بدلا منها مدارس ايطالية . وراحت تستولي على أخصب اراضي الساحل ، واكثرها عمراناً ، وتهيؤها بالمساكن الصحية ، والوسائل الزراعية لمهاجري الطليان انفسهم . وفي شهري ايلول وتشرين الاول من عام ١٩٣٨ نقلت اليها ١٨٠٠ عائلة من جنوى ونابولي وسيراكوز ، ثم قررت في ٣ تشرين الثاني من السنة نفسها هجرة عشرين الف ايطالي . وفي بدء كانون الاول من هذه السنة أصدرت قراراً بفرض الجنسية الايطالية على ليبيا ؛ فجعلت بذلك اهل

البلاد ايطاليين سياسياً ، وخاضعـــين لانظمة وقوانين لا تتفق أحياناً مع شريعتهم وتقاليدهم. وهكذا كانت سياسة الدوتشي، من أولها إلى آخرها، سياسة احراج حملت اخواننا على الهجرة تباعاً حتى امتلأت بهم الامصار العربية . وبعد ان كان اهل طرابلس وبرقة يعدون سنة ١٩١١ حوالي ١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة اذا بعددهم يهبط حتى اصبح يناهز ٧٦٩٫٩٦٠ نسمة قبيل الحرب العالمية الثانية .

وبعد، فاذا نحن لم نعمد الى تعداد شكاوى الاهلين، فلانها لا تنحصر ضمن نطاق محدود ، بل هي تكاد تكون عامة وشاملة كل تصرف قام به المستعمر .

. . . . .

ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية: واحسرتاه على هذا البلد العربي المنكوب . فما كفاه مصابه بالايطاليين منذ سنة ١٩١١ حتى مني ، خلال الحرب العالمية الثانية ، بكوارث لو انقضت على جبل لجعلته هباء منثورا . فقد وقع هذا البلد في طريق مطامع كل من الحلفاء والمحور ، فأمسى ،لذلك، ميدان حرب ضروس دامية دامت مدة سنتين كاملتين ونيف. ولو فاز فيها أحدهما على الاخر لكفى الله المؤمنين القتال. ولكن الحرب كانت بينهما سجالا ، وكانت البلاد، من جراء ذلك ، مَواطيء اقدام الجيوش ،بين كر وفر ،ومرمى قذائف الطائرات والاساطيل،كل منها بدوره ،على التوالي.

ولم يتم النصر الاخير للبريطانيين على الالمـــان ، وتنتهي معركة ليبيا بدخول جيوش الجنرال مونتغمري طرابلس الغرب في ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣ الا وقـد امست تلك البلاد في حالة مؤسفة من البؤس والخراب .

. . . . .

ليبيا عهد الاحتلال البريطاني الموقت : خف الجيش البريطـاني ،منذ احتل هذه البلاد المنكوبة ،إلى اسعاف اهليها على قدر المستطاع بالطعام والدواء . وعين لكل منطقة ضابطاً منه يتكلم اللغة العربية عاهـــداً اليه العناية بالميرة ،وبتنشيط المزارعين لاستثمار اراضيهم ، لا سيما في الجبل الاخضر .

وبدا على الحكومة ، بالاضافة الى ذلك،اهتمام كبير بالمعارف. وكانت المدارس قد اغلقت خلال الحرب،فاعادت فتحها في عدة شهور حيث انصرفت لاعـداد المباني التي استعملت ابان الحرب لاغراض عسكرية،و لاستحضار الكتب وتحضير الاساتذة. ومنذ اواخر عـام ١٩٤٤ كانت احدى البعثات المصرية تتولى شؤون التعليم في طرابلس الغرب وبرقة .

والآن فان هيئة الأمم المتحدة قد اعتزمت البت في مصير ليبيا على ضوء تقرير اللجنة المنتدبة منها بينا إن العالم العربي قد اعلن حرصه على ان يعيش هـذا القطر الشقيق مستقلا متحداً وفقاً لاماني اهل البلاد التي اعربوا عنها .

مصر عهد الاحتلال

الحياة السياسية : كان ولاة مصر ،على ما يتمتعون به من الاستقلال في الشؤون الداخلية والخارجية ،يحكمون باسم الدولة العثمانية ،ويؤدون لها جعلاسنويا قدره ١٧٥ الف ليرة عثمانية . ولما احتلت جيوش جلالة الملكة فكتوريا وادي النيل في عهد الخديو توفيق باشا ، وجه قومندان العمارة البريطانية السير بوشام سيمور إلى سموه رسالة بتاريخ ٢٦ يوليو ١٨٨٢ ،اعلن فيها إن الغرض الوحيد من هذا التدخل العسكري هو حماية سموه من الثائرين ، وإنقاذ الشعب المصري . وظل ساسة لندن ، وعـلى رأسهم غلادستون واللورد دوفرين واللورد سالسبوري ،يرسلون تصريحات متوالية من هذا القبيل ، قصد تخـدير الاعصاب ، ومنها تصريح غلادستون في مجلس العموم في ١٠ أغسطس ١٨٨٢ حيث قال : « إن الذين يخشون أو يتوهمون دوام احتلالنـا لمصر هم ، ولا شك ، واهمون خاطئون . »

والواقع إن الافعـال لم تكن تؤيد الاقوال : فسرعان ما عملت حكومة الاحتلال على توطيدقدمها، توطيد من يتوخى الاستقرار، حاصرة كل السلطة بقائدها الاعلى . ولكنها إذ حرصت على أن يبقى طابع الحكم مصرياً ، وان تحتفظ ، إلى حين ، بسيادة السلطان أفضى الامر إلى حال من التشويش جعلت الشعب لا يعرف معها من هو المرجع المسؤول . واستمر الحال على هذا المنوال حتى صار الحكم في لندن للحزب المحافظ ، فاتيح لحكومته ان تعقد اتفاقاً بينها وبين حكومـة الباب العالي ينص على ان تنتدب كل منهما ممثلا عالياً يكون له حق الاشتراك مع الخديو في الادارة العامة . ويبقى المندوبان قائمين ،إلى جانب سموه،ريثما يتفقان على ان الامور استتبت في وادي النيل ، وحينئذ يستأنف البحث للاتفـاق على موعد انسحاب الجيوش الانكليزية . وقد استطاعت بريطانيا العظمى ، بانتزاع هـذا الاتفاق من حكومة الباب العالي ، ان تجعل لنفسها حقاً مشروعاً لوجودها في مصر، وادارة شؤونها. ثم شرع عمال الانكليز يحصرون السلطات العامة بانفسهم مستعينين ، في ذلك ،بتجريد الجيش من سلاحه،وانقاص عدده الى عشرة الاف جندي في السنوات

العشر الاولى للاحتلال . وكان عدده سنة ١٨٨٠ يبلغ ٨٩،٠٨٨ جندياً، كما انهم تولوا شؤون مصر الخارجية ، وانتزعوا تدريجاً من الدول الاعتراف بهذا الاحتلال . على ان فرنسا استمرت تساوم على هـذا الاعتراف حتى جمعت بينهما المنفعة المتبادلة سنة ١٩٠٤، واتفقتا على مناطق النفوذ في افريقية الشمالية . ومع ذلك فقد تركت انكلترا هيكل الحكم مصرياً . وظل ممثلها يلقب بقنصل انكلترا العام ، ووكيلها في مصر ؛ كما ان الموظفين الانكليز كانوا ، في البـدء ، معروفين كمديري مصالح أو مفتشين . ولم يعين منهم مستشارون في الوزارات الا بعد حين . وكان عددهم ، في اول الامر ، واحـداً او اثنين . على انه لا بد من الاشارة إلى ما كان لحكومة بريطانيا العظمى من المساعي لتجديد جهاز الحكم ، وتنفيذ بعض الاصلاحات التي نادى بها رجال الثورة العرابية . ولم تأت سنة ١٨٩٢ حتى كانت الضرائب والمحاكم الاهلية منظمة .

هذا فضلاً عن انه افسح المجال للحرية الشخصية ، وخصوصاً حرية الصحافة ، ان تعيش في مجال ارحب . وصادف ان تولى عامئذ الخديو عباس حلمي عرش مصر ، وكان ميالا لتشجيع النهضة الوطنية ، فازدهرت في ايامه ، وترعرعت بجهود مصطفى كامل باشا (١٨٩٤ – ١٩٠٨) الذي كان يحمل علمها .

وفي عام ١٩٠٧ تألفت الاحزاب السياسية الاربعة ، وهي باكورة الاحزاب المصرية ، ونشطت الصحافة للمطالبة بحقوق المصريين وبالجلاء عن مصر . وكان الانكليز يقابلون ، على عادتهم ، هذا الحماس المصري الحار بالدم البارد ، وبارسال الوعود تلو الوعود ، بعزمهم على الجلاء . ولا تزال تصريحات اللورد كرومر ، والسر الدون غورست ملء الاذان .

هذا وقد دخلت القضية المصرية ، غداة الحرب الكبرى الاولى ، في دور جديد : ذلك ان تركيا وجهت بتاريخ ١ شباط ١٩١٤ منشوراً إلى الدول كافة تعلن فيه ان وجود الجند الانكليزي في مصر يحول دون مزاولتها سلطتها التشريعية . وفي اليوم التالي اصدر الخديو عباس ، الذي كان موجوداً في الاستانة ، مذكرة يطالب فيها بريطانيا العظمى بالجلاء عن مصر ؛ فاذا بها تجيب باعلان حمايتها على القطر المصري ، وتولية السلطان حسين مكان الخديو عباس (١٨ كانون الاول ١٩١٤) ، مؤكدة ان هذه الحماية انما هي ضرورة من ضرورات الحرب ، وستنتهي بانتهائها . على أن أجل السلطان حسين كان قصيراً ، فتوفي في تشرين الاول سنة ١٩١٧ تاركاً العرش لأخيه فؤاد الاول .

هذا وما ان نادى المنادي بحق الامم المظلومة في تقرير مصيرها حتى اخذت اماني الحرية تداعب قلوب المصريين . فنشطت الاحزاب للمطالبة بحقوق الامة استناداً إلى تلك الوعود . وفي يوم توقيع الهدنة (١١ تشرين الثاني ١٩١٨) طلب سعد زغلول وزميلاه علي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي باشا مقابلة السير وينجت المعتمد البريطاني. فحدد لهم سعادته موعداً للمقابلة في ١٣ من ذلك الشهر ؛ ولكنهم لم يظفروا منه بجواب تطمئن اليه النفس ؛ بل ابلغ الوفد ان المعتمد يستنكر منهم التحدث باسم مصر . فاستصدروا توكيلاً من الامة يعزز صفتهم النيابية ؛ وهو ينص على ان الامة عهدت الى سعد وسبعة من زملائه ، ومن يضمونه اليهم ، للسعي في استقلال البلاد . ولما أبت السلطة على الوفد ان يسافر الى الخارج اخذ نشاطه يتجلى بالبرقيات التي كان يرسلها الى الدول الظافرة. وقد استقال ،على اثر ذلك، رشدي باشا رئيس الوزاره بانياً استقالته على رفض السلطة امر التصريح للوفد بالسفر . وبذلك تعذر على الانكليز ان يجدوا خلفاً له .

وكتب سعد وزملاؤه خطاباً الى عظمة سلطان مصر يحملونه تبعة ما قد ينشأ عن هذا الاصرار في منع الوفد من السفر . فقبض على الوفد وأبعد الى مالطه . وكان يوم ١٩ اذار يوماً مشهوداً اعلنت فيه مصر تأييدها للوفد الجريء .

وعلى اثر اشتداد الثورة استبدل اللورد اللمبي بالسير وينجت ، وتألفت وزارة رشدي باشا الثانية على اساس الافراج عن الوفد ، والسماح له بالسفر إلى باريس .

وما ان بلغ الوفد عاصمة فرنسا حتى تلقاه النذير باعتراف ويلسون بالحماية البريطانية على مصر، فاوصدت ابواب مؤتمر فرساي في وجهه ، وأرسلت لندن لجنة ملنر الى مصر للتحقيق في أسباب الاضطراب. ولكن المصريين قاطعوها بناء على ما ورد اليهم من الوفد . وأعلن عدلي باشا استعداده للسفر الى باريس ليكون وسيطاً بين الوفد واللورد ملنر ، وحصلت مفاوضات في لندن ؛ حتى اذا تبودلت وجهات النظر وضعت لجنة ملنر مشروعها . ولما أصرت عليه رافضة أي تحوير عاد الوفد الى باريس،وقبل عدلي باشا تأليف الوزارة لتتولى المفاوضات الرسمية ،واستقبلت مصر سعداً وزملاءه في غرة شهر نيسان ١٩٢١ استقبالا منقطع النظير .

وإذا بالوفد يختلف مع الحكومة اذ يصر على ان يرئس المفاوضة فيأبى عليه ذلك عدلي باشا،وينضم بعض الوفديين اليه .ولكن رئيس الوزارة المشار اليه، الذي سافر إلى لندن لمفاوضة كرزن ،لم يقدر له النجاح؛ فعاد واستقال في كانون الاول

سنة ١٩٢١ . ولما ضاقت السلطة ذرعاً بالوفد قبضت على سعد ثم على بعض صحبه ، ونفتهم إلى عدن . وهنا أخذت البلاد تغلي كالمرجل مسترخصة الضحايا . وكان للمرأة في هذا الجهاد موقف مرموق ، خصوصاً في ثورة ١٩١٩ .

على ان الحكومة الانكليزية ماوسعها، حيال حزم المصريين، إلا أن تلجأ للمصانعة ، فاصدرت تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ المعروف . وعلى أساسه تألفت وزارة ثروت باشا . ويقوم هذا التصريح على مبدأ اعتبار انكلترا متبوعة ، كما كانت تركيا ، ومصر تابعة لها. هذا وبينما كانت الوزارة تحتفل بهذا التصريح على اعتباره وثيقة استقلال ، وتضع الدستور ، كانت الاحكام تصدر على الوفديين ، وكان سعد ينقل من عدن الى منفاه في سيشل . ثم لما ساءت صحته نقلوه الى جبل طارق .

ولكن السلطة العسكرية رأت ، من بعد ان لا سبيل إلى تهدئة الخواطر إلا بالافراج عن الوفد . فسافر سعد إلى فيشي للاستشفاء . ولما عاد استقبل استقبالا رائعاً. وخاض الوفد معركة الانتخابات للمجلس النيابي، ففاز باغلبية تقارب الاجماع، والف الوزارة برئاسة زعيمه سعد بصفته زعيم الاغلبية .

وسافر سعد الى لندن بدعوة من حكومتها لمفاوضة السيد ماكدونالد رئيس الوزارة وقتئذ . ولكن المفاوضة لم تثمر بسبب تمسك مصر بالسودان، وتوترت العلاقات بينهما، وخصوصاً عقب اغتيال السير لي ستاك باشا في مصر مما حمل سعد أن يستقيل .

واستفتح خلفه زيور باشا عهد وزارته بحل البرلمان، واجراء انتخابات جديدة.. ولكن النصر فيها كان من نصيب الوفد .ولما اختير سعد زعيم الكثرة لرئاسة مجلس النواب عمدت الوزارة ايضاً إلى حل هذا المجلس مرة ثانية .

ورؤي، إذ ذاك، أن تأتلف الاحزاب المصرية للمطالبة باعادة الحياة الدستورية، واذعنت الحكومة لمطلبها،فاعيدت الانتخابات ،وبقي للوفدفيها الاغلبية البرلمانية . وتألفت الوزارة الائتلافية الاولى برئاسة عدلي يكن باشا . وتولى سعد رئاسة مجلس النواب . ثم تألفت الوزارة الائتلافية الثانية برئاسة ثروت باشا . ودارت بينه وبين الحكومة محادثات انتهت بمشروع « ثروت –تشمبرلن » . وخلال ذلك توفي سعد مبكيا عليه ، وخلفه على رئاسة الوفد المصري مصطفى النحاس باشا . وكانت باكورة اعمال رفعته ان دعا الوفد الى الاجتماع لابداء رأيه في هذا المشروع، فقرر رفضه. ولما استقال ثروت باشا عهد الى النحاس باشا بتأليف الوزارة، فألفها ائتلافية . ولكن

الائتلاف تصدع فاقيلت الوزارة بسببه . والف زعيم الاحرار الدستوريين محمد محمود باشا الوزارة من زملائه الذين استقالوا معه من الوزارة السالفة . واستفتح حكمه بحل البرلمان بما فيه مجلس الشيوخ . ولما أجريت الانتخابات كان على رأس الوزارة عدلي يكن باشا فحاز الوفد فيها ايضاً كثرة ساحقة . فعهد الى النحاس باشا بتأليف الوزارة للمرة الثانية . وقد شخص الرئيس مع بعض زملائه الى لندن لاستكمال محادثات هندرسن .ولكن مسألة السودان كانت سبباً لوقفها ايضا.

وعلى اثر ذلك قامت وزارة صدقي باشا فألغت (٢٢ - ١١ - ١٩٣٠) الدستور وقانون الانتخاب، وابدلتهما بدستور وقانون جديدين ؛ وقاطع الوفد الانتخابات النيابية . ولما تولى توفيق نسيم باشا الحكم سعى الوفد لاعادة الدستور فكلل مسعاه بالنجاح . ثم قامت وزارة علي ماهر باشا كوزارة انتقال لاجراء الانتخابات ، وتكونت خلال ذلك الجبهة الوطنية برئاسة النحاس باشا . وتألف الوفد الرسمي لاجراء المفاوضات مع ممثلي الحكومة البريطانية في قصر الزعفران . وفي مايس ١٩٣٦ ظهرت نتيجة الانتخابات، فاذا بالوفد المصري ينجح فيها باغلبية ساحقة ، وإذا بالنحاس باشا يتولى الوزارة للمرة الثالثة .

وفي عهد هذه الوزارة انتهت المحادثات بوضع المعاهدة ، وذلك في قصر الزعفران وانطونيادس. وسافر الوفد الرسمي الى لندن لتوقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا. وقد تم توقيعها في ٢٣ آب ١٩٣٦ . فكانت هذه المعاهدة بمثابة الحجر الاساسي لاستقلال وادي النيل ؛ وهي تعتبر بحق ثمرة جهاد المصريين جميعاً .

. . . . .

الاستثمار والعمران : سأل سائل مجلة المقتطف عن رأيها في السياسة الانكليزية بمصر فاجابت في عدد آب ١٩٢١ بقولها : « لا يظهر حقيقة ما تمّ في مصر في الاربعين سنة الماضية الا اذا قوبلت بغيرها من البلدان التي تصح ان تقابل بها : فقد زرنا هذا القطر في صيف سنة ١٨٨٠ ، ولما تشرفنا بمقابلة الخديو توفيق سألنا عن الوسائل التي رقت سورية في العلوم والفنون والصناعة والتجارة، وجعلتها أرقى من مصر، وبعد ان اوردت مجلة المقتطف امثلة على ما بين القطرين انتهت إلى القول، ولو لم يحتل الانكليز القطر المصري بل بقي سائراً سيره الطبيعي ، كما كان سائراً حينئذ، فليس في كل نواميس الكون ، وقوانين العقل ما يجعلنا نحكم انه كان يتقدم على سورية ، ويتركها وراءه بمراحل كثيرة . »

وفي الواقع فقد كان لنزعة السياسة الانكليزية يد في توجيه نهضة مصر العمرانية والاقتصادية وحمايتها . بيد انه لا ينكر ما لطبيعة وادي النيل ، ولحكمة الاسرة العلوية ، بالاضافة الى التقدم العالمي منذ القرن التاسع عشر ، من الفضل الاكبر على هذه النهضة . وهذا موجز عن نهضة مصر في تلك الحقبة .

١ **التطور الزراعي** : لما اينعت العلوم الزراعية الحديثة ، في اواخر القرن التاسع عشر ، اتيح لمصر الانتفاع بها ، وبما رافقها من اختراعات . وقد قامت النهضة الزراعية في مصر على العناصر التالية :

أ – المؤسسات الزراعية . ففي سنة ١٨٨٩ انشئت مدرسة الزراعة في الجيزة ، وما زالت تتقدم حتى اصبحت اليوم من اهم كليات الجامعة . وفي سنة ١٨٩٨ تألفت الجمعية الزراعية الخديوية . وفي سنة ١٩٠٩ انشئت مصلحة الزراعة ، وظلت على ازدهارها حتى اصبحت وزارة سنة ١٩١٥ .

ب – تحسن وسائل الري . ان المشروعات المهمة ، وفي مقدمتها الخزانات العديدة ، جعلت جملة المساحة المزروعة تدرك نحو ثمانية ملايين ونصف من الافدنة ، بعد ان كانت قبل نصف قرن ، من ذلك ، أقل من خمسة ملايين فدان . والملحوظ ان التقدم الزراعي في مصر ليس مصدره زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، بل هو نتيجة تحوّل في اساليب ارواء جزء كبير من هذه الاراضي ، وريها بالطريقة الحديثة ، بدلا من الاحواض . اما من حيث مساحة الاراضي المزروعة فيلاحظ انه منذ سنة ١٩٣٠ لم تحصل زيادة في هذه الناحية : ذلك ان مساحة الاراضي المزروعة سنة ١٩٣٠ – ١٩٣١ كانت تقدر بـ٥،٤٦٦،٩٩٥ فداناً للافراد ، و ١٨،٥٨٩ فداناً للمنافع العامة ، فاصبحت تقدر سنة ١٩٣٩ – ١٩٤٠ بـ ٥،٣٢١،٩٩٧ فداناً للافراد ، و ٣٣،٤٨٧ للمنافع العامة .

ج – تقدم العلوم الزراعية . ولا ادل على ما ادته هذه العلوم من خدمات من التنويه بنسبة الانتاج : ففي سنة ١٨٩٢ كانت مساحة الاراضي المزروعة قطناً تناهز نحواً من مليون فدان ، بمحصولها قرابة خمسة ملايين قنطار ، فاصبحت هذه المساحة ، بعد سنين ، نحو مليون وثلاثة ارباع المليون من الافدنة ، ومحصولها تسعة ملايين قنطار تقريباً .

وكانت مساحة الاراضي المزروعة قمحاً سنة ١٩٠٢ مليون وربع المليون فدان ومحصولها سبعة ملايين اردب ، فاصبحت نحو مليون ونصف من الافدنة ، وتغل تسعة ملايين اردب تقريباً.

د — تحسن الشؤون الاجتماعية في الريف . أنشأت الحكومة لحماية الفلاح وزارة للشؤون الاجتماعية ، فضلا عن مشاريع اخرى في جملتها (١) قانون الخمسة افدنة الذي يمنع نزع ملكية الفلاح الصغير (٢) بنك التسليف الزراعي (٣) الجمعيات التعاونية (٤) الاعمال الصحية التي تتولاها مصلحة الشؤون القروية بوزارة الصحة (٥) اتساع طرق المواصلات . وفعلا فقد امتدت وسائل النقل امتداداً عظيما في البر والبحر والانهر . كما ان الخطوط الحديدية ، التي كانت سنة ١٨٩٢ لا تزيد على بضع مئات من الكيلومترات ، اصبحت اكثر من ٣٥٠٠ كيلو متر .

التطور الصناعي : حتى سنة ١٩٣٠ كادت تكون الزراعة في مصر مورد هذا القطر الوحيد . على ان ظروفاً داخلية وخارجية قد عرضت خلال القرن الحاضر ، حملت رجالات البلاد على التفكير في موارد جديدة ، وأهم هذه الظروف هي :

(١) اختلال التبادل بسبب الحربين العالميتين (٢) حاجة الاسواق الى المنتجات الاجنبية خلال الحربين (٣) تعذر استيعاب الايدي العاملة في الاعمال الزراعية (٤) ازدياد حاجات طبقات الامة كافة من جراء التقدم المدني (٥) هبوط اسعار المحاصيل الزراعية (٦) تدفق الاموال على مصر خلال الحربين العالميتين ، وفي الاعوام التي تلتهما ، والحاجة الملحة لاستخدام هذه الاموال (٧) ازدياد عبء الضرائب في اوروبا ، وتوجه اصحاب الاموال هناك للتحري عن وسائل استخدامها في البلاد الاخرى .

لكل ذلك فان الصناعة قد وجدت لها في وادي النيل منشطات أدت إلى قيام صناعات كثيرة . ولكن ما كادت الحرب العامة الاولى تنتهي إلا وكانت السلع الاجنبية تغرق اسواق مصر ، مما قضى على معظم تلك الصناعات في المهد . حتى إذا تم الاصلاح الجركي سنة ١٩٣٠ ، وكفل قسطاً من الحماية للانتاج الوطني ، عمل على استئناف صناعات مختلفة ، اهمها صناعات التبغ والغزل والنسيج ، والصناعات الزراعية والكيمائية ، والسكر والزيتون . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ففسحت المجال لقيام شركات لشتى انواع الصناعات الخفيفة ، وكادت مصر تبلغ بها تمام استقلالها الاقتصادي . وحسبنا تبياناً لما تحتله الصناعة في مصر الآن من المكانة أن نذكر ان البلاد تنتج اليوم من الصناعات ما لا يقل ثمنه عن قيمة محصول القطن المصري ، كما ان عدد العمال المصريين في الصناعات المختلفة لا يقل عن المليون عامل ، تبلغ مرتباتهم الشهرية نحو ستة ملايين جنيه ونيف . وتقدر رؤوس الاموال المستثمرة الان في الصناعة ١٣٠ مليوناً من الجنيهات ، بما فيها صناعة النقل .

ويساعد مصر على النجاح في برنامجها الصناعي وفرة الثروة فيها ، ووفرة المواد الخام . على ان المصريين يشكون من بقـــاء زمام الصناعات المصرية في ايدي الاجانب ؛ وذلك لان كثيراً من المصانع الكبرى مثل مصانع السكر ، والاسمنت وتقطير البترول ، والكحول والصودا ، والملح والصابون ودباغة الجلود والورق ، هي ملك لهؤلاء الاجانب .

ولكن المرحوم طلعت حرب باشا استطاع ان يقف بمؤسساته ، في وجه الاجانب وقفة الرجل الوطني المخلص ، فاضفى على المصريين حماساً مشكوراً ينجه شطر ارادة ثابتة في استلام مقدرات البلاد الاقتصادية . وحسبنا أن نذكر أن قيمة منتوجات مصر القطنية التي كانت لا تتجاوز ٣،٩٦٤،٠٠٠ ج. م. سنة ١٩٣٨ أدركت ٢٤،٢٦١،١٠٠ ج.م سنة ١٩٤٥ . وهو تقدم صناعي بارز ترجع اسبابه الفعالة إلى نشوب الحرب العالمية الثانية .

٣ ـ *التطور التجاري* : يصح اعتبار التجارة بمثابـــة ميزان لاقتصاديات البلاد ؛ فهي تروج وتبور تبعاً لحالة الزراعة والصناعة ، ووفقاً لحالة البلاد المالية والاجتماعية ايضاً . ولعل أظهر وقت لرواج التجارة بمصر قد حدث في السنوات التي خلفت الحرب الكبرى الاولى إذ تفاقمت نسبة الصادر والوارد حتى بلغت نحو سبعة أضعاف ما كانت عليه قبل عام ١٨٨٩ . فبلغت قيمة الصادرات سنة ١٩١٩ ٧٥،٨٨٨،٣٢١ جنيهاً ، والواردات ٤٧،٤٠٩،٧١٧ جنيهاً . على ان هناك ميزاناً آخر لتقدير نسبة التطور الاقتصادي ، وهو دخل الخزينة ، وخصوصاً ما كان منـــه خاصاً بالجمارك : فقد بلغ الدخل في آخر حكم الخديو توفيق سنة ١٨٩١ نيفاً وعشرة ملايين ونصف المليون جنيه ، حصة الجمارك منها ١،٦٣٧،٥٢٩ . ثم ظل هذا الدخل يربو ويتزايد حتى ادرك في سنة ١٩١٢ نيفاً وسبعة عشر مليوناً ونصف المليون ؛ نصيب الجمارك منها ٣،٨٣٣،٧٥٧ جنيهاً . وكانت سنة ١٩٢٠ أخصب سنة على الخزينة ، إذ أدرك موردها في تلك السنة ستة واربعين مليوناً ونصف المليون تقريباً ، دخل الجمارك منها احد عشر مليوناً من الجنيهات . ثم هبط دخل الخزينة من جراء استقرار الاحوال المالية تدريجاً ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ ، وهي السنة التي الغيت فيها الحماية ، كان هذا الدخل قد هبط إلى سبعة وثلاثين مليون جنيه ، متأثراً بالازمة العالميـة الطارئة . على ان دخل الميزانية قد عاد لاستئناف صعوده بعد الحرب العالمية الثانية على نسبة تفوق كثيراً هذا المقدار .

٤ — **تطور المعارف** — توخى محمد علي باشا انشاء دولته الفتية على قواعد مكينة تقوم على العلوم والفنون العصرية. ثم شاء الخديوي اسماعيل ان تزدان مملكته بالحضارة وتحفل بالعرفان . فكانت ارادة كل من هذين المؤسسين العظيمين مصدر يقظة قومية واسعة النطاق . ولكن مصلحة الاحتلال لم تكن لتتناسق مع اماني قوم يريدون أن يؤسسوا كياناً دولياً ، وعرشاً وطنياً منيعاً . فبادر الانكليز إلى اتخاذ الحيطة. وكما عمدوا إلى تجريد الجيش الوطني، وانقاص عدده، كذلك عمدوا، في حقل المعارف، إلى تجريد ثقافي ، هذه أجلى مظاهره : (١) تعطيل مدارس الحكومة الحربية والفنية (٢) اهمال التعليم الابتدائي والثانوي (٣) ابطال المجانية في التعليم (٤) اهمال اللغة العربية ، والعناية بدلاً منها بالانكليزية .

هذا من الناحية السلبية ؛ أما من الناحية الايجابية فقد كانت هناك خطة أخرى ترمي إلى (١) زيادة المدارس الاجنبية وتشجيعها ، وفي طليعتها المدارس الانكلوسكسونية ، (٢) تنشيط الارساليات الدينية ، ومساعدتها في نشر مدارسها (٣) رواج الصحف على اختلاف السنتها ولغاتها بقصد استخدامها للدعاية والنشر.

اجل . وكثيراً ما جاهر اللورد كرومر بان مهمة الحكومة ليست ترقية التعليم، ولا رفع مستوى العلم ؛ ولكنها تنحصر في اعداد الموظفين الذين تحتاجهم الحكومة في ادارة شؤونها .

غير أن التقدم المالي الذي أصاب وادي النيل، خلال الاحتلال، لم يعد ليسمح لاية سلطة أن تشيح بوجهها عن تيار النهضة والقومية ، كما انه لم يعد يمكنها الوقوف في وجه تيار الثقافة . فما أن قيض لمصر وزير للمعارف كفوء سنة ١٩٠٨ ، هو سعد زغلول باشا ، حتى نحى بالتعليم منحى جديداً : فاعاد اللغة العربية إلى سابق مكانتها، وجعلها لغة التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية ؛ وانشأ مدرسة لتخريج القضاة الشرعيين ، كما أعاد للبعثات بعض شأنها. ولما عاد طلابها من اوروبا كانوا من أهم العناصر لرفع قواعد النهضة العلمية . وفي سنة ١٩٠٩ تألفت مجالس المديريات ، وأخذت تتنافس في نشر التعليم ، وانشاء المدارس الاولية والصناعية ، ومدارس المعلمين والمعلمات . هذا فضلاً عن مدارس خاصة كثيرة تولتها جمعيات خيرية وافراد . ثم توجت هذه الحركة المباركة بانشاء كلية كانت نواة للجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ . وكانت تلك اليقظة العامة مدعاة للحرص على أن لا يبقى الازهر جامداً . ومنذ اصيل القرن الفائت انصرفت العناية لاصلاحه : فالفت الحكومة مجلساً لادارته

(١٣١٣ هـ = ١٨٩٤) . وسرعان ما قرر هـــذا المجلس أن يضاف لعلوم الازهر الدينية واللسانية مبادىء العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية والادبية . وكان الفضل في هذا التجدد للامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية . بيد ان الازهر لم يلبث ان عاد لقديمه بخروج الشيخ محمد عبده من مجلس ادارته ، ثم بوفاتـــه سنة ١٩٠٥ . وظل الازهر يتخبط في مناهجه حتى صـــدور قانون سنة ١٩٣٦ الذي وضعه الشيخ محمد مصطفى المراغي عقب تنصيبه شيخاً للازهر .

على ان سياسة دولة الاحتلال ، في صعيد المعارف ، ظلت ، مع ذلك ، صامدة على حالها غير متأثرة بالرأي العام . ومن جراء نفوذها على الحكومات المصرية فقد بقي عدد المدارس الرسمية ،وعدد تلاميذ هذه المدارس ،قليلين جداً .ومثلها مدارس مجالس المديريات ، وذلك بالنسبة للامصار الاخرى .

واستمرت الامية منتشرة في وادي النيل انتشاراً فادحاً إلى حد أن عـــدد المتعلمين فيـــه كان ، بمقتضى احصاء سنة ١٩١٧ ، بنسبة ١٣٦ في الالف . وعدد المتعلمات بنسبة ٢١ في الالف فحسب . على انـــه يلاحظ ان مدارس الحكومة ومجالس المديريات تضاعف عددها ، وتضاعف عددطلابها ،مسايرة للنهضة القومية،بعد الحرب العالمية الاولى ، وان الامية قد ضعفت . ولكن هذه الزيادات في عـــدد المدارس والطلاب ظلت في الواقع غير كافية ، فضلاً عن انها انحصرت ، على الاكثر ، في التعليم الاولي ، وبعض الصناعي .

وقد شرعت مصر تتحفز للعناية بالثقافة العالية خلال عهد الملك فؤاد الاول ، كما ان جلالته عني ، عناية جدية ، باصلاح الازهر . وفي عهده وضع قانونه الجديد الذي جعل منه جامعة اسلامية ، كما وضع تحت رعاية جلالته معهد فؤاد الاول للموسيقى العربية . ورأى جلالته حاجة اللغة العربية إلى انشاء مجمع ينظم شؤونهـــا ، ويحتفظ بتراثها فأسس مجمع فؤاد الاول للغة العربية . هـــذا فضلاً عن اهتمامه بالبعثات العلمية ، ورعايته لمشروع الجامعة المصرية في القاهرة . وقد عني نجله الكريم جلالة الملك فاروق الاول بهذه الناحية ايضاً عناية فائقة ، وكان من آثاره الطيبة جامعة فاروق التي انشئت في الاسكندرية .

. . . . .

شكوى المصريين : تعالت سياسة بريطانيا العظمى في وادي النيل عن الاساليب الاستعمارية التي مارستها فرنسا وايطاليا في سائر افريقيـة . فلم تتعرض

للاملاك والاوقاف تستملكها للتوسيع على المهاجرين من بلادها ، ولم تسلخ ثوب الحكم الاهلي لتلبسه ابناءها مباشرة ؛ بل توخت من هذا الاحتلال اعلى من الصغائر والمظاهر . توخت المنفعة السياسية والحربية والاقتصادية .

وقابل المصريون هذا الاحتلال ، بالجفاء ، وظلوا يظهرون عطفهم على السلطنة العثمانية : فلما أعلن البريطانيون ، عقب الاحتلال ، فصل السودان عن مصر ، استقالت وزارة شريف باشا احتجاجاً على هذا التصرف دون اذن البـاب العالي. ثم لما اتفق الباب العالي والفورن اوفس أن يوفد كل منهما مندوباً يشترك مع الخديو في ادارة مصر ، احتفل المصريون بمختار باشا ممثـل استامبول ، بينما قابلوا ببرودة ظاهرة ممثل لندن . ثم انقلبوا يطالبون انكلترا بالجلاء ، وهي لا تقطع لهم أمـلاً ؛ ولكنها على قدر ما تقابلهم بالسماحة تظهر ضيقاً في الصدر ان تعدت حريتهم حدود الكلام . وكم كانت عنيفة تصرفاتها في حادثتي دنشواي والسردار ?

على ان الانكليز ، وان احتفظوا للمصريين بجهاز الحكم ، إلا انهم جعلوا مقوده في قبضة ايديهم : فالجيش المصري الذي كان عدده ، ايام الخديو اسماعيل ، يناهز التسعين الفاً هبط ، اثناء العشر سنوات الاولى للاحتلال إلى نحو عشرة آلاف . هذا فضلاً عن أن وزراء مصر أصبحوا ، عهد الاحتلال ، يتلقون الاوامر من المستشار ؛ كما ان المديرين في الاقاليم ، ومديري المصالح ، يخضعون للمفتش الانكليزي . أما الشكاوى والمظالم فترفع الى الوكالة البريطانية . ولما كان البريطانيون يجنحون للتنظيم فانهم حاولوا اجراء ذلك التنظيم على طريقة تتلاءم مع الاستثمار لمصلحتهم : وهكذا لما بدا لهم الغاء الامتيازات الاجنبية تراءى لهم ان تحل محلها محاكم انكليزية ، ولما اعتزموا انشاء مجلس تشريعي مزود بحق وضع القوانين ، فكروا في ان تكون نصف مقاعده مخصصة للاجانب ، على ان تكون كثرتهم من الانكليز .

هذا الى أنهم ظـلوا حماة الامتيازات الاجنبية . وليس مرد ذلك إلى أنهم كانوا حريصين على اجتناب الاصطدام بالدول الاخرى فحسب ، بل حرصاً على ما كان لرعاياهم من المنافع في بقاء هذه الامتيازات ، وخاصة المحاكم المختلطة . ومثلما كانت سياسة دولة الاحتلال قائمة على أساس وجوب خضوع المصري للاجنبي على وجـه عام ، وللانكليزي على وجه خاص ، كذلك كانت هذه السياسة قائمة على قاعـدة إيثار من كانوا من أصل أجنبي في الوظائف على غيرهم ، وحتى تفضيل الترك دوماً على المصريين . وعلى هذا المبدأ رأينا الوزارات ، حتى عام ١٩٠٦ ، تؤلف من غير

المصريين باستثناء الوزير القبطي .

وتحت نفوذ هذه السياسة ، اعتزّ الاجانب في وادي النيل ، اعتزازاً لم يدرك مثله احد آخر في مصر . وبتأثير هذه السياسة اغتنى الاجانب في وادي النيل وقبضوا على مرافق الثروة ، إلى حد ان متوسط الملكية الفردية بينهم بلغت ٧٧،٥٣ فداناً ، بينما ان متوسط الملكية الفردية بين المالكين المصريين لا يتجاوز ١،٩٣ . أي أن المالكين الاجانب الذين كان عددهم ٥٣٧١ شخصاً يملكون من الاراضي الزراعية في مصر ماساحته ٤٠٨،٦٨٣ فداناً . هذا فضلاً عما ادركوه من النجاح في صعيد التجارة .

ويجمل القول ان شكاوى المصريين من المحتلين لا تقتصر على نكولهم بالعهود التي قطعوها فقط ، بل هي تشمل بالدرجـــة الاولى تهديم كيان مصر الدولي ، ومحاولتهم تربية أهل وادي النيل تربية من شأنها أن تلقيهم في مستوى القاصرين ، وخصوصاً في الناحية الثقافية .

واخيراً فان المصريين يظهرون الشكوى المرة من المساعي التي قامت بها لندن في السودان لخلق كتلة فيه تتبنّى فكرتها التي ترمي الى فصل ذلك الجزء العزيز عن مصر . وهذا ما أفضى إلى أن المفاوضات ، التي استؤنفت منذ سنة ١٩٤٧ بين لندن والقاهرة ، من أجل تعديل معاهدة ١٩٣٦ ، بقيت دون جدوى حتى الآن .

سواحل جزيرة العرب

بعد سقوط مدينـــة هرمز سنة ١٦٢٢ م في قبضة الانكليز اصبحت السطوة البحرية في الخليج وما يليه موزعة ، مدة اجيال ثلاثة ، بين كل من الهولنديين والانكليز والبرتغاليين وعرب عُمان ، وأما العثمانيون والفرس فلم يبق لهم شيء منها . وقـد حاول البرتغاليون ، على اثر ضياع هرمز ، تثبيت اقدامهم في عُمان ، فادركوا هذه الامنية ، واحتفظوا بها في مدة عشرين سنة تقريباً ، وانصرفوا لتحصين مسقط . وكانت هي والشحر من ممتلكاتهم . وفي الوقت نفسه تهافتوا على مزاحمة الهولنديين والانكليز مزاحمة اقتصادية عنيفة في البصرة . ولكن نجمهم كان قـد أفل ، فقضت السلطة البرتغالية العنيفة نحبها في البحر الهندي وما يليه ، غير مأسوف عليها ، تحت ضغط حملات العرب .

وكانت فرنسا قد اطـّلت على المحيط الهندي ، واعتزمت منافسة انكلترا فيه ، ولكن البريطانيين اغلقوا في وجهها منافذ التجارة إلى الشرق منذ استيلائهم على

ناصية خط رأس الرجاء الصالح. ولذلك تحول الفرنسيون الى مصر يحاولون شق طريق لهم إلى المحيط الهندي البعيد. على ان الانكليز لم يتركوهم، بل انتصبوا هناك في وجههم ايضاً، وكان دخول نابليون الاول مصر واخراجه منها مظهراً من ذلك العراك الشديد بين فرنسا وبريطانيا العظمى.

واستولت بريطانيا العظمى، توثيقاً لمركزها في طريق الهند، على باب المندب وعدن، وعملت على بسط حمايتها على السلطنات والامارات التي تطوق جزيرة العرب.

وكانت مشاغل الامبراطورية العثمانية الداخلية والخارجية قد اتاحت لهذه الامارات العربية التمتع باستقلالها منذ القرن السادس عشر. بيد ان تركيا لم تكد تشعر بان الخطر الانكليزي أخذ يحيق بهذه الحكومات حتى عادت لاستخضاعها ثانية، خصوصاً وان سياستها كانت قد اتجهت، منذ عهد السلطان محمود الثاني، نحو توثيق الروابط بين اطراف المملكة وبين العاصمة. وقد باشر هذا المشروع مدحت باشا خلال ولايته على بغداد في اواخر القرن التاسع عشر مدفوعاً اليه، بالاضافة للاسباب المذكورة، بما وقع بين الاسرة السعودية، في نجد، من الانقسام، وبما حدث في بلاد البحرين من الثورات الدامية. هذا إلى أن الشيخ عبدالله بن صباح، صاحب الكويت، كان يحبذ الاحتفاظ بالعلاقات الحسنة بينه وبين الباب العالي. فاحتل مدحت باشا الاحساء وجعلها سنجقاً تابعاً للبصرة منذ سنة ١٨٧١، ونصب شيخ الكويت قائمقاماً على بلاده؛ كما أقام نافذ باشا متصرفاً على الاحساء قاعدة نجد، وربط هذه المناطق بالبصرة.

والواقع اننا إذا استثنينا الاحساء، التي استقام فيها الحكم التركي نافذاً حتى عام ١٩٠٠، نجد ان السلطة التي كانت للباب العالي على هذه المناطق قد ظلت اسمية. ثم ان الكوارث التي غمرت تركيا من بعد اتاحت لبريطانيا العظمى أن تخلفها في جزيرة العرب تدريجياً، وان تبسط نفوذها عليها على الوجه الذي سنبينه فيما يلي.

أ — المستعمرات الانكليزية والبلاد المحمية

١ — مستعمرة عدن — منذ غرة نيسان ١٩٣٨ أصبحت مدينة عدن وجوارها من ممتلكات التاج البريطاني، بعد ان كانت خاضعة لحكومة الهند، وسنت لها قوانين جديدة.

٢ — باب المندب — وهي امارة جنوب اليمن.

٣ — مشيخة قطر — وهي شبه جزيرة في خليج فارس.

٤ – مشيخة دبي – وهي على ساحل الخليج . وقد حدثت حركة اصلاحيـة في هذه الامارة سنة ١٩٣٩ ، على اثر حصول الكويت على مجلس تشريعي ، ارغم فيها الامير سعيدبن مكتوم على تأسيس مجلس تشريعي .غير انه لم يلبث أن احتال على اعضاء المجلس وبعض انصار الحركة وقتلهم . وكانت بعدئذ ثورة قضت على حياته ، فخلفه في المشيخة ابن عمه الشيخ محمد مانع قائد الثورة .

٥ – امارة جزيرة البحرين – كانت ترتبط ببريطانيا العظمى بمعاهدة حماية ، ثم تحولت الحماية إلى حـــكم مباشر . ولكن حكومة ايران تأبى الاعتراف بحقوق البريطانيين في هذه الجزيرة ، وقد ابلغت امين سر عصبة الامم في كانون الثاني سنة ١٩٣٨ انها اسلمت مذكرة لسفير بريطانيا في طهران تنوه فيها بان السلطات البريطانية اقترحت اعمالاً في البحرين مناقضة لحقوق ايران. وقد بدرت قبيل الحرب الاخيرة ١٩٣٩ – ١٩٤٥ بوادر تشير إلى تنبه هذه البلاد لحقوقهم . ذلك ان الانباء روت بتاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٩ انه على أثر المظاهرة التي فرقتها السلطة بالقوة تقدم الاهلون بمطاليب في طليعتها عزل مستشار حاكم البحرين الانكليزي ، وتأسيس مجلس تشريعي على غرار مجلس الكويت ، وتنحية ناظر المعارف ، وعدم توظيف الاجانب في شركة النفط ، والسماح للعمال العرب ، من أية جهة كانوا ، بالاشتغال في الشركة .

– ب – الحكومات المحمية :

١ – محمية عدن – وتشمل أ – سلطنة لحج ب – مشيخة الضالع ج – سلطنة يافع العليا د – سلطنة يافع السفلى هـ – سلطنة الصبيحة و – سلطنة الفضلى . ز – سلطنة العوالق ح – سلطنة الحواشب ط – سلطنة الراحدي ي – مشيخة القطيبي .

هذا وفي نيسان وايار من عام ١٩٣٨ ساد الاضطراب في الاراضي التابعة لعدن الواقعة في جنوب اليمن فضربت الطائرات الانكليزية قرى ثلاث عشرة قبيلة كانت قد ساهمت في هذه الحركة التحريرية .

٢ – سلطنة حضرموت – وهي سلطنتان الاولى قعيطية ، والثانية كثيرية . وهما تشملان الشحر والمكلا .هذا وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٨ صرحت انكلترا ، رداً على اقوال الصحف الايطالية ، بان حضرموت لا تفتأ خاضعة لها لانهـا جزء من اراضي عدن . ولما ذرّ قرن الثورة في شهر آذار من ذلك العام ، في تلك البلاد ، بادر

الجيش الانكليزي لاحتلال قسم من اراضيها ، ولانشاء قاعدة جوية له في تاريم .

٣ – سلطنة جزيرة سقطرة وبلاد المهرة – وهي واقعة بين ظفار، شرقاً ، وحضرموت غرباً .

٤ – سلطنة مسقط وعمان – وتتبعها ثلاث مقاطعات أ – امارة الخليلي . ب – امارة جعلان جـ – أمارة ظفار. وقد دخلت هذه السلطنة في الحماية البريطانية بمقتضى اتفاق سنة ١٨٩١ م. هذا وقد جرى تعديل شروط هذا الاتفاق بعد نهاية اجلها في ١٥ شباط ١٩٣٩ . وجددت بمعاهدة أخرى تركت الحرية لحكومة مسقط في فرض الضرائب ، وجبايتها من الوطنيين والاجانب .

٥ – امارات ساحل الخليج الفارسي - وهي مشيخات قبائلية ذات نظام اقطاعي .

٦ – امارة الكويت – دخلت في نطاق الحكومات المحمية بموجب اتفاق سنة ١٨٩٨ . وهي ، على ضيق مساحتها ، وقلة سكانها ، ذات مركز سياسي وتجاري هام في شط جزيرة العرب الجنوبي . وكانت حكومة الامبراطور غليوم ترنو اليها ، فقررت أن ينتهي فيها خط برلين – بغداد . وقد تمخضت هذه الامارة قبيل الحرب العالمية الثانية ببوادر تشير إلى وعي قومي اتخذ ، في اول الامر ، الناحية الدستورية مظهراً له. ثم ما لبث ان انقلب إلى فكرة وحدة مع العراق . ولعل الاتفاق الذي حصل بين الكويت وبين العراق في شهر شباط سنة ١٩٣٨ لتوحيد مناهج التعليم كان مصدر هذه الحركة . وتفصيل ذلك ان الكويتين نشطوا إلى المطالبة بمجلس تشريعي يمثلهم ، فادركوا مطلبهم في صيف ١٩٣٨ ، على ان يتولى رئيسه السلطة التنفيذية أيضاً. واذا بهم ينادون بسقوط اميرهم الشيخ احمد الجابر الصباح ، ويبرقون إلى العراق بطلب الالتحاق به . وقد جاء في انباء الوكالة العربية (اذار سنة ١٩٣٩) ان حوادث الكويت اتخذت شكلاً خطيراً على اثر القرار الذي اتخذه المجلس الاستشاري (كذا) بضم الكويت إلى المملكة العراقية. هذا وقد اصدر الامير قراراً بحل المجلس واعتقال اعضائه بتهمة الخيانة العظمى . وعلى اثر قمع الاضطرابات التي حدثت ، اجتمع مجلس الشورى لدراسة عدة مشاريع هامة ، وقرر توسيع ميناء الكويت ، وانشاء مستشفى وطني كبير ، وملجأ للفقراء ، وثلاث مدارس : اثنتين منها للذكور ، وواحدة للاناث .

هذا وبواسطة هذه الاتفاقات والمعاهدات التي عقدتها بريطانيا العظمى في جنوب جزيرة العرب ، ثم بمعاهدة القطيف التي عقدتها سنة ١٩١٥ مع نجد ، وباتفاق الملك

حسين والسر مكماهون سنة ١٩١٦ انبسط النفوذ الانكليزي على جزيرة العرب ، حتى إذا تقلص ظل السلطنة العثمانية لم يبق فيها ، تجاه هذا النفوذ ، أي منازع آخر.

غير أن النزعات الاستقلالية التي اخذت تبدو في تلك البلاد المحمية قبيل الحرب العالمية الثانية حملت بريطانيا العظمى على التفكير في المصير ؛ وكان في جملة ما خدرت به الاعصاب الاعراب عن نيتها في اقامة اتحاد بين تلك البلاد ، المترامية على جوانب البحر ، يؤمن لها امانيها القومية . ولكنا لم نعد نسمع أي صدى لهذه الفكرة بعد ان أدركت لندن ساحل السلامة في تلك الحرب .

٧ — سلطنة زنجبار — لما استفحل شأن دولة البرتغال في القرن السادس عشر في البحر الهندي ، وهددت جزيرة زنجبار استنجد اهلها بسلطان مسقط ، فانجدهم باسطول كبير تمكن من ايقاع الهزيمة بالبرتغاليين . ومنذ ذلك الحين اصبحت زنجبار تابعة لاسرة « البوسعيديين » اصحاب مسقط ؛ ولا يزال يقوم على عرشها سلطان ينحدر من هذه الاسرة . وقد اشتركت ، بعد ذلك ، مع مسقط في المصير ، فدخلت في حماية التاج البريطاني سنة ١٨٩٠ .

وهناك امصار أخرى تتكلم لغة القرآن شملها الاستعمار على اختلاف صوره . واهمها السودان المصري الذي تحاول بريطانيا ان تفصله عن دولة وادي النيل ، والسودان الفرنسي ، والصحراء الكبرى ، واواسط افريقية ، وسواحل الحبشة والصومال ، نقتصر على الاشارة اليها ، مع التنويه بانه يقدر عدد الناطقين باللغة العربية في آسية بـ ٢٥ مليوناً ، وفي افريقية بـ ٤٥ مليوناً .

على ان هناك امارات ومشيخات أخرى عربية كانت مستقلة قديماً ، ثم دخلت في حوزة الفرس ، ومثلها قبائل عربية عديدة دخلت في نطاق الجمهورية التركية .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ، وهو يتناول تاريخ الامة العربية بالمشرق والمغرب في نضالها ضد الحكم الاجنبي ، وذلك منذ صدر العهد العثماني ، حتى الآن ، لا سيما خلال الاستعمار ، والحمايات والانتدابات ؛ وينتهي الجزء الثاني بالكلام على عصري الاستقلال العربي والتعاون العام

فهرست الاعلام[1]

(١) جرينا في ترتيب الاسماء على حسب ما وردت في الكتاب دون التقيد بتقديم الاسم او الكنية . ونحن ، في ذلك الترتيب ، لا نعتبر كلمتي ابن واب . هذا وان المؤرخين والعلماء ، الذين ورد ذكرهم في هذا الفهرست، هم الذين اعتمدنا عليهم في الرواية على الأكثر .

ـ ب ـ

— غ —

— ف —

— ق —

— ك —

فهرست الكتاب

كتب المؤلف المطبوعة

•

	سنة	عدد الصفحات
المرأة في التاريخ والشرائع	١٩٢١	٢٧٦
فلسفة التاريخ العثماني	١٩٢٥	٣٠٤
المرأة في التمدن الحديث	١٩٢٧	٢٨٠
اوليات سلاطين تركيا	١٩٣١	٨٠
الانتدابان في العراق وسورية	١٩٣١	١٣٧
فلسطين اندلس الشرق	١٩٤٦	٢٨٢
قوافل العروبة ومواكبها (الجزء الاول)	١٩٤٨	٢٣٠

•

وصدر للمؤلف في اللغات الاجنبية :

١ - كتاب في اللغة الفرنسية « الانتدابات » Les mandats عنيت بنشره مجلة المصرية L'Egyptienne بالقاهرة لصاحبة العصمة المرحومة هدى شعراوي باشا ابتداء من كانون الاول سنة ١٩٣٣ حتى حزيران ١٩٣٦ .

٢ - كتاب في اللغة الانكليزية وهو قيد الطبع في نيويورك بعنوان :

The Arab Nation in its Past and Present

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت - لبنان

في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٦٧

و ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٤٨